الجمهوريـــــــــة الجزائريـــــــــة الديمقراطيـــــــــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمـــــــــي

جامعـــــــــة أبي بكـــر بلقايـــــــد * تلمســـــــان *

كلية الآداب و العلوم الإجتماعية والعلوم الإنسانية

قسم الثقافة الشعبية: شعبة الفنون

رقم الجرد 948
تاريخ الوصول 2007/06/07
رقم التسجيل

أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري

دراسة تاريخية ومعمارية من خلال بعض النماذج

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الفنون الشعبية

إعداد الطالبة:

مهتاري المولودة زرقة فائزة

إشراف الأستاذ:

الدكتور معروف بلحاج

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.عبد الحميد حاجيات : رئيسا

د.معروف بلحاج : مشرفا و مقررا

أ.د.عبد العزيز لعرج : مناقشا

أ.د.دحو فغرور : مناقشا

د.حنيفي هلايلي : مناقشا

د.لخضر عبدلي : مناقشا

السنة الجامعية: 2005- 2006

إهداء

إلى من قال فيهما ربي و بلوالدين إحسانا

إلى أثمن لؤلؤتين أملكهما في الوجود من عيني و قلبي

إليكما أبي وأمّي العزيزين

إلى من كانوا لي في الحياة بهجة

زوجي واولادي محمد ياسين، مهدي عبد الرّحمن، وأنس

إلى كل من أدين لهم بالفضل في جميع أطوار الدراسة.

كلمة شكر

من باب الاعتراف بالجميل و الاقرار بالحق أتقدم بشكري الجزيل
إلى أستاذي المشرف الدكتور معروف بلحاج الذي رغم انشغالاته
العديدة إلا انه وافق الإشراف علي و أمدني بنصائحه القيمة و توجيهاته
الرشيدة.

كما لا يفوتني أن أشكر أيضا زوجي العزيز الذي تحلى بالصبر الجميل
معي و ساعدني كثيرا في إنجاز هذا العمل.

شكري الجزيل أيضا لأخواي زرقة شكري و زرقة أحمد فؤاد اللذان ساعداني
كثيرا من أجل إتمام هذه الرسالة.

كما لا يفوتني أن أشكر القائمين على الأضرحة
على ما قدموه لي من مساعدات ثمينة كما أخص بالشكر نادية و إيمان.

و أخيرا إلى كل من ذللوا أمامي الصعوبات و أناروا لي الدرب على طول
مسيرتي في إتمام هذا الإنجاز العلمي.

مقدمة :

ان عنوانا يتضمن مفردة و لفظة الفن، لا بد و أن يفيض بزخم هائل من الأفكار والمناحي،و التي يكفي لأي منها أن يكون عنوانا بحدّ ذاته.ان جميع أنواع العمائر عامة، يدعونا الى التوقف و التأمل،و لا سيما الضريح الّذي يعدّ من أهم المنشآت الدّينية التي أولى لها المعماري المسلم عناية خاصة.وقد واكب الضريح جميع أنواع الثقافات لشعوب الدول الاسلامية وعرف الرّقي والازدهار،و حس الجمال الفني،كما عرف البساطة و التقشف في البناء.و لكنه رغم ذلك ظل واقفا،شاهدا، على عظمة أجدادنا، وحسن تذوقهم للفنون.

ان للضريح أهمّية كبرى بالنسبة للحياة اليومية للمسلمين، فهو عامل توازن سيكولوجي،و اجتماعي،و ثقافي،أمام تحديات العصر، و عدم القدرة على التكيف،مع مقتضياته،والا كيف نفسر التبجيل الذي يخص به الشيعة مشاهد آل البيت،ولعل هذا الاهتمام لا ينحصر في الشيعة فحسب، فقد لاحظنا مدى الاهتمام الّذي تخص به الطبقات الشعبية الأضرحة،و مدى اقبالها على زيارتها،بشكل ملفت للنظر،لذلك بدى لنا أن نتعرض للأضرحة في الغرب الجزائري،بنوعيها السلطاني والشعبي بدراسة تاريخية،دينية ومعمارية،من خلال مقارنة تتعرض لأوجه الشبه و الاختلاف فيما بينها.

و قد قصدنا بالأضرحة السلطانية،تلك الّتي شيدها السلاطين، بغض النظر عن كونها موجودة امّا ضمن مجمعات معمارية،أو أضرحة منعزلة،تتموقع في مختلف الأماكن العامة.مع محاولة التعرف على الظروف التاريخية،لمختلف مؤسسيها.ثمّ استخراج أنماطها المعمارية،الّتي تباينت تباينا كبيرا فيما بينها،فكانت رائعة أحيانا،و بسيطة أحيانا أخرى.

اننا نسعى من خلال هذا البحث الى توضيح الرؤية بالنسبة للأضرحة في الجهة الغربية،و بصفة خاصة الأضرحة الشعبية، الّتي نعني بها المدافن الّتي قام ببنائها عامة

الشعب.و لكثرة انتشار هذه المباني،في الغرب الجزائري اخترنا بعض النماذج الّتي يمكن أن تعطي صورة واضحة،كعينات لهذه الدراسة التي نريد من خلالها استعراض أهم العناصر المعمارية و الزخارف المشكلة لهذه العمائر،و لو كانت بسيطة،كما سنحاول تبيين واظهار نقاط التقارب،و الاختلاف بين اللأضرحة.لقد بيّن Rinn، أن ظاهرة بناء الأضرحة الشعبية، المتمركزة هناوهناك،على بوابات المدن و في أعالي الجبال،تتصل اتصالا وثيقابالتقاليدالدينية،والهندسية،للشعوب،كماتتأثربطابع الحياةوالتشبع النفسي،بعناصر الجمال للأشخاص.دون اغفال اللّمسة الشخصية،و البصمة الاسلامية،الّتي تميز هذه الأضرحة عن المعالم الأخرى.كما تعرّض Gauvet، الى الأضرحة من خلال طرزها المعمارية المختلفة ، و لم يتناول بالدراسة سوى الأضرحة المقببة أو الّتي يعلوها سقف، بغض النّظر عن تلك الأضرحة البسيطة،الّتي تعرف بالمقام،الّذي يعتبر دائرة من الحجر،أو ما يعرف بالمزار(موضع الزيارة و التبرك)،

و الكركور وهو عدد من الأحجار المتراكمة،الّتي قد يأمر الوليّ قبل وفاته بوضعها على قبره.و الأماكن المغلقة و الغير مغطات المسماة بالحويطة ،أو الحوش.و أشار هو أيضا الى أن الأضرحة تنتشر بالمقابر و الجبانات وفي البوادي بالقرب من عيون الماء،كما صنّف عدّة طرز معمارية،انتشرت بكثرة في الغرب الجزائري،و من أهمها :أضرحة تعلوها قبة نصف كروية ،أو قبة نصف دائرية مدببة،أضرحة هرمية،مضلعة وأضرحة تعلوها أسقف بسيطة.كما بيّن Gauvet، أنّ للتيارات الدينية انعكاسا مباشرا على الشكل المعماري للضريح .تناولنا بالدراسة خمسة أضرحة سلطانية هي: ضريح سيدي أبي مدين، ، سيدي إبراهيم المصمودي، سيدي الحلوي، سيدي السنوسي، سيدي ابن مرزوق الحفيد، وأخيرا سيدي الهواري بوهران.

و كان الغرض من وراء هذه الدراسة ،تبيين مدى تقارب واختلاف، الأضرحة السلطانية فيما بينها،ثمّ بينها وبين الأضرحة الشعبية،لهذا طرحنا عدّة تساؤلات من أهمها :

هل للاتجاهات الدينية، و المذهبية، أثرا على ثراء العناصر المعمارية أو فقرها؟

وهل للاستقرار السياسي، انعكاس على الفنون؟ هل تأثرت عمارة الأضرحة في الغرب الجزائري، بالطرز المعمارية الموجودة في الأضرحة بالمشرق؟.

لماذا يبدو الضريح الذي يقع ضمن المجمع باهرا؟ وحسن الصنع، في حين يظهر الضريح الشعبي، بسيطا ولو كان مقببا؟

أسئلة حاولنا الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة الميدانية، التي لم تكن هينة،وبسيطة، إذ قد واجهتنا العديد من الصعاب، أثناء القيام بها، ولعل من أهمها: صعوبة زيارة بعض الأضرحة كضريح سيدي الهواري بوهران، وبعد مسافة ضريح سيدي الأخضر بن خلوف.ولكن الغاية بررت الوسيلة، وذلّلت الصعاب أمامنا حتى نطّلع على الكنوز المعمارية، الموجودة ببلادنا والتي إن غفلنا عنها أكثر هوت وسقطت في طيات النسيان.وللاجابة على التساؤلات الّتي يطرحها موضوع البحث،اعتمدنا في دراستنا على : المنهج التاريخي الوصفي، فقد قسمنا عملنا إلى دراسة تاريخية، تلتها دراسة فنية ميدانية، للأضرحة، كما استعملنا أيضا المنهج الاستدلالي،بالاعتماد على المنهج التحليلي والمقارن الذي يهدف الى ابرازنقاط الاختلاف والتقارب بين الأضرحة. و للوصول الى نتائج سليمة،ارتأينا تقسيم البحث الى فصل تمهيدي و ثلاثة أبواب كلّ باب يشتمل على فصلين، تناولنا في الفصل التمهيدي،أولا مفهوم التصوف، ولمحة عنه،ثم تناولنا ثانيا الإطار الجغرافي والتاريخي للغرب الجزائري،في الباب الأول،أدرجنا فصلين: في الفصل الأول درسنا الضريح ونشأته، وفي الفصل الثاني تعرضنا للأضرحة في المشرق الإسلامي.

أما الباب الثاني فبه فصلين،أولهما،يتناول الأضرحة السلطانية : (سيدي أبي مدين، سيدي ابراهيم المصمودي، سيدي ابن مرزوق الحفيد، سيدي السنوسي، سيدي الحلوي، وأخيرا سيدي الهواري بوهران، أما الثاني فيتناول الأضرحة الشعبية التالية: ضريح سيدي الأخضر بن خلوف، أضرحة مغرار التحتاني،أضرحة تيوت، ومنطقة عين الأربعاء بعين تموشنت من خلال بعض النماذج.

الباب الثالث من الرسالة تضمن دراسة تحليلية، ومقارنة لأضرحة الغرب الجزائري، ففي الفصل الأول من هذا الباب، تعرضنا للأبعاد الدينية، والتاريخية للمؤسسين، وفي الفصل الثاني تناولنا الجانب المعماري للأضرحة، فأجرينا مقارنة من الناحية المعمارية.

وختمنا الرسالة بخاتمة، تعد حوصلة لأهم النتائج التي استطعنا الوصول إليها.

ان الهدف الحقيقي من وراء هذه الرسالة، يبقى تحسيس الجميع بأهمية هذا الإرث الثقافي، الذي وان اختلفت مسمياته، يبقى الذاكرة الحقيقية للأمة، والدّال على الشخصية، والهوية، والأصالة.كما يبقى المجال مفتوحا أمام الدارسين،للبحث والتنقيب حول هذا المعلم، لأن الضريح لا يزال ينطوي على الكثير من الأسرار والكنوز الجديرة بالدراسة.

الفصل التمهيدي

- أولا: مفهوم التصوف والولاية و الكرامة
- ثانيا: الإطار الجغرافي والتاريخي للغرب الجزائري

أولا:مفهوم التصوف والولاية والكرامة

لقد بدى لنا أن نمهد تمهيدا مختصرا و وجيزا حول الصوفية، حتى نستطيع أن نضع الأولياء الذين سوف نتناولهم بالدراسة ضمن إطارهم الديني الصحيح و اللائق بهم، خاصة و أن هذه الأضرحة لم تقم صدفة لهؤلاء الرّجال بل لكونهم توفرّت فيهم سمات و خصال أهلتهم لأن تخلّد ذكراهم، و تشيد أضرحة لهم تجعل منهم عبرة و قدوة للأجيال التي ستأتي بعدهم.

و بما أن موضوع التصوّف ذو شجون فلقد حاولنا الإختصار قدر المستطاع، حتى لا نخرج عن حدود موضوعنا، و دون أن نخلّ أيضا بجانب مهم منه حتى لا يبدو هذا الأخير مبتورا ناقصا.

و حتى لا نطيل الحديث سوف نبدأ بتعريف التصوّف الذي كان المنهاج المشترك لكلّ هؤلاء الأولياء على اختلاف اعتقاداتهم و اتجاهاتهم :

1. تعريف التصوف:

عرّفه الإمام الجنيد أبو القاسم القواريري بقوله:" هو أن يميتك الحق عنك و يحييك به". [1] " و معنى يميتك عنك: أي عن نظرك لنفسك و يحييك به أي بذكره ومناجاته. ويواصل الجنيد أيضا:" التصوف هو: أن تكون مع الله بلا علاقة. و قيل التصوّف هو الدخول في كلّ خلق سني، و الخروج من كل خلق دني[1]."

و الخلق السنّي هو الخلق الرفيع كالورع و الزهد و التوكل و الرضا... إلخ ،والخلق الدني كالرياء و العجب و الكبر و الحسد و سوء الظنّ.

وقد عرّفه الشيخ زروق رضي الله عنه:" قد حد التصوّف و فسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ترجع كلّها لصدق التوجه إلى الله تعالى و إنما هي وجوه فيه و الله أعلم.. ثمّ قال: و الإختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دلّ على بعد إدراك جملتها، و العبارة (التعبير) عنه بحسب ما فهم منه، و جملة الأقوال واقعة على تفاصيله..."، و من أجل ذلك ألحق

1- أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسني : كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المطبعة الجمالية بحارة الروم، مصر 1913 – ص 4.

[1] – أحمد ن أحمد بن عجيبة الحسني : المصدر نفسه ص 4.

الحافظ أبو نعيم بغالب أهل حليته عند كلّ شخص قولا من أقوالهم يناسب حالة فيقول :" و قيل إن التصوف كذا"، فاقتضى أنّ كلّ من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف و أن تصوّف كلّ أحد صدق توجهه.[1] "

ولا يكون التصوف إلاّ بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلاّ بصدق توجه ولا هما إلاّ بإيمان إذ لا يصحّ واحد منهما بدونه، ومنه قول مالك رحمه الله:" من تصوّف و لم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه و لم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق"[2].

وقد وجدنا تعريفا آخر مختصرا للتصوف يقول:" التصوّف هو التخلق بالأخلاق الإلاهية[3]" و قد عرف عكاشة الشايف التصوف قائلا :" و الصوفية لغة: نسبة إلى الصوف، وهو اللباس المفضل عند مريديها، و قد أخذوه تقليدا عن الرهبان النصارى

و الصوفية نوع من الزهد و الغيبة، و تمثل ردة فعل من العقلانية ... وكان التوكيد فيها على العاطفة (الحبّ الإلاهي) و على النور الداخلي الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، و على الزهد وتقشف الإنسان إلى معرفة الله و التقرب الشخصي منه، و أخيرا الإتحادية، في سير تطورها.

أخذت الصوفية أيضا بعض الآراء المستمدة من البوذية كالإتحاد بالله و الفناء فيه ... و مما يشير إلى أثر الرهبنة المسيحية في الصوفية الإنقطاع للتـــأمل الروحي، و إطالة التهجدو الصلاة[4].

وبما أن الموضوع ذو شجون، فسوف نتحدث عن المبدأ الأساسي عند الصوفية

---

[1] – ابو العباس احمد بن زروق : قواعد التصوف مكتبة الكلبات الازهرية القاهرة 1989 ص 3.

[2]– كمال الدين عبد الرزاق القاشاني من صوفية القرن الثامن الهجري : اصطلاحات الصوفية، تحقيق و تعليق الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر، مركز تحقيق التراث، الهيئة العامة لكتاب، 1981م، ص 156.

[3]– الشايف عكاشة : الحضارة العربية الإسلامية بين التطور و التخلف، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 04-1994، ص 86-87.

[4]– نفسه ص 86-87.

و يتعلق الامر بالولاية، المأخوذة من المذهب النصراني الغنوسطي*، و الولي هو من يواليه الله و ينصره "[1].

2. الولاية :

الولاية لغويا:

أما الولاية فهي قيام العبد عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب و التمكن.[2]

وأما الولي:فيدل على من تولى الله أمره و حفظه من العصيان، و لم يخله نفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال قال الله تعالى :" و هو يتولى الصالحين[3] "

و إثراء للموضوع، أوردنا تعريفا شاملا و كاملا حول هذين المصطلحين ، بحكم شدة الوثاقة بين الضريح و الولي .

و في هذا الاطار نقدم تعريفا أوسع لمفهوم الولاية.

فالولاية بالفتح : مصدر،جاء في لسان العرب أن الولي هو اسم من أسماء الله تعالى وهو الناصر،و قيل المتولي لأمور العالم و الخلائق القائم بها[4].

و الولاية بالكسر: اسم، و معناها النصرة، قاله سيبويه و يقول الأزهري في هذا الصدد: الولاية بالفتح أظهر في النسب و النصرة، من قولهم: و ليّ بين الولاية،أما بالكسر فهي الإمارة من قولهم وال بين الولاية[5].

أمّا الولاية في الإصطلاح، فهو المتمسّك بالطاعة على وجه القربة و **الوليّ** له معنيان:

- المعنى الأول أنه: فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه أمره: قال تعالى: "وهو يتولى الصالحين" فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه و تعالى رعايته.

---

* هو اللهوتية و المحبة الالهية.

[1]- كمال الدين عبد الرزاق القاشاني: نفس المصدر السابق، ص 54.

[2]- نفسه ص 54.

[3]- نفسه ص 54.

[4]- إبن المنظور(جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) 711 ه /1311م: لسان العرب،سلسلة تراثنا،طبعة مصورة عن طبعة بولاق،المجلد الخامس ، ص 406 ،407

[5] كمال الدين عبد الرزاق القاشاني: المصدر نفسه، ص 54.

– و المعنى الثاني: فعيل مبالغة من فاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان. و يفسّر هذا اللّفظ، حيثما ذكر حامله على أنه راجع إلى معنى القرب و الدّنو، و قد شاع ذلك لغة و اسطلاحا، فأولياء الله تعالى عبارة عن أقرب خلقه إليه، و أدناهم بالمترلة و المكان لديه.

ومن شروط الولي: أن يكون محفوظا في ولايته، كما أنّ من شرط النبي أن يكون معصوما.

و قد وردت في حق الاولياء آيات عديدة منها (" ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون")[1]. و عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي ذُو حَظٍّ مِنْ الصَّلَاةِ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ * غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ نَقَرَ بِيَدِهِ فَقَالَ عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ قَلَّتْ بَوَاكِيهِ قَلَّ تُرَاثُه"[2]

" و سئل رسول الله صلى الله عليه و سلّم عن أولياء الله تعالى فقال:" هم الّذين يذكرالله تعالى برؤيتهم". و قيل في حقهم شعرا :

أمر ثقب النجوم من السماء نجوم الأرض أبهر في الضّياء

فتلك تبين وقتا ثم تخفى و هذي لا تكدّر بالخفاء

هداية تلك في ظلم الليالي هداية هذه كشف الغطاء [3]

"وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ سمعتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ

---

[1] سورة يونس، الاية الرابعة.

* الحاذ: خفيف الحال الذي يكون قليل المال و خفيف الظهر من العيال.

[2] قرص مضغوط ،للسنة النبوية الشريفة،سنن الترميذي كتاب الزهد عن الرسول (ص)

[3]– ابو العباس بن ينصارن الماجري المغربي : المنهاج الواضح في ذكر مناقب الشيخ ابي محمد الصالح الطبعة الاولى 1933 المطبعة المصرية محمد محمد عبد اللطيف ص 100.

تَعَالَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ قَالَ هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[1]

و قد كانت لهؤلاء الرجال كرامات، خصّهم الله تعالى بها، و تداولتها ألسن الناس على مرّ العصور، فما هي الكرامة ؟

3. الكرامة:

لفظها في اللغة اسم مشتق من التكريم أو الإكرام، بمعنى الفضل أو التفضل[2]"

وفي الإصطلاح: هي أمر خارق للعادة يظهر على يد الوليّ من غير دعواه، يعقبه وقوع العلم بالتصديق ضرورة، و الكرامات لاحقة بمعجزات الأنبياء، فكرامات كلّ أمة لاحقة بمعجزات أنبيائها، فكرامات هذه الأمة لاحقة بمعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سيدي أبومدين شعيب يوما لأصحابه:"كل معجزة كانت للأنبياء، ظهرت كرامات للأولياء في هذه الأمة تشريفا و تعظيما و تكريما لنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقيل له يا سيدي: و هل وقعت لبعض الأولياء كرامة بإنقلاب العصا حية قال نعم و ذالك في حديث طويل[3].

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام:" ما من عارف من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ذي حال كريم أو مقام عظيم، من كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، إلا و له عليه السلام مثل أجر ذلك العمل، مضافا إلى أجور معارفه و أعماله، و ما من درجة علية ولا رتبة سمية نالها أحد من أمته باتباعه و إرشاده إلاّ و له مثلها مضافا إلى درجاته، و علو

---

[1] سنن أبي داود رقم الحديث 3020 ،كتاب البيوع ، باب الرهن.

[2]- ابن المنظور :لسان العرب...،المجلد الخامس ، ص 406 ،407

[3]- احمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر بيروت – المجلد السابع، ص: 143.

مرتبته و مقاماته صلى الله عليه و سلّم، و قد يضاعف له ذلك لأن كل من دعا أمته إلى هذا أو سن سنة حسنة، كان له أجرها و أجر من عمل بها على عدد العاملين، ثمّ يكرر ذلك مضافا لنبينا محمد صلى الله عليه و سلم"[1].و في هذا الصدد يقول أبو يزيد البسطامي:" مثل ما حصل لنبينا عليه السلام كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، و مثل ما في الظرف مثل ما لنبيّنا محمد صلى الله عليه و سلم".وذهب كثير من الناس إلى أن الكرامة لا تقع اختيارا، ولو قصد الولي وقوعها اختيارا لم تقع. و قد خالف إمام الحرمين " الجويني" (*) في هذا، فقال :" هذا القول غير مرض بل المختار عندنا ألا يمتنع وقوع الكرامة على وفق مراد الولي و قصده و اختياره كما لا يمتنع وقوعها على غير اختياره، و دليل ذلك فعل عمر رضي الله عنه حين صرخ وهو على المنبر، بسارية وجيشه، وهم بأكناف نها وند و كان قصده و اختياره أن يسمعوا كلامه فوقع ذلك كما أراد واختار"[2].

وهي تخص أولئك الذين لا يستأنسون كثيرا بها، بل عند ظهورها يصير خوفهم من الله تعالى أشد و حذرهم من قهره أقوى، وهم لا يفرحون بها إلا لاظهار الذل و التواضع في حضرة الله، فإن ترفعوا و تكبروا بسبب تلك الكرامة، فقد بطل ما بهم[3].

و لقد كثر الحديث عن التسليم بوجودها إلاّ أنه مهما كان الإختلاف في وقوعها أو عدم وقوعها، فلا بد من التسليم بأنها ظاهرة ثقافية نلمسها عندنا في الممارسات اليومية لدى الناس. ولا حجة لمن يرفضها جملة و تفصيلا بإسم العقل، لأن الظاهرة التي لا توزن

---

[1]- المقري : نفس المصدر السابق، ص : 142.

*- الإمام الجويني: هو إمام الحرمين، شيخ من شيوخ العقيدة الأشعرية، أخذ عنه أبو حامد الغزالي، من مؤلفاته كتاب الإرشاد. (ينظر إلى كتاب محمد بن محمد مخلوف شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار العربي بيروت – لبنان، ص: 320).

[2]- المقري : المصدر نفسه، ص: 142.

[3]- جمال الدين بوقلي حسن : إبن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية و في الواقع، رسالة لنيل درجة " ماجستار" جامعة تلمسان معهد الثقافة الشعبية سنة 1997، ص : 87-88.

بميزانها،و لا تقدر بمقاييسها، تكون عرضة لأسوأ الأحكام، إن ظهور الكرامات على يد الأولياء جائز عقلا و شرعا[1].

[1]- جمال الدين بوقلي حسن: نفس المرجع السابق، ص: 88-89.

ثانيا- الاطار الجغرافي و التاريخي للغرب الجزائري

1 جغرافية المغرب الأوسط

قبل التطرق إلى جغرافية المغرب الأوسط ،من المناسب جدّا تقديم تعريف حول مصطلح، بلاد المغرب وهو مصطلح يقصد به كل الاقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل شمال القارة الإفريقية ، وتتضمن حاليا البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة وطرابلس وفزان) وتونس والجزائر بصحرائها المترامية الأطراف إلى تخوم السودان ، وأخيرا المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب بإسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية ويمتد طبيعيا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر.

وإسم بلاد المغرب هو إسم الإتجاه الأصلي الذي يحدد مغرب الشمس، ...أو ما يعني البلاد الواقعة في إتجاه غروب الشمس [1] .

ولعل القسم الذي يهمنا في هذه الدراسة هو المغرب الأوسط ، وقد ميز الجغرافيون العرب الأقاليم الغربية البعيدة من هذا المغرب فأطلقوا عليها إسم المغرب والمغرب الأقصى وهو الذي عرف إبتداءا من منتصف القرن وإلى عهد قريب بإسم عاصمته السياسة مراكش والمغرب الأوسط، وهو الذي يعادل بلاد الجزائر الحالية وأصبح خط التقسيم الشمالي بين المغربين (الأوسط والأقصى) هو مجرى وادي ملوية أو مابين تلمسان (عاصمة المغرب الأوسط) و تازا (مدينة المغرب الأقصى) [2] .

ويتكون المغرب الأقصى عند الجغرافيين العرب من إقليم تيهرت في الشرق وتلمسان في الغرب ، ويحده من الجهة الغربية المغرب الأقصى وخط التقسيم بين المغربين وهو مجرى نهر ملوية الذي يجري بين إقليم تلمسان في الجزائر وناحية تازا من المملكة المغربية ، ولقد

---

[1] – عبد الرحمان إبن خلدون ، العبر ، طبعة القاهرة ، ج 6 ص 98 والترجمة ، ج 1 ص 186 .

[2] – البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب نشره دي سلان DE SLANE بعنوان Description de l'Afrique Septentrionale ، الجزائر ، 1911 ص 76 .

بين المؤرخون خلافا فيما يتصل بإقليم تلمسان ، وهو القسم الغربي من المغرب الأوسط فيما بين وهران وإقليم سيق ، ومجرى نهر ملوية ... [1].

و رغم التسميات و التقسيمات المختلفة التي ذكرناها فإن بلاد المغرب وحدة جغرافية مترامية الأطراف ووحدة بشرية، تتألف من السكان الأصليين وهم شعب البربر و الفاتحين القادمين من شبه الجزيرة العربية، و نذكر من أقطار المغرب برقة و طرابلس و إقليم إفريقيا ، والمغرب الأوسط و المغرب الأقصى كما سبق الذكر آنفا.

2 تاريخ المغرب الأوسط من الفتح إلى العهد العثماني

عرف المغرب أحداثا كثيرة منذ فتحه و لم تكن هذه الاخيرة خالية من الصراعات و الخلافات ،و لكنه رغم ذلك عرف الكثير من الامجاد و اللانتصارات

أ * فتح الغرب الجزائري :

أسس عقبة إبن نافع الفهري * مدينة القيروان وكان بناء هذه المدينة في ذاته حدثا هاما في تاريخ الفتح العربي للمغرب، وقد أكد إبن الأثير هذا الرأي بقوله " ودخل كثير من البربر في الإسلام ، وإتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا وإطمئنوا على المقام ، فثبت الإسلام بها " [2] .

ولكن مسيرة عقبة إبن نافع المشرفة قد توقفت بعد عزله عن ولاية إفرقية، عند تولي مسلمة بن مخلد الأنصاري ولاية مصر و ضمها الى ولاية إفريقية . وقد نجح في ذلك وأصبحت له منذ سنة 55 هـ ولاية مصر والمغرب،فقد انفصلت ولاية المغرب عن ولاية مصرأثناء ولاية، أبي المهاجر دينار، ولعله أول من جمعت له ولاية مصر

---

[1]. حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته ، من قبل الفتح العربي إلى بداية الإحتلال الفرنسي الجزائري من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر ميلادي ، المجلد الأول الجزء الأول ، العصر الحديث للنشر و التوزيع ، ص 21 – 24 – 25 – 26 – 27 .

* عقبة إبن نافع الفهري من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد قيل أنه ولد على عهد رسول الله (ص) وإشترك في حملة عمرو على مصر وكان ذا حنكة حربية عالية : فتح الواحات الداخلية من إقليم برقة ففتح فزان وزويلة ثم فتح إفريقية، وبعد مشاق كبيرة توفي عقبة إبن نافع في نهاية سنة 63 هـ (أنظر إبن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ، ج 1 ص 19 ، السلاوي الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ص 146) .

[2]_ إبن الأثير (علي إبن أحمد بن أبي الكرم) : الكامل في التاريخ – دار صادر بيروت لبنان الجزء 3 ص 235

والمغرب[1] . وعين مسلمة بن مخلد على ولاية القيروان أبا المهاجر دينارالذي. كان مولى لمسلمة بن مخلد وشديد القرب منه ، وأساء أبو المهاجر دينار عزل عقبة وأوقره حديدا ، وقد تم فك وثاقه وتخلية سبيله بأمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان [2] .

ومع أن ولاية أبي المهاجر للمغرب قد دامت سنوات (55 – 62 هـ) إلا أن إنجازات هذا الأخير لاتكاد تذكر،فقد طبق أبو المهاجر أثناء حكمه سياسة مخالفة لسياسة عقبة العسكرية الصارمة، فعمل على إكتساب البربر باللين والمداراة ، وواصل فتوحاته الاسلامية،نحو المغرب الأوسط، ففتح ميلة، وإنتهى به المطاف إلى أبواب تلمسان، حيث هزم بربر أوربة ، وهم فرع من البرانس ،[3] وامتازت سياسة أبي المهاجر دينار بلعمل على توسيع رقعة الإسلام، وجلب الكثير من زعماء البربر إلى الإسلام .

و بقي أبو المهاجر دينار على ولاية المغرب، حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان وخلافة ابنه اليزيد الذي أعاد عقبة من جديد إلى ولاية المغرب [4] .

زحف عقبة ابن نافع بعد توليه ولاية المغرب من جديد نحو المغرب الاوسط ،و ذلك بمعية جموع كثيرة من مسلمي البربر يتزعمهم كسيلة البرانسي،وقد سلك طريق الزاب الصحراوي ، وقاتل الروم وحلفائهم من البربر في وادي المسيلة فهزمهم واتجه بعد ذلك إلى ما يعرف بتيهرت اليوم وجعلها هدفه الرئيسي حيث تجمعت فيها جموع قبائل لواتة

---

[1] إبن عبد الحكم (عبد الرحمن إبن عبد الله) : فتوح مصرو المغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، 1961 وطبعة Albert Gateau بعنوان Conquête de l'Afrique du Nord et l'Espagne ، الجزائر 1947 ، ص 66.

[2] نفسه ، ص ج 1 ، ص 31 .

[3] المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) : كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، 1951 ، ج 1، ص 31 .

[4] السلاوي : نفس المصدر السابق ، ج 1 ، ص 80

وهوارة،وزواغة ومطماطة، وزناتة، ومكناسة، مع من انظم إليهم من الروم، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف إنتهى بهزيمة البربر وحلفائهم [1] .

وهكذا قضى عقبة بن نافع على كّل مقاومة من قبل البربر، أو الروم، في المغرب الأوسط ومضى في سيره متجها إلى طنجة [2] .

وبعد وفاة عقبة بن نافع في أواخر سنة 64 هـ عرفت بلاد المغرب فتنة بسبب الخلاف الذي وقع على الخلافة الإسلامية.

وبعد إنتهاء أزمة الخلافة الثانية ، انصب اهتمام الخليفة عبد الملك بن مروان على إعادة الإستقرار للمغرب ، وقد جهز هذا الأخير جيشا كبيرا بقيادة حسان بن النعمان وعهد إليه بولاية المغرب، و دخلت الجيوش إلى المغرب سنة 73 هـ / 692 م[3].فواجه حسان الكثير من الصعوبات،أثناء حروبه ضدّ الروم، والبربر،حتى انتصر عليهم وعاد إلى القيروان ولكنه واجهته مصاعب كثيرة تمثلت في ظهور الكاهنة * التي هزمته للوهلة الأولى[4].

و لم تتوقف محاربة حسان بن النعمان للكاهنة حتى انتصر عليها وكسر شوكتها في سنة 82 هـ وسحق جيشها، وقتلها وبذلك قضى حسان بن النعمان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأوسط وإستقامت له البلاد [5] .

---

[1] سيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير (العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية ، دار النهظة العربية – بيروت– 1981،ج 2 ، ص 223 .

[2] نفسه ، ج2 ، ص223 .

[3] سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الإستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) منشأة المعارف بالأسكندرية 1995 ، ج 1 ، ص 214 – 215 .

* الكاهنة . ويقال لها داهية بنت ماتية بن تيغان ملكة جبل أوراس وقد قيل أن جميع من بإفريقية كان يخاف منها ويطيعها و الكاهنة بربرية من قبيلة جزوة (ينظر كتاب السيد عبد العزيز سالم ، نفسه ، ص 244) .

[4] ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق, ص 76

[5] سيد عبد العزيز سالم ، نفسه ، ج 2 ، ص 248 .

ومن أهم إنجازات حسان في المغرب الاسلامي،بناء تونس و فتح بلاد المغرب بحدّ السيف مرّة،و بالّين مرّة أخرى،في آن واحد،كما أنه حوّل إفريقية قلبا وقالبا إلى ولاية عربية إسلامية [1] .

وبعد عزل حسان بن النعمان ولي موسى بن نصير على إفريقية وذلك في أواخر سنة 85 هـ / 705 م .

وكان من بين إنجازات موسى بن نصير في المغرب الأوسط، أن بعث قائده علياش بن أخيل إلى قبائل هوارة وزناتة فأغار عليهم وقتل منهم جماعات كثيرة ، وبلغ سبيهم خمسة آلاف نفر، كما أنه لقي مرة أخرى قبائل صنهاجة وقتل ملكهم على وادي ملوية [2] .

وأقام طارق بن زياد بتلمسان، وكانت هذه الأخيرة بالنسبة للمغرب في ذلك الوقت قرينة للقيروان بالنسبة لإفريقية ... [3].

لقد تعاقبت على الجزائر عدة دول إسلامية، تركت آثارا مختلفة في تاريخها الحافل والمليئ بالأحداث، التي ساهمت في تكوين الهوية الوطنية : ومن أهم هذه الدول :

ب* الدولة الرستمية :

كانت الدولة الرستمية دولة إباضية *، وكانت قسوة بعض ولاة بني أمية في بلاد المغرب تجاه البربر، وشدة التعسف عليهم عاملا قويا، لهؤلاء لتقبل الدعوة الإباضية [4] .

---

[1] السيد عبد العزيز سالم نفس المرجع نفسه ، ج 2 ، ص 250 م

[2] سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ... ج 1 ، ص 242 .

[3] نفسه ، ح 1 ، ص 249 .

* – الإباضية : إسم مشتق من عبد الله بن إباض ويبدوا أن هذه الفرقة ظهرت كجماعة مستقلة سنة 65 هـ – 685 م عندما إنفصل عبد الله بن إباض نهائيا عن الخوارج ، ولكن المصادر الإباضة تنسب إلى عبد الله بن إباض دورا ثانويا في الحركة مقارنة مع جابر بن زيد الأزدي العماني الذي تعتبره إمام المذهب ومؤسس فقههم ومذهبهم (ينظر بلحاج معروف : العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب من خلال بعض النماذج ، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة قسم الآثار، كلية الآداب.. تلمسان ، السنة الجامعية 1423 هـ / مارس 2002 م ، ص 25) .

[4] معروف بلحاج ،نفس المرجع السابق ، ص 33 .

ويعود الفضل في تأسيس الدولة الرستمية بتيهرت * إلى عبد الرحمن إبن رستم، الذي لم يفكر بربط مصيره وأتباعه بالمغرب الأوسط، إلا بعد أن فشلت محاولاته في العودة من جديد إلى إفريقية [1] .

و أجمع المؤرخون على أن عبد الرحمان إبن رستم من أصل فارسي [2] ،وأنه إختار المكان الذي تقوم عليه مدينة تيهرت القديمة ، لأنها كانت حصنا لبرفجامة و يمتاز موقعها، بأنه على سفح جبل جزول المرتفع وبها أرض صالحة للزارعة [3] .وأصبحت مدينة تيهرت،أثناء حكمه حاضرة من أهم حواضر المغرب الاسلامي،حيث يقول إبن الصغير في هذا الصدد : " ليس أحد يترل بهم من الغرباء إلا إستوطن معهم وبتنى بين ظهرانهم، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في الرعية [4] .

ولقد سعى عبد الرحمن إبن رستم بفضل حنكته، وحكمته، إلى توحيد صفوف أتباعه وسمع به وجوه الإباضية وعلمائهم، فقصدوه من كل النواحي حتى اجتمع لديه من طرابلس وجبل نفوسة، من العلماء وحدهم ما يزيد عن ستين من كبار أهل العلم، و الفضل والرأي [5] .

كانت إمارة بني رستم الكبرى بتيهرت،من أشهر الإمارات الإباضية وأقواها في المغرب الاسلامي، تأثيرا على الحياة الإجتماعية، والسياسية، بتيهرت ويعود ضعف هذه الإمارة الى اختلاف شيعها،وإشتداد روح العصبية في قبائلها،و تمكن الخلافات المذهبية من رعاياها [6]

---

* – تيهرت : و معناها بالغة العربية اللبؤة .

[1] – سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي (تاريخ دولة الأغالبة و الرستمية و بني مذار و الأدارسة في قيام الفاطميين ، منشأة المعارف بالأسكندرية)، ص 291 .

[2] – عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ، ج 2 ، ص 246 .

[3] – السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ج 2 ، ص 541 .

[4] – ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستمية : تح ، محمد الناصر إبراهيم ، المطبوعات الجميلة ، الجزائر 1986 ، ص 31 – 32.

[5] – سليمان الباروني : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، د.ت ، ج 2 ، ص 36 – 37 .

[6] – رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، سبتمبر 1986 ، ص 34 – 38 .

ت*الدولة الإدريسية (دولة الأدارسة) :

يعد قيام الدولة الإدريسية أول تجربة نجح فيها آل البيت، في إقامة دولة كبيرة لأنفسهم،نظرا لمنافسة الدول الأخرى المجاورة لها [1].

ويرجع ميلاد هذه الدولة إلى معركة فخ التي وقعت في سنة 169/ 786م في خلافة الهادي العباسي، فقد أوقعت فيها قواته مذبحة بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن علي إبن أبي طالب كرّم الله وجهه،وقد اشترك في القتال مع الحسين عماه إدريس بن عبد الله بن الحسن و يحيى ، ونجح إدريس من النجاة والإفلات مع المنهزمين من بني الحسن [2].

والمهم أن إدريس بن عبد الله بن الحسن، قد وصل بصعوبة إلى المغرب الأقصى سالما ونزل ب وليلى غرة ربيع الأول سنة 172هـ ،ونظرا لإدراك قبائل البربر لقرابته للرسول (ص) فقد إجتمعت حوله قبائل أوربة ومغيلة،وتبعتها قبائل زناتة :وهي زواوة، ونفزة، و مكناسة،و غمارة، و بايعوه بالإمامة[3].

وهكذا أصبح إدريس قيما على إمارة قوية بالمغرب الأقصى، بفضل حزمه، و قوته، ولما توطد ملكه بالمغرب الأقصى، اتجهت أنظاره نحو المغرب الأوسط، فزحف نحو الجهة الغربية من المغرب الأوسط سنة 173 هـ [4].

و كانت تلمسان في تلك الحقبة تحت نفوذ قبيلتين قويتين من قبائل زناتة هما : (مغراوة و بني يفرن) وتندرج تحت نفوذهما تلمسان، ووهران، ونواحيهما وما حوالي شلف شمالا، ووصل إدريس إلى تلمسان فخرج إليه صاحبها محمد بن خزر طائعا وسلم له المدينة فدخلها مسالما بدون حرب، و أقام بها أشهرا، بنى فيها مسجدا ... ولحق بإدريس بعد ذلك أخوه سليمان ونزل على تلمسان ..[5].

---

[1] حسين مؤنس : تاريخ المغرب ...، ج1 ، 373.

[2] بن الاثير : المصدر السابق ،ج5 ، ص76

[3] سيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق،ج 2 ، ص 469

[4] ابن عذاري (أبو العباس أحمد) نفس المصدر السابق ، ج1 ، ص 299 .

[5] رابح بونار : المغرب العربي ، ص 38 – 39 .

وقد ولد هذا الإنتصار خوفا لدى الخليفة العباسي، لاسيما بعد أن دخل تلمسان التي تعد باب إفريقية، فخاف من أن يتطلع إلى خلافته فدبر له مكيدة ،وقتله بواسطة السم على يد سليمان بن جرير المعروف بالشماخ، سنة 177هـ [1] وقد سقطت دولة الأدارسة على يد الفاطميين .

ث* الدولة الفاطمية :

لقد كان قيام الدولة الفاطمية،حدثا مهما في التاريخ الإسلامي ، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية في إقامة خلافة لهم في المغرب، جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية [2] .كما كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب، إنقلابا خطيرا،أدى إلى بترعلاقة المغرب بالمشرق سياسيا بصفة نهائية، ولا سيما مع الخلافة العباسية ببغداد [3] وبعد مخاض عسير إستطاعت هذه الدولة، التي عانت من قيام عدة ثورات، من بسط نفوذها في كل أرجاء المغرب الإسلامي .

وقد أفلح أبو عبد الله الشيعي* في القضاء على حكم الأغالبة في إفريقية عام 696هـ / 909م وإستطاع بسط نفوذه على بلاد المغرب [4] .

ولكن الأمر لم يكن هينا، علما بأن سكان إفريقية كانوا سنيين، متشبثين بالمذهب المالكي تشبثا كبيرا، و كان أبو عبد الله الداعي، و عبيد الله المهدي، ✦ قد أزاحا دولة

---

[1] سيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ج2 ، ص 470 – 471 – 472 – 473 .

[2] حسن إبراهيم و الأستاذ طه : عبيد الله المهدي ، إمام الشيعة الإسماعيلية ، القاهرة ، 1947 ، ص 20 .

[3] سعد زغلول عبد الحميد :فترة حاسمة من تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب و التربية بالجامعة الليبية ، المجلد الأول 1958 ، بنغازي ، ص 219 – 222 .

* – أبو عبد الله الشيعي : يمني من مدينة صنعاء أخذ العلم في بلاده التي كانت من معاقل الشيعة عن ائمة المذهب ، إنضم إلى عبيد الله المهدي و أصبح ضمن مجموعة الدعاة الإثني عشرة :وقد أبلى بلاء حسنا من أجل إرساء قواعد الدولة الفاطمية بالمغرب الأوسط (أنظر إلى سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ... ج2 : ص 544 – 555 – 556)

[4] زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، دار الرائد العربي ، بيروت 1401 – 1981 ، ص 7.

✦ – المهدي : إسمه الحقيقي سعيد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، إسمه عبيد الله كان مستعارا و كذلك المهدي كان لقبا إتخذه أو أطلق عليه لتحقيق نبوءة الفكر الشيعي عند أتباعه (أنظر محسن مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص 474)

بني رستم في تاهرت، و بذلك عاد المغرب الأوسط مرة أخرى إلى حالة الفوضى التي كان عليها قبل الدولة الإباضية [1] .

ويذكربن خلدون أنه " لما إستقام سلطان عبيد الله المهدي بإفريقية إستبد بأمره، وكافح أبا عبد الله الشيعي و أخاه أبا العباس عن الإستبداد عليه والتحكم في أمره، فعظم ذلك عليهما، وصّرح أبو العباس بما في نفسه، فنهاه أخوه عبد الله عن ذلك ، فلم يصغ إليه ، ثم استماله أبو العباس الى رأيه ، فأجابه ، وبلغ ذلك إلى المهدي فلم يصدقه، ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس ، وقال إنه مفسد للهيبة [2] .

وهكذا أصبح الصديقان الحميمان و اللذان بدآ المسيرة سويا ، عدوان لدودان فقد ثار أبو عبد الله الشيعي ضد المهدي و بدأ يحث الناس على خلعه، كما حاول أن يقنع الناس أنه ليس هو الإمام المعصوم فما كان على المهدي إلا تصفيته وقتله هو وأخاه أبا العباس وأبا زاكي تمام بن معارك[3].

وقد أثار مقتل أبي عبد الله الشيعي، استنكارا شديدا لسياسة عبيد الله المهدي وكراهية شديدة له فقد أنكر الكثير منهم مهديته وإختاروا رجلا يسمى كادو بن معارك وجعلوه إماما مهديا منتظرا [4] .

والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم في المهدي ، إذ اتضح لهم أن الوعود التي وعدهم بها أبو عبد الله الشيعي، عن انقطاع الفساد بخلافة المهدي وحلول عهد العدل والإنصاف لم تكن إلا سرابا فبالإضافة إلى البدع الدينية الجديدة، من إعلان عصمة الإمام وقدسيته وتجريح كبار الصحابة وأئمة الإسلام، (مما كان صعبا على شعب نشأ على السنة،

---

[1] المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) (845هـ) : إتعاظ الحنفا بأخبار أئمة الفاطميين الخلفاء بتحقيق د. جمال الدين ، القاهرة سنة 1948 م ، ص 38 .

[2] بن خلدون : العبر ... ،ج4 ، ص79.

[3] بن عذارى ، البيان من المغرب ، ج 1 ، ص 228 .

[4] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 166 .

و تعصب لمذهب مالك منذ أجيال قبوله)، انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة فاشتطوا في جمع الضرائب وتفننوا في تنويعها ، حتى فرضوا على الحجاج جميعا المرور بالمهدية [✦] حتى يدفعوا ضريبة الحج [1] .

كما أن المهدي قد فكر في فتح مصر أو الأندلس، فقد تبين له أن بلاد المغرب لاتصلح أن تكون مركزا لدولته ، ففضلا عن ضعف مواردها، كان يسودها الإضطراب وتشتعل فيها الثورات من حين لآخر[2].

أثناء ذلك كان عبد الرحمن بن محمد الأموي، يتتبع يقظا كل ما يحدث ، خاصة الخطوات التي يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم ، فوقف أمام مطامع الفاطميين وقفة صارمة ،وبث عيونه في أنحاء المغرب وأبلى بلاءا حسنا من أجل الحفاظ عن نفوذه [3] .

وقد سعى عبد الرحمن الناصر، إلى البحث عن أنصار له بين القبائل المعادية للفاطميين ولا سيما في منطقة الغرب الجزائري وتمكن من إستمالة مغراوة و بنو يفرن الزناتيين،

و كان محمد بن خزر يتزعم قبيلة مغراوة ،وأدرك المهدي خطورة السياسة التي ينتهجها الناصر ضده فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين، سنة 312هـ ، فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة الضاربة من وادي الشلف، حتى تلمسان ، واصطدم بقوات بن خزر في معركة عنيفة إنتهت بمقتل مصالة، و إنهزام جيشه في 20 شعبان سنة 312 هـ ، و قد إعتبر الناصر انتصار إبن خزر انتصار السياسة الإفريقية على الفاطميين ، وفي سنة 314 هـ أحرز بن خزر عدة انتصارات على قوات الفاطميين في تيهرت نفسها[4].

[✦] – المهدية : المدينة التي بناها المهدي (أبو عبد الله) حتى يستطيع من خلالها بسط نفوذه وتكون قاعدة محصنة له(ينظر سيد عبد العزيز سالم المرجع نفسه،ص209) .

[1] سعد زغلول عبد الحميد : فترة حاسمة من تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب و التربية بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازي ، 1958 ، ص 222 .

[2] جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، 1970 ، ص 27 .

[3] السيد عبد العزيز سالم ، نفس المرجع السابق ، ج 2 ، ص 690 .

[4] إبن عدارى ، نفس المصدر السابق ، ج1 ، ص 266- 269.

وعلى الرغم من محاولات عبيد الله المهدي الثلاث لفتح مصر ، بعد ان استحال عليه فتح الأندلس ، إلا أن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل ، و لم يتم فتح مصر إلا في عهد المعز لدين الله الفاطمي بسبب ضعف الخلافة العباسية ، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها[1].

ج* المغرب الأوسط في ظل حكم بني زيري و بني حماد الصنهاجيين :

ذكر المقريزي أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم بلكين بن زيري بن مناد، وعرض عليه ولاية المغرب وسمى بلكين يوسفا، وكناه أبا الفتوح وعهد إليه بأن يشرع في غزو المغرب الأقصى لحسم دائه، والقضاء على النفوذ الأموي فيه [2] .

وقد أثارت إمارة المغرب لبلكين بن زيري بن مناد، منافسة جعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب ، فشق على الفاطميين عصا الطاعة، كما ثارت عليه قبيلة زناتة القائمة بدعوة المروانيين في الأندلس، وخرج عليه أهل تاهرت فسار بلكين بن زيري إلى تاهرت ، فدخلها وخربها ، ثم مضى إلى تلمسان ليقضي على جموع الزناتيين، فحاصرها، ودخلها. وعاد إلى القيروان بعد أن وصله كتاب من المعز ينهاه عن التوغل في المغرب[3].

وخرج بلكين لغزو المغرب الأقصى، عندما بلغه أن خزرون بن فلفل بن خزر الزناتي قد زحف سنة 366 هـ إلى سجلماسة في جيش كثيف ، وبدأ أبو الفتوح بلكين بحصار سبتة فإستعصت عليه لمناعتها فتركها إلى فاس واستولى عليها سنة 368 هـ .

وافتتح سجلماسة، وقبض على إبن خزر أمير مغراوة وقتله ، ففر ملوك زناتة أمامه وتوفي أبو الفتوح في سنة379 هـ في طريق عودته إلى إفريقية، وذلك في بلدة وارلنغو الواقعة بين سجلماسة و تلمسان [4] .

---

[1] جمال الدين شيال (بحث عن مصر في العصر الفاطمي)، في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ،المجلد الثاني ، الجزء السادس ، ص 428 – 429 ، القاهرة 1963 .

[2] المقريزي ، إتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، نشره الدكتور جمال الدين شيال ، القاهرة ، 1948 ، ص 143 .

[3] إبن tعذارى نفس المصدر السابق ، ج 1 ، ص 329 .

[4] السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ج 2 ، ص 644 .

خلف أبو الفتح المنصور بن بلكين، ولده في أوائل سنة 347 هـ وتقلّد أمر إفريقيا والمغرب وعقد لعمه أبي البهار على تيهرت، ولأخيه يطوفت على أشير، فخرج أخاه يطوفت في سنة 374 هـ بأمر من أخيه المنصور إلى مدينتي فاس وسجلماسة، لاستردادهما من الزناتيين فهزم يطوفت من قبل زيري بن عطية الزناتي، وقتل من الصنهاجيين عدد كبير ثمّ عاد أدراجه إلى تيهرت ، وقد انظم إلى المنصور بن بلكين فريق من الزناتيين [1] .

وقامت في عهد المنصور ثورتان، أولاهما قام بها أبو الفهم الخراساني الداعي، سنة 376 هـ . و الثانية ثورة أبي البهار بن زيري، في تيهرت سنة 379 هـ فزحف إليه المنصور إلى تيهرت ففر منها أبو البهار متجها نحو المغرب، ودخل عسكر أبي الفتح المنصور مدينة تيهرت، وقتل من تصدى لهم من أنصار أبي البهار وولى على تيهرت أخاه يطوفت [2] .

وبعد أن خلف باديس بن أبي الفتح منصور، والده بعد وفاة هذا الأخير سنة 386 هـ تولى إمارة إفريقيا، و المغرب الأوسط، فأقر عمه يطوفت على ولاية تيهرت،كما أقر عمه حماد على ولاية أشير، ومافتئت قبائل زناتة تزحف نحو تيهرت، وهزمت الصنهاجيين وانسحب كل من يطوفت وحماد إلى أشير، ثم عاود هذان الأخيران الدخول إلى تيهرت.و لقد ظلّ حماد يحارب إخوته حتى تمكن منهم ،و أخذ يتأهب للإستقلال عن باديس ، و أسس مدينة القلعة ، و أعلن نبذه للفاطميين وشّق عصا الطاعة لباديس ، فخرج باديس لمحاربة عمه حماد،والتقى الجيشان في معركة انتهت بهزيمة حماد وفراره إلى القلعة .

وتوفي باديس سنة 406 هـ . وبويع ولده المعز سنة 406 هـ، وثم الصلح بين المعز وحماد وبمقتضاه استقل حماد بعمل المسيلة، وطبنة، و الزاب، وأشير، وتاهرت، وما يفتح من بلاد المغرب [3] .

---

[1] بن عذاري ، نفس المصدر السابق ، ج 1 ، ص 349 .

[2] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 353 .

[3] بن خلدون : العبر .. ، ج 6 ، ص 324 .

وهكذا انقسمت دولة الصنهاجيين إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة آل حماد في بلكين أصحاب القلعة [1] .

ح* المرابطون في المغرب الأوسط :

تمكن المرابطون بن بسط نفوذهم على جزء من المغرب الإسلامي، والأندلس، في مابين 1056 م – 1147 م، وقد استولو على تلمسان، في سنة 1070، وأصل المرابطيين من صنهاجة الجنوب الضاربة في الصحراء [2] .

وتعود تسمية هؤلاء إلى كونهم كانوا قوما مصلحين، يمارسون تعاليم الدين الصحيح في رباط.و قد دخل هؤلاء إلى المغرب كمصلحين، وقاوموا الخوارج والشيعة، ولكن هذه الحركة الإصلاحية انتقلت مع توالي الأيام الى حركة سياسية [3] .

وكان هؤلاء المرابطين يرتدون ملابس سوداء و يحملون أعلاما سوداء ولقبوا بالملثمين [4] .

ولعل الدافع الحقيقي الذي جعل المرابطين يزحفون،نحو المغرب الاسلامي،هو معانات هذا الأخير،من مشاكل عديدة تحت لواء أمراء بني وانودين الزناتيين، بسجلماسة وأمراء مغراوة، وبني يفرن، فكثرت المظالم، وضعف الوازع الديني، الذي كان بمثابة المحرض الأول للمرابطين انتصارا لضياع الدين الإسلامي، كما أن هناك عاملا آخر اقتصادي هام، جعل المرابطون يستولون على الناحية الشمالية، كونهم كانوا همزة وصل بين تجارة الشمال، والسودان، فضايقهم الغانيون وأخرجوهم من أودغشت، فإضطروا إلى إستعادة مكانتهم بالزحف إلى الشمال فكان ذلك الزحف عاملا، على تكوين دولة لها بالغ الأثر في توجيه الحياة الاقتصادية بالمغرب في إطار القانون الإسلامي[5]، وقد أصبح يوسف بن

---

[1] بن خلدون : نفس المصدر السابق ، ج 6 ، 324 .

[2] السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ج 2 ، ص 290 .

[3] محمد بن عمروا الطمار : تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة وحضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب 3 ، شارع زيروت يوسف الجزائر 1985 ، ص 41 .

[4] أحمد مختار العبادي : نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور في العصور الوسطى ، فصلة من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي ، ص 156 .

[5] رابح بونار : نفس المرجع السابق ، ص 236 .

تاشفين أميرا على المغرب بصفة رسمية منذ سنة 453 هـ، ودخل المغرب في عهده في طور جديد من الحياة السياسية اللامعة [1] .

وقد كان يوسف بن تاشفين، قائدا محنكا قاد الجيوش المرابطية في المغرب ببسالة، فأقام مدينة جديدة بجوار أغادير القديمة سماها (تاقرارت)، والتي توحدت فيما بعد مع أغادير وأصبحت تلمسان سنة 472 هـ/ 1070 م [2] .

ثم توغلت جيوشه داخل المغرب الأوسط، واستولت على تنس، ووهران ،وجبل وانشريس ... ووصلت حتى الجزائر ... ولم يدخل المرابطون في صراع مع إخوانهم الصنهاجيين في بجاية وتونس، مما جعل المغرب الإسلامي ينقسم إلى قسمين ، شرقي يحكمه بنوزيري وبنوحماد الصنهاجيين، وغربي يحكمه المرابطون [3] .

ولقد نال المغرب في عهد المرابطين إستقرارا إجتماعيا وسياسيا، لم يحض به في عهود أخرى ولكن بعد وفاة يوسف بن تاشفين في سنة 500 هـ،تولي ولده على بن يوسف بن تاشفين زمام السلطة،و لكن هذا الأخير أصبح دمية في أيدي الفقهاء، و صار لهم في أيامه سطوة لم يبلغوها من قبل. ويذكر المراكشي أنّه لم يكن يقّرب من أمير المسلمين ويحضى عنده إلا من علم علم الفروع ... فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاه ، ونبذ ماسواها وكثر ذلك حتى نسى النظر في كتاب الله، وحديث رسول (ص)[4].

و هكذا سقط علي بن أبي تاشفين، في أيدي الفقهاء فصارلقمة صائغة في أيديهم ، وانغمس المرابطون الملثمون في الترف والرفاهية، وأقبل رجال الأدب والعلم إلى بلاط

---

[1] رابح بونار : نفس المرجع السابق، ص 237 .

[2] محمد بن عمروا الطمار : نفس الرجع السابق ، ص 41 – 42 .

[3] عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ج 2 ، ص 715 .

[4] المراكشي (محي الدين عبد الواحد بن علي) : كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستذان محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1958 ، ص 171 .

الأمير بمراكش ومن هؤلاء، نذكر أبا القاسم بن الجد ، وأبا بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم[1].

ولما توفي علي بن يوسف بن تاشفين في سنة 533 هـ، خلفه ابنه تاشفين الذي توالت عليه الهزائم في المغرب، على أيدي عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، واستغل أهل الأندلس هذه الفرصة ، وأعلنوا ثوراتهم في الأندلس. فتمزقت البلاد من جديد بعد وفاته سنة 539 هـ إلى دويلات وطوائف [1] .

ولعل هذا التعنت الكبير للفقهاء، وإثارتهم للمشاكل والنزاعات، وأمرهم بحرق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بلاد المغرب، قد أدى إلى انطلاق موجة عارمة من الغضب عند الفقهاء ... لأن العلم في نظر الغزالي ليس حرفة كالحرف الأخرى تعود على صاحبها بالربح العاجل ، وإنما هو" عبارة القلب وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله عز وجل" [2].

ولهذا وذاك غربت شمس المرابطين ، فقد تعددت الأسباب و الموت واحد وفسحت المجال لدولة أخرى .وقبل أن نختم حديثنا عن الدولة المرابطية لابد من الإشارة إلى أن تلمسان قد عرفت خلال حكم هؤلاء محنة كبرى عند غزو المنصور الحمادي لها [3] .

خ* المغرب في عصر الموحدين :

يعدّ محمد بن تومرت ✦، المؤسس الروحي لهذه الجماعة وقد كان متشبّعا بتعاليم الأشعرية، وأيضا بنظريات الغزالي الكلامية، القائمة على الاعتقاد في القوى الخفية، والارتفاع في العلم إلى مستوى العلم الإسلامي الحق [4] .

---

[1] ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور سيد عبد العزيز والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، 1958 ، ص 247 .

[1] سيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع السابق ، ص 742 .

[2] أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، الجزء 1 ، طبعة مصر سنة 1302 هـ ، ص 45 .

[3] Amar Dhina, Cités Musulmanes d'orient et d'occident, entreprise nationale du Livre Alger N° 4 Edition : 135/83 Alger 1986, p5.

✦ يعد محمد بن تومرت، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب الأقصى و بوصية من آل أمرهم إلى عبد المؤمن بن علي ، و محمد بن تومرت من هرغة بالأطلس (للمزيد من التفاصيل إرجع إلى محمد بن عمرو الطمار : تلمسان ...، ص 51 – 52 – 53 – 54)

كان التقاء ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي ✦، تجسيدا فعليا لرغبته الملحّة، في إنشاء دولة قوية تأخذ بثأرها من الأعداء، وتستأصل حكم المرابطين من جذوره .

ومن ملالة أقبل إبن تومرت ومعه أتباعه إلى تلمسان، ونزلوا بآغادير في مسجد المدينة حيث انكب بن تومرت على التدريس، وأقام رابطة العباد في سنة 515 هـ فاجتمع إليه الطلبة [1] .

ثم غادر بن تومرت تلمسان إلى المغرب الأقصى، وطاف بمختلف المدن ينشر تعاليمه في التوحيد وبايعه عبد المؤمن بن علي، أوّلا ثم تلته جماهير غفيرة خاصة حينما إدعى أنه المهدي وقد بويع بن تومرت من قبل قبائل المغرب الأقصى، وأصبحوا بذلك طائعين له طاعة عمياء .وهكذا أصبح المهدي بن تومرت فتنة حقيقية على نفسه وجموع مناصريه. [2]

وما فتئت الدولة المرابطية، أن لفظت أنفاسها الأخيرة بعد المعركة الحاسمة التي قادها عبد المؤمن الموحدي، ضد السلطان تاشفين بن علي [3] .

ولكن بن تومرت لم يشهد فتوحات عبد المؤمن بن علي، الذي ثأر لزعيمهم الروحي شر ثأرة من الذين أهانوه ، فعند دخوله تلمسان سنة 539 هـ/ 1145 م قتل بعض أهل أغادير وأشياخ تاجررت ثم قاضيها أباعمرو عثمان بن صاحب الصلاة بوصية من إمامه بن تومرت [4] .

وعند تراجع تاشفين بن علي، إثر هجومات الموحدين إلى وهران ، حاصروه بحصنها وأشعلوا النيران على باب الحصن فحاول تاشفين الخروج بفرسه من الحصن، فتردى في

---

[4] ليفي بروفنسال : نفس المرجع السابق ، ص 257 .

✦ عبد المؤمن بن علي : المؤسس الفعلي لدولة الموحدين (ينظر إلى كتاب يحي إبن خالدون : بغية الرواد ، ص 170 ، 171

[1] المراكشي : نفس المصدر السابق ، ص 182 .

[2] نفسه ، ص 191 .

[3] William et Georges Morçais : Les Monuments Arabes de Tlemcen, Librairie des Ecoles Françaises, 4, Prais, 1903, p 15 – 16.

[4] أبو زكرياء يحي إبن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم و تحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات ، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائر 1400 – 1980 ، ص 170 – 171 .

بعض حافات الجبل ومات في 27 رمضان سنة 539 هـ ... ودخل الموحدون وهران فقتلوا من كان بها من المرابطين [1] .

لقد عاشت الدولة الموحدية، مترامية الأطراف ولكن ضعف روح العصبية، في صفوفها وتهافت الملوك على الأطماع، وانغماسهم في أنواع الترف، جعلها تضعف وقد أدّى هذا الضعف إلى خروج قبائل زناتة عليها، فلم يجدوا بجانبهم إلّا بني عبد الواد ، " فأقطعوهم بلاد بني وامنو "، وبني يلومي "، جزاء مؤازرتهم لهم ضد هذه القبائل المنشقة .

وهكذا انتهى المطاف بالدولة الموحدية للزوال، وكما يقول بن خلدون " إن للدولة أعمار طبيعية حالها حال الأشخاص " [2] .

ومع أن العهد الموحدي كان عنيفا في بدايته إلا أنه مافتئ أن إلتفت إلى العمل على الإزدهار والعمران ، ولكن الطابع الديني الذي غلب عليها لم يخلف لنا آثارتذكر .

د* الدولة الزيانية :

ينحدر بنو عبد الواد من أصل بربري من قبيلة زناتة، ومن غير المنصف أن ينسب أصل يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية إلى قبيلة قريش قبيلة الرسول (ص) كما يوضح ذلك (Barges)[3] .

اعتلى يغمراسن عرش تلمسان في السابع من جمادى الثانية ،من سنة 637 هـ / 1240 م وقد كان قائدا عظيما، إذ استطاع أن يحكم تلمسان حوالي نصف القرن كما استطاع أن يحمي تلمسان من الأطماع الشرسة، التي كان يبيتها لها المرينيون من بني عمومته والذين حاولوا في عدة مرات السيطرة على تلمسان [4].

---

[1] بن أبي الزرع (علي بن محمد الفاسي) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشره Tornberg ، أبسال 1843 ، ص 123 .

[2] بن خلدون عبد الرحمن : المقدمة : دار الجيل بيروت ، طبعة عبد الرحمن محمد ، ص 147 .

[3] - M . l'Abbés JL . Barges : Complément de l'histoire de Beni – Zeiyane (Rois de Tlemcen) Ouvrages du Cheikh Mohamed Abd Al – Djalil al Tenessy, Paris 1887, p 3 – 4.

[4] - محمدبن عمرو الطمار : نفس المرجع السابق ، ص 207 .

وقد ابتنى يغمراسن قصرا جديدا بالمشور، وأمر ببناء الأسوار الشاهقة بباب كشوطة حينما إشتدت شوكة بني مرين ، كما ابتنى الصومعتين بالجامعين الأعظمين من تاجرارت وأجادير [1] .

ولكن أطماع المرينين كانت شرسة، فقدموا إلى تلمسان من فاس في عهد أبي سعيد عثمان وحاولوا إنتزاعها منه ولكنهم لم يفلحوا وفي سنة 698 هـ / 1293 م سار أبو يوسف يعقوب إلى تلمسان، وأحاط بها عسكره واختط مدينة لإقامته سماها المنصورة، وقام على ذلك سنين يغاديها ويراوحها . وربض بتلمسان لايغادرها كأسد ضار إلى أن هلك أبو يوسف يعقوب[2].

واستمرت محاولات المرينيين للسيطرة على تلمسان، حتى سقطت سنة 737 هـ / 1337 م في أيدي بني مرين على يد أبي الحسن علي بن عثمان المريني، وظلّت أحد عشر عاما تحت حكم المرينين ثم تخلصت من سلطانهم سنة 740 هـ، واستعادها بنو عبد الواد بعد أن سحب بساط الحكم منها من طرف المرينين لمدة ربع قرن. [3] وقد استرجع عثمان أبي سعيد العبد الوادي، مملكة آبائه ودخلها سنة 749 هـ. ومافتئ أن قام أبو عنان بن أبي الحسن المريني، بالاستيلاء عليها سنة 753 هـ/ 1351 م، وقد كان اللقاء بين أبي عنان والسلطان الزياني أبي سعيد عثمان، في سهل " أنكاد " فانهزم بنو عبد الواد وأسر ملكهم عثمان ثم قتل . ولم يدم حكم بنو مرين بتلمسان طويلا اذ ثار أهلها، عليهم وشقوا عليهم عصا الطاعة ... ثم تولى أبو حمو على بن أبي زيان إمارة تلمسان [4] .

وازدهرت تلمسان فأصبحت قبلة للعلماء في عهد أبي حمو موسى الأول، لكونه كان قائدا محنكا صارما يقضا [5] .

---

[1] أبو زكرياء يحي إبن خلدون : نفس المصدر السابق ، ص 207 .

[2] المصدر نفسه ، ص 100 .

[3] سيد عبد العزيز سالم المرجع نفسه ، ص 874 .

[4] المرجع نفسه، ص 124 .

[5] بن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر : دار الكتاب اللبناني بيروت 166 ، الجزء 7 ، ص 7 .

وقد استعادت تلمسان مكانتها المرموقة، وأصبحت مركزا تجاريا هاما، يقصده تجار من المسلمين والمسيحين على السواء ، كما كانت مركزا للقوافل التي تمر بها، إلى تافلالت، والسودان ، كما شيدت فيها المدارس والقصور ... ولكنها سرعان ما أصبحت تعيش اضطرابات نظرا لتكالب أمرائها على السلطة [1] .

ولعل دروة تلمسان وصانع مجدها قد كان السلطان أبو حمو موسى الثاني، الذي أعاد لها مجدها ومجد سلالة يغمراسن حوالي سنة (1359 م / 760 هـ)، وقد كان هذا السلطان منتزع حكم تلمسان من بني مرين بدون رجعة [2] .

وقد أسس السلطان **أبو حمو موسى**، المدرسة، والمسجد، وضريح سيدي إبراهيم المصمودي ، أما المدرسة فسميت باليعقوبية ✦، ومع أنها اختفت فقد بقي المسجد والضريح شاهدين على عظمة الرجل وحسن تذوقه للفنون[3] .

على الرغم من تعرض تلمسان للغزو الحفصي في سنة (870 هـ / 1465 م)، الا أنها بقيت تحت حكم بني عبد الواد إلى أن ظهرالأتراك، على مسرح الأحداث وقد كان الحكم الزياني الحكم الأخير، قبل سقوط وهران في يد الإسبان، ثم تدخل الأتراك في الجزائر ، وإنتهت بذلك فترة من أروع الفترات وأفجعها ـــ أسسها يغمراسن ودامت حوالي 300 عاما وسقطت عام 961 – 1554 م[4] .

ذ* الاحتلال الإسباني ودخول العثمانيين إلى المغرب الأوسط :

استغلت إسبانيا الظروف السياسية و الإجتماعية المزرية للمغرب الأوسط، فقررت في إطار عملية La reconquesta (حركة الاسترداد) سنة 1492، غزو السواحل الجزائرية و

---

[1] سيد عبد العزيز سالم نفس المرجع السابق، ص 874 .

[2] William et Georges Marçais : Opcit, P23

✦ – اليعقوبية : بنيت ضمن المجمع المعماري الذي بناه أبو موسى الثاني سنة 765 هـ / 1363 م وقد لقبت بهذا الإسم بنسبة لأبي يعقوب والده وقد كان هذا المبني موجودا بجانب مسجد سيدي إبراهيم الحالي (أنظر محمد عمروا الطمار ، تلمسان ، ... ص 175 .

[3] BARGES: Opcit ..., p 234.

[4] Amar Dhina : Opcit, P85.

احتلالها، و هكذا احتلت القوات الإسبانية المرسى الكبير سنة 1505 على يد الكردينال خيمينيس دي سيسنيروس،ثم إحتلو موانئ بجاية والجزائر وشرشال وهنين ...[1] وقد كان الإسبان يطمحون للقضاء على الإسلام، بفضل نفوذهم، وأسلحتهم الجديدة، والى ذالك التاريخ لم يكن يعرف سكان تلمسان القراصنة المسيحين، الذين أخذوا يقلقون راحتهم ويسبونهم في البر والبحر[2].

و كانت وهران في عهد بني عبد المؤمن، مجرد ميناء للناحية الغربية للمغرب الأوسط ، و لما بسط بنو عبد الواد حكمهم على هذا القطر،صارت أهم ميناء الى جانب ميناء هنين، لكن تحول المرسى لمرفأ للقراصنة في أوائل القرن السادس عشر ، جعل أهل وهران ينفصلون على الحكم المركزي بتلمسان، وفي ذلك التاريخ ظهر طمع الإسبان لعلمهم بأن المدينة تتمتع بشبه إستقلال تام عن أمير تلمسان .

وأثناء استبداد الإسبان بالسكان وقوة شوكتهم ، ظهر الأتراك وقد كان لهؤلاء دولة في أوج عزها بما حصلت عليه من انتصارات، وبما استولت عليه من الأقاليم وقد ظهر من قواد جنودها البحرية قائدان عظيمان هما : الإخوة عروج، و خير الدين بربروس، [3] الذان ساهما في تطهير الجزائر بشتى مناطقها من الاحتلال الإسباني، و بدعوة من أهالي تلمسان دخل عروج، اليها مسالما، وكان يحكم تلمسان آنذاك السلطان أبو حمو موسى الثالث ، و فعلا ولج عروج اليها عام 923 – 1517 م، ونصّب على عرش تلمسان ، السلطان المخلوع أبا زيّان الثالث، والذي رمى به أبو حمو موسى الثالث في السجن ،وقفل عائدا إلى الجزائر ، لكن الإسبان وأنصار السلطان المخلوع أضرمو نار الفتنة فأمر عروج

---

[1] عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو : دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش – الجزائر 1394– 1972 ، ص 15

[2] المرجع نفسه ، ص 23 .

[3] محمد بن رمضان شاوش : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، 03 – 1985 ، ص 118 .

بقتل(أبي زيان الثالث) وأنصاره، وبعد صراع بين أبي حمو موسى الثالث وعروج قتل هذا الأخير مع جماعة من جنوده في عام 924 – 1518 م[1].

و لم تنفك الصراعات المتكررة إلى أن انتهى الأمر بدخول الأتراك، وانتزاعهم الملك من بني زيان عام 962 هـ / 1555 م، واستمرت في أيديهم إلى أواسط المائة الثالثة عشر أي مدة ثلاثة قرون ، و لم يخلف لنا الأتراك معالم كثيرة أثناء تواجدهم بتلمسان ، اذ استثنينا مسجد " سيدي اليدون "،وضريحين بقرية عين الحوت لسيدي عبد الله بن منصور وسيدي محمد بن علي، و ضريح لالة الرؤيا، وكذا عمليات ترميم ضريح سيدي أبي مدين، وسقف مدرسة العباد، ومسجد سيدي إبراهيم المصمودي، ومسجد سيدي لحسن بن مخلوف الراشدي. [2] .

ولايمكن أن نختم هذا الفصل، دون الحديث عن خروج الإسبان نهائيامن وهران، وجلائهم عنها وقد تم دخول الإسبان ألى السواحل الجزائرية سنة 1708 -1792، بعد معانات طويلة لسكانها . فبعد محاولات عديدة لاسترجاع وهران كانت آخرها من قبل الباي مصطفى بوشلاغم، الذي فارق الحياة ، دون تحقيق الفتح ، على الرغم من أنه كان يضيق عليها الخناق بصفة عنيفة وقد خلفه الباي المجاهد محمد بن عثمان الكردي، المعروف بمحمد الأكحل لشدة سمرته ، واستمر محمد بن عثمان محاصرا لوهران ومواليا لحملاته الصادقة ضدها ، على رأس المجاهدين بصفة مستمرة إلى يوم 14 سبتمبر 1784م حيث تمكن من قطع مجرى الماء الذي يسقي المدينة . ثم هاجم يوم 26 سبتمبر 1784 حصون المدينة هجوما عنيفا كانت شدته مضربا للأمثال واحتل المجاهدون البرج الأحمر رغم استماتة الإسبان ، واستمرت المعارك يتلو بعضها بعضا ،و أما العرب الذين كانوا خاضعين إسبانيا فإنهم قد امتنعوا منذ خيبة أوريلي على الجزائر، من دفع أي شيئ من الجزية لإسبانيا[3].

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، الجزء 2 ، 1375 – 1955 ، الجزائر ، ص 79 .

[2] محمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية ، مطبعة الجزائر ، 1981 ، ص 253 .

[3] أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 – 1792 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ص 524 .

و لعل القدر قد تدخل مرة أخرى ليلة ما بين 8 و 9 أكتوبر سنة 1790، إذ ضرب مدينة وهران زلزال عنيف جدّا حطّم منازلها، و مات تحت الأنقاض ثلاثة آلاف نفر من سكانها و جندها ومن بينهم الحاكم العام الإسباني بالنيابة (دون نيكولا غارسيا) ، و لم يتوقف المجاهدون عن هجوم العدو بقيادة محمد بن عثمان، حتى وصل عدد القتلى الإسبان الى 1526 رجلا ، و لم تتوقف هجومات الباي حتى ضاع أمر إسبانيا وخابت آمالها وفقدت سنة 1791م بطلب تنفيذ الصلح ، لكن الباي كان يعاني من مرض الموت ورغم ذلك أصر على أن يسلموا وهران دون قيد أو شرط، وفي يوم 10 (العاشر ذي الحجة) 1305 م(13 جويلية 1791 م)، توفي الداي محمد عثمان باشا وخلفه على كرسي الخلافة حسن باشا، وكانت إسبانيا لاتزال تلح في عقد الصلح فقبل حسن باشا، على عقد الصلح وفقا لشروطه الخاصة .

وابتدأ انسحاب الإسبان من وهران يوم 17 سبتمبر، من تلك السنة وتم الانسحاب نهائيا، بعد ترك الأسلحة والعتاد المتفق عليه وتسليم المدينة للباي محمد بن عثمان، الذي دخلها على رأس المجاهدين الجزائريين دخول الفاتح المنتصر، يوم 24 فيفيري 1792م وكان أوّل ما قام به بعد تحرير المدينة، بناؤ المسجد الكبير " جامع الباشا " شكرا لله على تتويج الجهاد الطويل بالفتح المبين ، وبهذا الصلح وبهذا الاستسلام ختمت آخر صفحة من صفحات العدوان الصليبي الإسباني على الأرض الجزائرية[1].

وتوالت الأحزان بتوالي المستعمرين، فبعد خروج الإسبان والأتراك من بعدهم ، قدم الاستعمار الفرنسي، وأذاق الجزائر ويلات القمع والهوان، إلى أن رأت فجر الحرية بعد أن قاست حينا من الدهر من القهر والظلم.

---

[1] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص524 – 525 – 526 – 527 .

الباب الأول

◈ الفصل الأول

– الضريح ونشأته

◈ الفصل الثاني

– الأضرحة في المشرق الإسلامي

الضـــريح و نـــشـــأتـــه

التعريف بمصطلح الضريح :

أطلق على المكان الذي يوارى فيه جسد الإنسان مسميات كثيرة منها:

❖ **المدفن**: هو مكان دفن الإنسان والدفن هو" الستر و المواراة دفنه يدفنه دفنا وأدفنه فاندفن وتدفن فهو مدفون ودفين ودفن الميت واراه هذا الأصل ثم قال دفن سره أي كتمه والدفينة الشيء تدفنه"[1].

❖ **القبر** : هو مدفن الإنسان والجمع قبور يقبره دفنه وأقبره وجعل له قبرا[2] .

❖ **التربة**: تعني المقبرة وترب الميت أي صار ترابا[3].

هذا وقد تطور مدلول لفظ التربة واتسع معناه في العصر المملوكي وبخاصة العصر الجركسي، فصار يقصد به المنشأة الدينية بصفة عامة والخانقاه، بصفة خاصة التي تحتوي فيما تحتوي من مكونات معمارية متعددة على المقبرة أو المدفن ذي القبة[4].

❖ **الجدث**: هو القبر والجمع أجداث، وفي الحديث نبؤوهم أجداثهم أي نزلهم قبورهم، وقد قالوا: جدف الفاء بدل الثاء لأنهم قد أجمعوا في أجداث و لم يقولوا أجداف[5] .

❖ **الجنن**: جن الشيء يجنه ستره وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك، والجنن بالفتح القبر لستره الميت والجنن أيضا الكفن، لذلك وأجنه كفنه والجنين المقبور ويقال للقبر الجنن ويجمع على أجنان[6].

---

[1]- ابن المنظور: نفس المصدر، ج 17،ص 11 - 12.

[2]- أبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي ت : 458هـ/ 1065م المخصص- الطبعة الأولى. بولاق 1318هـ/ 1900م ، ج6، ص 131.

[3]- أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ت : 770هـ/ 1368م المصباح المنير، ج1، ص 35.

[4]- محمد حمزة إسماعيل الحداد : قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1986 ، ص 159- 168.

[5]- ابن سيده: المخصص،ج6، ص 132.

[6]- نفسه، ج6، ص 132.

❖ **الرمس**: الصوت الخفي ورمس الشيء يرمسه رمسا طمس أثره، ورمسه يرمسه ويرمسه رمسا فهو مرموس ورميس دفنه وسوى عليه بالأرض، وكل ما هيل عليه التراب فقد رمس وكل شيء نثر عليه التراب فهو مرموس، وإذا كان القبر مستويا على وجه الأرض فهو رمس وأصل الرمس الستر والتغطية ويقال لما يحثى من التراب على القبر رمس والقبر نفسه رمس والجمع أرماس ورموس [1].

❖ **الرجم**: ويقال الرجم بضم الجيم والرجمه بسكون الجيم، جميعا الحجارة التي تنصب على القبر وقيل هي العلامة والرجمة القبر، والجمع رجام وهو الرجم بالتحريك والجمع أرجام سمي رجما لما يجمع عليه من الأحجار والرجم بالتحريك هو القبر نفسه والرجمه بالضم واحد الرجم والرجام وهي حجارة ضخام دون الرخام وربما جمعت على القبر ليسنم، وقال عبد الله المزني : لا ترجموا قبري أي لا تجعلوا عليه الرجم وأراد بذلك تسوية القبر بالأرض وأن لا يكون مسنما مرتفعا[2]

❖ **الريّم** : القبر وقيل وسطه[3]

❖ **البيت** : هو القبر أراه على التشبيه[4]

❖ **البلد**: المقبرة وقيل هو نفس القبر[5]

❖ **الجول والجال**: ناحية القبر[6]

❖ **الكدية** : ومنه أن فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، خرجت لعزاء بعض جيرانها فلما انصرفت قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لعلك بلغت معهم الكدى** " أراد المقابر وذلك لأن مقابرهم كانت في مواضع صلبة وهي جمع كدية[7]

---

[1]- ابن منظور ، المصدر السابق، ج 16، ص 244 -245.

[2]-ابن سيده ،نفس المصدر السابق،ج6، ص 132.

[3]- نفسه،ج 15، ص 118-119.

[4]- نفسه، ص 118-119.

[5]- نفسه ، ص 118-119.

[6]-نفسه، ص 118-119.

[7]- ابن منظور: المصدر نفسه ج2،ص 80-81.

❖ **اللحد**: والجمع ألحاد ولحود، وهو شق يعمل في جانب القبر فيميل عن وسط القبر إلى جانبه بحيث يسع الميت، فيوضع فيه ويطبق عليه اللبن، وسمي اللحد لحدا لأنه في ناحية وأصل الإلحاد الميل و العدول عن الشيء ومن ثم قيل للمائل عن الدين الملحد[1].

❖ **الضريح**: وهو شق في وسط القبر، وقيل القبر كله وقيل هو قبر بلا لحد وسمي ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا، أو لأنه انضرح عن جانبي القبر فصار في وسطه[2].

وتدل معظم الأحاديث النبوية على استحباب اللحد وأنه أولى من الضرح، وإلى ذلك ذهب الأكثر كما قال النووي، وحكى في شرح مسلم إجماع العلماء على جواز اللحد وشق ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم، قرر من كان يضرح و لم يمنعه[3].

ومن المعروف أنه لحد الرسول صلى الله عليه و سلم، كما أمر سعد بن أبي وقاص أن يلحد له لحدا وينصب عليه اللبن كما صنع بالرسول صلى الله عليه وسلم[4]

كما أطلقت الوثائق على المدفن الذي يعلوه قبة اسم القبة، أو القبة المدفن[5] و قد شاع مصطلح المقبرة والتربة رمزا للضريح، أما القبر فهو آخر مثوى للإنسان البسيط و العادي[6].

---

[1]- الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تاريخ: 256هـ/869م، صحيح البخاري ، المجلد الأول ، ج2، (بيروت بدون تاريخ) ص 115 وأيضا ابن قدامة ،(موفق الدين أبي محمد) ت: 620هـ/1223م المغني والشرح الكبير ، ج2، بيروت 1972م، ص 379.

[2]- صحيح البخاري : المجلد الأول، ج2،ص 115.

[3]- الشوكاني (محمد بن علي) تأريخ : 125هـ/1834م نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخيار، ج3، بولاق، 1297هـ/1879م، ص 319-320.

[4]- العسقلاني : كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام في علم الحديث، القاهرة، 1330هـ/1911م، ص 95.

[5]- عبد اللطيف ابراهيم: نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش (مجلة كلية الآداب (، المجلد27، ج1-2، 1965م، مطبعة جامعة القاهرة ، 1969م، ص 162-163.

[6]-محمد السعيدي : ظاهرة زيارة الأولياء و الأضرحة في منطقة تلمسان و أبعادها الإجتماعية و النفسية، مطبوعات الكراسك Edition Crasq وهران، جوان 1995، ص 40.

و الضريح معلم توفرت فيه سماة العضمة و الهيبة، و بقي تتقاذفه موجات القبول و الرفض، و ذلك راجع للنزعات الدينية، و الإتجاهات المذهبية، و لا يكاد يخلو بناء أي ضريح من القبة، و القبة اختلفت حولها الآراء، فمنهم من قال أنها ترمز إلى صورة متطورة للخيمة التي يستخدمها البدو العرب،وفي بلاد المشرق إلى الباري عز و جل، بقولهم "أبو الخيمة الزرقاء" أي مالك السموات و الأرض[1].

فيما يرجع آخرون وجودها إلى كون القبة التي تبنى فوق الضريح، سواء كانت فارسية أو إسلامية، ترمز إلى السماء. و قد أصبحت أضرحة الورعين و المتعبدين، معابد خاصة يقصدها الأوفياء، النساء خاصة في إفريقيا الشمالية لم تكن لهن عقيدة سوى إجلال هؤلاء الصالحين، و لا معبدا آخر سوى زيارة هذه الأضرحة، و إنجاز طقوس و تضحيات

و قرابين كإشعال الشموع، الرش بماء الورد و كل هذا يكون الزيارة[2]. تتمركز الأضرحة في الريف و يتزايد عددها كلما تقدمنا نحو الغرب، كما نجدها في الجوار المباشر لأبواب المدينة، و في الجبانات خاصة، فالمقابر في الإسلام عادة ما كانت تقام على بوابات المدن، و يدفن الرجل الصالح من أجل ضمان بركة هذا الباب، فالولي إذا هو نوع من العبقرية الحامية للمكان المعين، كما نجد في بعض الأحيان مقابر أمام أو خلف أو بجوار الضريح من أجل التبرك، المرتفعات أيضا تعد من أماكن الملائمة لدفن الصالحين، فمن الجبل أو التل يستطيع الولي أن يحمي البلد الذي يقع تحت قدميه.

- كما نجد في الكثير من الأحيان أضرحة الصالحين في الجوار المباشر للمساجد أين يدفن الزهاد الناسكون و العلماء بالقرب من المصليات التي كانوا يترددون عليها خلال حياتهم، و هذا حال سيدي ابن مرزوق الذي دفن بأمر من يغمراسن بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الكبير. و من هنا يتبن لنا أن الأضرحة لعبت و لا تزال دورا هاما، في

---

[1] سعيدي محمد، نفس المرجع السابق، ص 40.

[2] William et Georges Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen, librairie des écoles Françaises, 4, Paris 1903, P 330-331.

التركيبة النفسية و الإجتماعية لمجتمعنا، فالضريح ليس فقط بمعلمه، بل بما يمثله من رمز مقدس[1].

آراء الفقهاء فيما يخص البناء على المدافن أو القبور:

اختلف الفقهاء فيما بينهم بشأن حكم البناء على المدافن أو القبور، والواقع أنه لم يرد في القرآن الكريم ما يدل على تحريم البناء على القبور أو إباحته، وإن جاء في آية من سورة الكهف ما يشير إلى إقامة مسجد على أصحاب الكهف فيقول تعالى:"وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ "[2].

وقد استدل بهذه الآية بعض الفقهاء على جواز بل واستحباب بناء المساجد والقباب على القبور.

وقد (رد الشيخ الألباني) على هذا الرأي من عدة وجوده:

1- أن الصحيح المتقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم:" وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً "[3] فإذا تبين هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدل على أن جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا.

2- ولنقل أن الصواب كان في قول من قال :" **شريعة من قبلنا شريعة لنا** " فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا لأن

---

[1] سعيدي محمد، نفس المرجع السابق، ص: 05.

[2] - سورة الكهف، آية (21)/ وعن تفسير هذه الآية أنظر، تفسير الإمامين الجليلين جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلى، حققه ونسخه الشيخ محمد الصادق القمحاوي، القاهرة 1982، ص 245.

[3] سنن النسائي رقم الحديث 429،كتاب الغسل و التيمم، باب التيمم بلصعيد

الأحاديث تواترت في النهي عن البناء المذكور، فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا .

3- لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا، غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا : " لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ " فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل بل الظاهر خلاف ذلك، وقد ذكر أصحاب التفاسير أن اتخاذ المساجد على قبرهم كان من فعل الغلبة على الأمور، من الحكام وأن الطائفة الأولى كانوا مؤمنين عالمين بعدم مشروعية اتخاذ المساجد على القبور، فأشاروا بالبناء على باب الكهف وسده ودل الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله "**ابنوا عليهم مسجدا**" فلم يقبل أهل الغلبة وهم الحكام منهم ذلك فاتخذوا عليهم مسجدا كما دلت الآية على ذلك...وعلى ضوء ذلك لا يمكن الاستدلال بهذه الآية من أي وجه من الوجوه[1] .

والواقع أنه يستدل من الأحاديث النبوية الشريفة على أن النبي صلى الله عليه وسلم، نهى عن البناء على القبر، وتجصيصه، و الكتابة عليه، واتخاذ المساجد والسرج عليه، ومن هذه الأحاديث ما رواه عن جابر قال: " نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ "[2].

وزاد الترميذي :" وأن يكتب عليه[3]وقال هذا حديث صحيح وأخرج النهي عن الكتابة النسائي أيضا ".

وروى مسلم أيضا عن أبي الهياج الأسدي قال :" قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ "[4] وهذا الحديث فيه تصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم، بعث الإمام

---

[1]- ناصر الدين الألباني : تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، القاهرة 1377هـ/1957م، ص 47-50.

[2]- مسلم (الامام أبي الحسن مسلم النيسابوري) (261هـ-874م) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم - ج3- بيروت بدون تاريخ ، ص 62.

[3]- ابن قدامة : المغني والشرح الكبير، ج2، ص 387.

[4] صحيح مسلم رقم الحديث 1609،كتاب الجنائز، باب الامر بتسوية القبر

علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتسوية القبور وقال الترميذي "هذا حديث حسن والعمل على هذا عند بعض أهل العلم فكرهوا أن يرفع القبر فوق الأرض إلا بالقدر المأذون فيه"[1] وعن عائشة رضي الله عنها: "أنه لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ولو لا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا"[2] .

يستدل من الأحاديث النبوية السابقة، أن البناء على القبور وتزيينها واتخاذ المساجد والسرج عليها منهى عنه مطلقا، بل أنه يعد كبيرة من الكبائر، لأن اللعن الوارد فيها ووصف المخالفين بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى، لا يمكن أن يكون في حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى وقد أقر الفقهاء وأصحاب المذاهب الأربعة، ذلك واتفقوا على تحريمه ومنهم من صرح بأن ذلك يعد كبيرة من الكبائر كما سبق القول[3].

فيما يقول رأي آخر بأن الرسول (ص)، دفن في بيته حتى لا يتخد قبره مسجدا كما ذكرت ذلك أم المؤمنين رضي الله عنها[4].

و تفصيل ذلك أنه لما آنتقل الرسول (ص) الى جوار ربه، اختلف أصحابه في موضع دفنه فقال قائل في مسجده، و قال آخر ادفنوه مع أصحابه بالبقيع، و قال ناس يدفن عند المنبر، فلما بلغ ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله (ص) يقول " ما مات نبي الا دفن حيث يقبض " ومن ثم رفع فراش النبي الذي توفي عليه، ثم حفر تحته[5]

وقسم بيت السيدة عائشة رضي الله عنها الى قسمين

-قسم كان فيه القبر

---

[1]- الصنعاني: (محمد بن إسماعيل): سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام صححه وعلق عليه: عبد العزيز الخولي- القاهرة بدون تاريخ ، ج2، ص 574.

[2]- صحيح البخاري: المجلد الأول، ج1، ص 118- 119-ج2 ص 11-114 المجلد الثاني ج6 ،ص 13.

[3]- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، كتاب مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد الأول – القاهرة 1326هـ/ 1908 /، ص 108-109.

[4]- صحيح البخاري المجلد الأول ج 2 ص 128

[5]- ابن السعد ، المصدر السابق ص 108- 109

-و قسم كانت فيه السيدة عائشة وبينهما حائط.

مما سبق يمكن القول ان قبر النبي (ص)، قد ألحق بالمسجد في خلافة الوليد ابن عبد الملك، حيث لم يكن في المدينة أحد من الصحابة و قيل أنه لم يبق بالمدينة الا جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما،فانه آخر من مات بها في سنة 78 هجرية/ 697 م أي قبل ادخال الحجرة بعشر سنين[1].

1- ابن تيمية، نفس المصدر السابق ص 13

نشأة الضريح في العمارة الإسلامية :

يفسر خلو آثار الأمويين من القباب التي ترمز للمدافن، بأن ذلك لا يرجع إلى كراهية الإسلام لبنائها، و انما إلى رغبة العباسيين في تخريب و هدم ذلك النوع من العمائر، بعد أن انتزعوا الخلافة من بني أمية و قضوا عليها [1].

فعملوا على محو ذكراهم بإزالة أضرحتهم و نبش قبورهم ، ولعل الأمر نفسه، قد وقع مع العباسيين حيث عملوا على إخفاء آثار أضرحتهم، حتى لا تعرف حتى قيل أنه لما مات أبو جعفر المنصور حفر له مائة قبر ودفن فيها كلها كي لا يعرف موضع قبره [2]

و إذا كانت القبة الصليبية 248هـ/862م تعد أقدم مثل باق للمدفن ذي القبة، في العصر الإسلامي كما ذكر معظم العلماء و الباحثين العرب و الأجانب، [3] لا أنه يستدل مما جاء في المصادر التاريخية، أنه كانت كذلك هناك مدافن تعلوها قباب قبل منتصف القرن 03 هـ/09 هـ ،ومن أمثلة ذلك أنه لما توفيت أم الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك بنيت عليها قبة بأمر الرشيد عرفت بالقبة البرمكية. [4] و المهم أن المدفن ذا القبة قد عرف وفقا لما جاء في المصادر التاريخية، في عصر كل من الرشيد و المأمون، أي في أواخر القرن 02 هـ / 08 م و اوائل القرن 03 هـ / 09 م [5].

---

[1] – محمد حمزة إسماعيل الحداد : القباب في العمارة المصرية الإسلامية القبة المدفن ، (نشأتها و تطورها) حتى نهاية العصر المملوكي، الطبعة الأولى مكتبة الثقافة الدينية 1993 م/1413هـ ، ص 36 .

[2] – فريد الشافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية المجلد الأول، عصر الولاة 1980م ، ص 256 .

[3] – كمال الدين سامح : تطور القبة في العمارة الإسلامية مجلد كلية الآداب مج: 12 ،ج1 مايو 1950م ،ص07 .

[4] – محمد حمزة إسماعيل الحداد : نفس المرجع السابق ،ص39 .

[5] – المرجع نفسه ،ص39 .

أولا : الأضرحة الإسلامية

لقد واكب الضريح الإسلامي في المشرق، عصورا مزدهرة من المجد والتألق، بدءا من الضريح الفاطمي ونهاية بالضريح الصفوي، تفاعلت عوامل عديدة من أجل جعله ضخما رائعا، وبسيطا رمزيا في مختلف العصور الإسلامية، وسوف نتناول في دراستنا للضريح الإسلامي أمثلة عن الأضرحة التي ساهمت في إثراء العمارة الإسلامية، وازدهارها باستثناء الضريح في العصر الأموي والعباسي،نظرا لانعدامهما في هذين العصرين لقربهما من العصر الإسلامي الأول وتحريم الإسلام للقبور الضخمة.

1- الأضرحة ما بين القرن 3- 8 هـ:

أ- الضريح الفاطمي:

الفاطميون أسرة شيعية، في المغرب الأدنى والأوسط، حيث أقبل دعاة الإسماعيلية على نشر مذهبهم حتى أفلح أخيرا عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين، في القضاء على حكم الأغالبة في إفريقية 296هـ /909م واستطاع بسط نفوذه على بلاد المغرب[1].

من أزهى عصور الفاطميين بمصر عهد المعز لدين الله، الذي اختط القاهرة وشيد الجامع الأزهر وأهم ما بقي من العمائر الفاطمية، الجامع الأزهر وجامع الحاكم، وقد ظهرت عمارة الأضرحة في مصر بنوع جديد و كانت هذه الأخيرة بنوعين:

*** النوع الأول:**

كان الخلفاء الفاطميون يدفنون داخل القصور التي كانوا يسكنوها، من اجل إضفاء طابع القدسية على قصورهم، ولكن انتصار الأيوبيين عليهم وطمسهم لهذه المعالم، لا يمكننا من أن نجزم بحقيقة وجود هذه الأضرحة.

*** أما النوع الثاني:**

فما يعرف بالمشاهد التي كانت تقام للموتى من سلالة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد نحت فكرتهم إلى حد بعيد، إذ لا تزال تحظى هذه المشاهد بالتبجيل والاحترام ومن أمثلة هذه المشاهد مشهد السيدة رقية، المبنى عام 1132م وهو يتكون من

---

[1]- زكي محمد حسن كنوز الفاطميين، دار الرائد العربي، بيروت 1401-1981، ص 7.

ثلاث حجرات لها ردهة وصحن صغير، ويوجد المقام تحت الحجرة التي تعلوها قبة[1] ومشهد **سيدنا الحسين والسيدة زينب.**

وقد استخدمت في هذه المشاهد القبة، التي كانت تعلو محاريب الصلاة في الجوامع، واذا بها تعلو المشاهد والأضرحة، ومنذ العصر الفاطمي حتى الفتح العثماني لمصر، أصبحت القبة هي المظهر الخارجي لكل ما يشيد من مشاهد أو أضرحة.[2] و قد تعددت الآراء حول تسمية المشاهد فمنهم من ذكر ان : لفظة المشهد ترجع لنظرة الفاطميين لائمتهم و عظمائهم، فقد كانوا يرون انهم استشهدوا في سبيل نصرة مبادئهم، و من ثم استحقوا درجة الشهادة،ومن هنا جاء اطلاق لفظة المشهد فالمشهد اذن هو مكان الشهيد.[3] و منهم من اعتبر المشاهد الفاطمية شكل جديدا للمسجد، بمثابة تحية و تذكار فوق القبور الحقيقية او المزعومة لكبار العلويين[4]. كما يوجد تفسير آخر لتسمية المشاهد كون هذا الاخير، المكان الذي يشاهد فيه شخص معين سواء كان بالحقيقة او بالحلم، كأن كان يصلي فيه او توضع به جنازته[5] . و قد يقترب هذا القول اكثر الى المفهوم الحقيقي للمشهد. والواقع أن كلمة المشهد تعني في قواميس اللغة مجمع الناس و محضرهم.[6] وكل مكان يشهده الخلق و يحتشدون به فهو مشهد، و لو ربطنا بين هذا المدلول اللغوي و بين ما يفعله أتباع المذهب الشيعي، عندما يأتون من أقصى البلاد و أدناها و يحتشدون لزيارة مرقدي الامام علي كرّم الله وجهه، بالنجف و الامام الحسين بكربلاء، من أجل التبرك بهما لفهمنا لما شاع استعمال كلمة المشهد قديما و حديثا لمرقد الائمة من آل البيت.[7]

---

[1]- ارنست كونل : الفن المرجع السابق، ص 49.

[2]- ثروت عكاشة: نفس المرجع السابق، ص 138.

[3]- عبد العزيز مرزوق : الحياة الفنية في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى الفتح التركي (تاريخ الحظارة المصرية) المجلد الثاني ص 575

[4]- wiet g : the mosques of cairo France 1966 p 26 p27

5- شاكر الهادي غضب : الفن المعماري و الهندسة التشكيلية العامة في المساجد الاسلامية و المراقد المقدسة بغداد 1977 م ص61

[6]- ابن المنظور : لسان العرب ج4 ص 230

ب-الضريح الأيوبي

حمل الأيوبيون و على رأسهم صلاح الدين الأيوبي المتشبع بالتعاليم السنية، رياح التغيير و الثورة على التبجيل لعلي بن أبي طالبكرّم الله وجهه، وسلالته. الا أنهم سمحوا و على نقيض معتقداتهم ببناء مقابر لتمجيد ذكرى بعض موتاهم، و لو بتحايلهم، و محاولتهم دمج الضريح داخل المسجد رفقة عدة مبان أخرى، ومن أمثلة هذه المباني المقبرة الفخمة التي أمر ببناءها الملك محمد الكامل، للإمام الشافعي وكانت هذه المقبرة جزءا من مدرسة كبيرة، الا أن قبة الشافعي هي الوحيدة المتبقية وقد بنيت سنة 1180، كما ظهر في هذا العهد من ضمن ملحقات الضريح الخانقاه(*) الذي يحتوي على سبيل ومدرسة و كتّاب[1].

---

[7]- سعاد ماهر مشهد الامام علي في النجف القاهرة 1968 ص 117

*- الخانقاه: بيت مخصص للدراويش والصوفية يعود الفضل إلى صلاح الدين في إنشائه ويشتمل على مسجد وقبر كما يحتوي على مدرسة و(انظر كتاب ثروة عكاشة ، نفس المرجع السابق، ص 138.)

[1] ثروت عكاشة: نفسالمرجع السابق ، ص 138.

ج- الأضرحة السلجوقية (الطرز السلجوقية):

قامت في خراسان دولة على يد سلجوق بن دوقاق وحفيده، و السلاجقة قبائل من التركمان الرحل الذين نزحوا من براري القرغنيز و إيران، حيث أقاموا من ما أعطى النفوذ للعنصر التركي في الشرق الإسلامي.[1] و قد أطلقوا على أنفسهم إسم التركمان بعد دخولهم في الإسلام، و هم سنيون، أخذوا على عاتقهم حماية الدولة العباسية و هكذا استطاع **طغرلبك** أن يدخل بغداد سنة 447 هـ (1055م) و أصبح سلطانا للدولة[2].

لقد كان الضريح في صدارة العمارة السلجوقية في آسيا الصغرى، كبناء له قدسيته و هيبته،وقد إتخذ الضريح السلجوقي صورتين هامتين أو شكلين متميزين: شكل الأبراج و شكل القبة.

- **الشكل الأول:** ذلك الذي على شكل أبراج، وقد كانت في البداية أبراجا بسيطة لكن العبقرية السلجوقية جعلت منها روائع معمارية وأبراجا، ضخمة، ولعل أقدم نصب معروف هو **جنبيدي قابوس**، الذي شيد في جرجان على قاعدة نجمية الشكل، يضيق قليلا قليلا كلما ارتفع وينتهي بقمة مخروطية(أنظر اللوحة رقم1) أما جدرانه فهي عبارة عن عشرة أضلاع مثلثة كنتوء أوبروز مسنن،ويعد رائعة من الروائع المعمارية إذ يبلغ ارتفاعه 50م، ولا يحمل الضريح أية زخرفة، عدا الشريطين الكتابيين بالخط الكوفي (أنظر اللوحة رقم 02).

وقد آثر غرب إيران بالذات النموذج المضلع، (المربع أو المثمن أو ذو العشرة الأضلاع) وأجمل مثال بين الأمثلة، ضريح مؤمنة خاتون في نخجوان، وقد شيد في عام 1186. أما الشكل المستدير ذو القمة المخروطية، فمحبوب في إيران بصورة خاصة وهو أملس الجسم (كما في دمغان) ومثال ذلك ضريح **علمدار** بدغمان(**Pir-é Almadar**) (أنظر اللوحة رقم 03) وقد اختفى سقف هذا الضريح[3].

---

[1]- ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص58.

[2]- المرجع نفسه، ص58.

[3] -Henri Stierling : Architecture de L'Islam de l'Atlantique au Gange, office du livre, Fribourg (Suisse), 1973, p100.

كما ظهر الضريح السلجوقي الذي على شكل برج، على مظهر الخيمة الفخمة والبرج مستدير الشكل أو مضلع الشكل.

أما في أرمينيا، فنجد البرج السلجوقي المستدير يبنى بناءا أصما، ويكسى من الخارج بكل من الحجر ويميل سطحه الخارجي بعض الميل، كضريح كومبت القيصري (Kumbet de Kayseri).[1] كما انتشرت في العراق القبة المقرنصة المرتفعة، في عدة مناطق على شكل هرم، منها ما يبنى فوق قاعدة مربعة الشكل، ومنها ما يقام على قاعدة مثمنة الأضلاع من الخارج والداخل كضريح **زبيدة** بالقرب من بغداد [2](أنظر اللوحة رقم 04).

– **الشكل الثاني:** أما شكل القبة، فيرجعه(Diez) ديتس إلا أن فكرة الأضرحة المقببة مشتقة من نموذج مألوف من المنازل التي كانت تعلوها قباب في المدن الصحراوية، الفارسية ومن أروع أمثلة هذه الأضرحة ضريح السلطان "**سنجر**"،المتوفي سنة 1157م وهنا أصبحت الرقبة عبارة عن طبقة منصة مرتفعة، أين نجد القبة مغشاة بصفين من الحنايا لا يدرك من مظهرها الخارجي البادي كطاقية فوق طارة ما في الداخل من تقنية واسعة .وكذا الضريح الموجود بطوس والذي يحوي رفات الإمام الغزالي[*] ، الصوفي الشهير المتوفي سنة 1111م وهو يشبه بمدخله وبحناياه المستطيلة، ومنصته المرتفعة المثمنة الأضلاع، الإيوان(أنظر اللوحة رقم 05). [3]

د – الأضرحة في العهد المملوكي:

بعد أن وضع صلاح الدين عام 1171م حدا للدولة الفاطمية، التي بقيت قرنا كاملا في مصر وأسس دولة انتسبت إليه وسميت بالدولة الأيوبية، قامت بعدها الدولة المملوكية.

---

[1] - Henri Stierling : Opcit, p202.

[2]– ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص.62 .

[*] – الغزالي: هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، حجة الإسلام، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة،....أخذ التصنيف للأحياء وصار يطوف المشاهد والترب والمساجد، ...وبكلف نفسه مشاق العبادات ومن تصانيفه البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة والمستصفر والمنخول... توفي بطوس في الرابع عشر جمادى الآخرة خمسة وخمسمائة، أنظر كتاب زين الدين أبي الفضل: المغني عن حمل الأسفار في تخرج ما في الأحياء ما من الأخبار، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ص 3-4-5-6.

[3]– المرجع نفسه، ص 62.

لقد انحدر المماليك من أصر تركماني، وقد كانوا في بداية أمرهم رقيقا، ثم ارتفعوا إلى مرتبة الزعماء المأجورين وتمكنوا من انتزاع السلطة لأنفسهم[1] ويبّين زكي محمد حسن في كتابه فنون الإسلام قائلا:" لاريب في أن عصر دولتي المماليك فيما بين عام 648 و923هـ (1250-1517م)، هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، فقد كان الاقبال عظيما على تشييد العمائر[2].

ولعل أهمية المماليك تكمن في أن هؤلاء قد أدخلوا إلى مصر الأشكال التركية، فقد تأثرت مصر بالأشكال التركية، كما عرفت طراز الأضرحة ذات القباب من غرب تركستان، عن طريق المماليك فقد أصبح الضريح جزء من المسجد كما ذاع بناء المدافن الكبيرة وهي تشبه إلى حد بعيد أضرحة بلاد التركستان، ولكنها تطورت وارتقى تصميمها في مصر، ففي الحقيقة لم تبنى مقابر السلاطين المماليك المصريين لتكون في الأصل أضرحة، إلا أننا لاحظنا ظهروها في مدارس فخمة وخانقوات.

وحتى المساجد بنيت كذريعة يخفي وراءها المؤسس، رغبته العميقة في أن يدفن فيها ويخلد اسمه، والقاهرة حافلة بهذا النوع من المباني التذكارية، وهي تعد أروع مدينة أموات في العام لوجود عدد ضخم من مقابر الخلفاء،والحقيقة أنها أضرحة المماليك، ومن بين أضخم المنشآت تلك التي بناها السلطان قلاوون[*] ، خاصة الضريح الذي تظهر قاعته قريبة من المربع بها أربعة أعمدة ضخمة وأربعة دعامات، وعلى هذه الركائز الثمانية تستند الرقبة المثمنة بواسطة عقود مدببة(تميل إلى المخموس)، وقد فتحت في رقبة القبة ثمانية نوافذ في زوايا المثمن[3] (أنظر اللوحة رقم 06) (أنظر الشكل رقم 01).

---

[1]- ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص 904.

[2]- زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص 71.

[*]- السلطان قلاوون قائد من قواد المماليك البحرية ومن قواد الجيش الذين برزوا في عهد السلطان الملك الظاهر ركن الدين(بيبرس) ، ما لبث أن استقل بالحكم سنة 678- 689هـ(1279-1290م) وقد توفي سنة 689هـ- 1290م وهو يتأهب لغزو عك، ينظر إلى كتاب علي بن عبد المنعم شعيب: المختصر في تاريخ مصر(من أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني) ، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت لبنان، ص 211- 212.

[3]- Henri Stierling : Opcit, p163..

ومن أمثلة المدافن أيضا مدفن وخانقاه **قايتباي**[*]، ومدفن **بارسباري**[*] ،أما مدفن **برقوق**[*] فقد أمر بإنشائه الملك الظاهر برقوق، قبل وفاته وكاد أن يفعل لولا موته المفاجئ.

وقد تم ذلك على يد ابنه **الناصر فرج**[*] ،سنة 813هـ (1410م) يقع الضريح في المكان المسمى مقبرة الخلفاء، ويحتوي على مسجد كبير، وضريح يرقد فيه السلطان برقوق وأفراد أسرته وخانقاه[1].

والضريح مربع الشكل يبلغ طول ضلعه 73م، يقع المدخل في الزاوية الشمالية للضريح أما المدخل الثاني فمن الجهة الشمالية الشرقية، يتألف الضريح من صحن به نافورة للوضوء تتقدمه في الجهة الجنوبية قاعة للصلاة، في الجهة الموازية لقاعة الصلاة يوجد ضريحان مغطيان بقبة يبلغ قطرها حوالي 15م وترتفع عاليا بحوالي 35 م، وهي مثمنة الشكل[2] .

---

[*]- قيتباي: تولى الأشر ف " قيتباي" الحكم سنة 873- 902هـ 1468-1496م، وهو من المماليك البرجية ويعد عهده أطول هذه الدولة حكما، كان في بداية أمره مملوكا اشتراه " بارسباي" وقيتباي محب للعامرة وقد قام بترميم العديد من المساجد والمدارس والحصون وقد توفي سنة 901هـ/1496م، ' ينظر كتاب علي عبد المنعم شعيب: نفس المرجع السابق ، ص 217-218.)

[*]- بارسباي: تولى الملك سنة 835هـ/1422م، حكم نحو 16 سنة أي (835-841هـ:1422-1438م) توفي بارسباي سنة 841هـ/1438من بعد أن اختل عقله(ينظر كتاب علي عبد المنعم شعيب: نفس المرجع السابق ، ص 216-217.)

[*]- برقوق : هو الملك الظاهر سيف الدين " برقوق" خلع آخر المماليك البحرية وتولى الملك وهو ينتمي إلى المماليك البرجية . وعندما تهدد البلاد خطر إغارة التاتار بقيادة " تيمور لنك" ، إمتنع برقوق عن تسليم مصر إليهم واتحد مع أمراء شمالي الشام وسلطان العثمانيين، توفي سنة 801هـ/1399م. للسلطان "برقوق" مبان عظيمة ، منها مدرسة العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق(ينظر كتاب على عبد المنعم شعيب: نفس المرجع السابق ، ص216)

[*]- الناصر فرج : هو ابن السلطان "برقوق" وهو الذي قام بأمور الدولة بعد وفاة والده، وقد انتقم الناصر فرج لأبيه من الشراكسة لنكرانهم أفضاله عليهم وهذا هو تفسير نجاح الشراكسة في خلع السلطان فرج ومقتله. ومن مخلفاته المدفن ذو القبتين بالجبانة الشرقية خارج القاهرة المعروف أيضا بجامع " برقوق "، توفي في شوال من سنة 801هـ(ينظر إلى كتاب الدكتور عبد القادر أحمد يوسف : علاقات بين الشرق و الغرب بين القرنين الحادي عشر و الخامس عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت 1969، ص 67-69.

[1]- ارنست كونل: المرجع السابق، ص 106

[2]- Henri Stierling : Opcit, p177-182.

من أعظم المدافن المملوكية مدفن قايتباي، الذي بني سنة 489هـ(1474م) ويتألف أيضا من مدرسة وسبيل ومكتبة وقبة، ويتجلى جمال هذا المبنى في جمال النسب في عمارته[1].

رائعة أخرى من الروائع المملوكية،وتتمثل في مدرسة السلطان حسن[*] ،(أنظر اللوحة رقم 07) **بنيت بين سنتي** 1356و1363، تصميمها على هيئة صليب لا تيني، تملأ أركانها مجموعات مبان خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة، ويشتمل كل من هذه البنايات على صحن صغير وقاعة للدرس وغرف من عدة طبقات، أما الضريح فيقع في اتجاه القبلة مكونا امتدادا لإحدى أذرع الصليب، كما أنه يعتبر عنصرا بارزا من المدرسة التي تحتوي على منارتين تتمركز على يمين وشمال القبة، أما قبة الضريح فيبلغ ارتفاعها 50م[2] .

لقد اتخذت القبة في الأضرحة المملوكية شكل الحذوة، فقامت على قاعدة مضلعة أو أسطوانية مكونة في الغالب من مقرنصات مصحوبة بمثلثات كروية[3] .

كما شاع عمل القباب في القاهرة حتى في زمن العثمانيين، وارتكزت القباب التي تشبه في شكلها حذوات المماليك، فوق رقبات أسطوانية عالية وقد أعطت المقابر التي من هذا النوع لقاهرة القرن الخامس عشر مظهرا جديدا[4].وهذه المباني كثيرة الشبه مع تلك الموجودة في شاه زاده.

---

[1]- ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص106.

[*]- السلطان " حسن": هو الملك " ناصر حسن" حفيد " قلاوون" وابن محمد الناصر وهو باني المدسرة العظيمة التي لم يخلف السلاطين أعظم منها بناءا ولا أتقن صناعة وهي المشهورة الآن بجامع السلطان "حسن" (' بجوار قلعة القاهرة) وبعد حكمه انقرضت هذه الدولة واستولى المماليك الشراكسة على الحكم(ينظر كتاب علي عبد المنعم شعيب: نفس المرجع السابق، ص 213.)

[2] - Henri Stierling : Opcit, p171-172-174.

[3]- ارنست كونل نفسه، ص106.

[4]- أوقطاي آصلان آبا: نفس المرجع السابق، ص 39.

2- الأضرحة مابين القرن(8و12هـ)

أ- الأضرحة العثمانية:

بعد إغارة المغول على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى، ونجاحهم في القضاء عليها في بداية القرن الثامن الهجري، قامت الدولة العثمانية بواسطة عثمان بن أرطغول، وبسط هؤلاء نفوذهم على أقطار العالم و ما فتئوا أن أخذوا لقب الخلافة الإسلامية[1] .

ولقد كانت العمائر العثمانية امتدادا للفن السلجوقي، الذي كان سائدا الا أنه حدث ازدهار رائع في كل مجالات الفن التركي، الذي قام منذ أوائل ظهروه على قواعد راسخة الأصول[2] .

أما الأضرحة العثمانية، فكانت جزء من المساجد الكبيرة التي يشيدها السلاطين تربة لأفراد أسرهم.ومن أكثر التطورات التي ميزت النصف الثاني من القرن الرابع عشر الأضرحة ذات السقفية، والمكونة من قبة محمولة فوق أربعة عقود. ولعل أول ضريح عثماني ذو قيمة معمارية هو ضريح **بايازيد الأول**، كما أنه تم بناء ضريح السلطان محمد جلبي، وهوعبارة عن مخطط مثمن الشكل تعلوه قبة مخروطية، قطرها 15 م تستقر على رقبة عالية ويسمى هذا الضريح بالقبة الخضراء، متخذا هذه التسمية من لون البلاطات الخزفية الفيروزية التي تكسوها من الخارج. كما تظهر روعة التابوت أو الناووس المكسو بالبلاطات الخزفية حيث يرقد السلطان[3]، هناك أيضا مقبرة السلطان محمد الفاتح، ومقبرة زوجته كلبهار خاتون، الذان يتواجدان خلف محراب المسجد الذي ينتسب إلى محمد الفاتح باستانبول، كما لن تفوتنا الإشارة إلى ثلاث من الأضرحة ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر وهي ضريح **محمود باشا**، و **دوود باشا**، وهما باستنبول و **روم محمد باشا** في اسكدار وتعد روائع من الناحية المعمارية.

---

[1]- أوقطاي آصلان آبا: نفس المرجع السابق، ص 54.

[2]- ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص165.

[3]- أوقطاي آصلان آبا:نفسه، ص227.

و لعلّ الحديث عن الأضرحة العثمانية يطول، وسوف نختصره في ذكر بعض الأضرحة المعروفة للسلاطين أو أبنائهم كضريح **محمد الثالث**، والسلطان **أحمد**، والتي تضم مجموعة من المقابر وعددها 36 قبرا من بينهم السلطان **عثمان الثاني**، والسلطان **مراد الرابع** ومؤسسه السلطان أحمد الأول وزوجته **خصكي كوسيم سلطان**، وغيرها[1] .

ب- الأضرحة الصفوية :

في سنة 1502م قامت بإيران أسرة ملكية شيعية أسسها الشاه إسماعيل الصفوي، المتنمي إلى ولي في أردبيل يدعى الشيخ الصفي، وبعد حرب مع العثمانيين اظطر الصفويون إلى الارتداد داخل حدود إيران الطبيعة، حيث عملوا على ازدهار الثقافة بين الشعب و المثل الوطنية العليا[2]، هكذا إذن نمت ثقافتهم وتقاليدهم الوطنية نماء لا مثيل له، خاصة في عهد الشاه عباس الأكبر، ثم انتقلت العاصمة من تبريز إلى أصفهان في نهاية القرن العاشر هجري 16 ميلادي[3].

وقد احتلت الأضرحة مرتبة مهمة، ومكانة عالية في العمارة الصفوية، واكتفي في هذه الفترة بالشكل المعروف باسم " إمام زاده"، مع توسيع فيه في غرب إيران بإضافة ردهة إلى بنائه لتحويله إلى بناء مقبب ، بينما انتشر في الشرق طراز الجوسق المثمن الأضلاع المشتمل على حنايا إيوانات مسطحة.

ومن أروع الأضرحة الصفوية ضريح الشاه زاده حسن، (بخسفان) شيد تحت حكم الشاه **تهمسب(Tahmasap)**، ويعد من الأمثلة الرائعة للفن الشيعي الإيراني في الحقبة الصفوية بفضل رواقه المغطى والمحمول بواسطة أعمدة من الخشب، زخرفته رائعة يتمازج فيها الخزف والزجاجيات متعدد الألوان(أنظر اللوحة رقم 08)[4].

ان المشاهد والأضرحة الصفوية، لم تكن بحاجة إلى التستر وراء منشآت أخرى للخدمات الإنسانية والمرافق العامة، كما رأينا في مصر وفي عصر الدولة الأيوبية بل كانت

---

[1]- أوقطاي آصلان آبا: نفس المرجع السابق، ص218.

[2]- ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص138.

[3] - Henri Stierling : Opcit, p112-113.

[4] Ibid, p113-116.

تبنى في وضوح وصراحة، كما نجد نموذجا مثيرا من نماذج الاهتمام من نماذج المقابر لأنه ينطوي على مزيج من مبدأين متعارضين: المبدأ السنّي الأيوبي، الذي يجعل المقابر ملحقة بمبان أخرى لها طابع إنساني في خدمة الجمهور، والمبدأ الشّيعي الجريئى الذي اتخذ من الأضرحة بيوتا واجبة التقديس[1].

ج- الطراز الفارسي المغولي:

اذا كان سلطان السلجوقيين قد حجب الخلافة العباسية، وأضعفها وان أبقى على الأقل على سلطتها الروحية، فإن الغزو المغولي الكبير حوالي منتصف القرن الثالث عشر قضى أيضا على هذه البقية الباقية من عز قديم قضاء مبرما، كما فعل بكثير غيرها...وأسست بزعامة الجبار جنكيز خان، في حملة غزو واحدة لم يسمع بمثل جرأتها[2].

وقد عرفت العمارة الجنائزية بفضل الحملة المغولية، مظهرا رائعا وأصبحت سمرقند عاصمة تيمور لنك، من أفخم وأعظم العواصم[3].

أما فيما يخص الأضرحة في هذا العصر، فقد استبقي نموذج البرج في المنشآت السلجوقية في بادئ الأمر ولكن ضريح **أولجاتيو خوده بنده**، فتح عهدا جديدا للعمارة التذكارية وضريح **أولجاتيو خوده بنده** بالسلطانية، كان مشيدا للامامين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، والحسين، حتى يصبح محل حج الشيعة إلا أنه لم يتحقق له ذلك ودفن وهو نفسه فيه[4].

وما يلفت النظر في هذا الضريح، توكيد عمودية قبته التي يبلغ قطرها 24,5م وارتفاعها 50م المدببة المكتفة بثماني دعائم متوجة على هيئة المئذنة، ومخطط هذه القاعة مثمن الشكل[5](أنظر اللوحة رقم 09).

---

[1]- ثروت عكاشة: نفس المرجع السابق،ص 139.

[2]-ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص86.

[3]- Henri Stierling : Opcit, p102-104.

[4] Ibid, p102-104.

[5]- ارنست كونل المرجع نفسه، ص88.

وقد أصبحت سمرقند بفضل مدافن شاه زاده، مدينة فريدة من مدائن الأموات في العالم، من أشهر الأضرحة أيضا الضريح المعروف بـــ **غورامير**، (أو ضريح الأمير) المثمن الشكل، يبلغ قطر أضلاعه العشرين مترا تقريبا[1] وبه رقبة أسطوانية وقبة محززة تحزيزا بديعا مشدودة نوعا ما على هيئة الخيمة، مع واجهة ايوان ويتم الوصول إلى المثمن عن طريق حنايا مقبوة، وتقوم قبته الفارسية الطابع فوق منطقة الانتقال ذات الستة عشر ضلعا(أنظر اللوحة رقم 10) (الشكل رقم 02).

د- الطراز المغولي في الهند:

على غرار العمارة الصفوية احتلت الأضرحة مكانة الصدارة في العمارة بالهند، و تميزت هذه الأضرحة بفخامة الأشكال اصطبغت بصبغة الأهمية من الناحية المعمارية، فالقباب مثلا ظهرت تشبه زهرة اللوتس أو البصلة، و على غرار كل المدافن عرفت مدافن الحكام المركز الأول،وارتبطت بالأضرحة هندسة الحدائق الهندية على شكل جواسق مربعة، بها بوائك من العقود المدببة، كانت تقام وسط الماء أو بين روضة غناء[2].

ومن أهم هذه البنايات التي وجدت في القرن السادس عشر الميلادي ضريح شيرشاه، في (ساهسارام) و يبدو كتلة منسقة بارزة من الماء تحف به شرافات بديعة رائعة[3].

ولعل أروع الأبنية في هذا النوع "تاج محل"، قرب أجرا و التي شيدها "شاه جهان" (1630- 1648م) تخليدا لذكرى زوجته الجميلة " تاج محل"، التي توفيت شابة.و هو محاط بحدائق رائعة توصل إليها مرآة مائية، تحف بالسرو (*) نجد الضريح من الرخام الأبيض يبسط واجهته المثقوبة (المخرمة) بواسطة رواق من المقرنصات[4](أنظر اللوحة رقم11).

---

1 - Henri Stierling : Ibid, p104

2-ارنست كونل: نفسالمرجع السابق، ص153.

3- المرجع نفسه، ص153.

* - السرو: شجرة من الفصيلة الصنوبرية.

4 - Georges Marçais : l'Art Musulman, presses univrtsitaire de France 108, Boulevard Saint- Germain Paris 1962, P152.

و يبدو الطابع الإيراني واضحا في واجهته وحدها، بينما يغلب الطابع الهندي على ما عداها في الأركان المائلة و محيط القبة، و تشكيل أبراج الزوايا الأربعة، و كذلك في الأبنية الداخلية و الضريح في مجموعه يوحي بعبقرية مبتكرة[1].

بين رافض للأضرحة الضخمة و مشيد لها، وجدت هذه الأخيرة في المشرق الإسلامي بكثرة واحتلت مكانة الصدارة، عند بعض الشعوب الإسلامية كالسلاجقة، الذين أبدعوا فيها و جعلوا منها روائعا معمارية، تستوقف الأفئدة قبل العيون بجمالها وزخارفها وتناسق بناءها، ولعل السبب الجوهري في هذه الأضرحة المتبانية، راجع إلى النزعة الدينية الشيعية التي أصبغت على الأضرحة ظاهرة القدسية، و أفرطت في إظهارها بمظهر يبث الهيبة والاحترام و من هذه الأمثلة الأضرحة أو المشاهد، التي شيدها الفاطميون للأموات من سلالة علي كرّم الله وجهه، في حين رفض الأيوبيون بقيادة صلاح الدين الأيوبي هذه المشاهد وحاولوا إقتلاع الولاء لها من قلوب الناس.

لقد تشابهت الأضرحة في المشرق الإسلامي، في أدوات بناءها مع أن الملاحظ أن السلاجقة و المماليك و الصفويون قد أبدعوا في تشييدها و تزيينها.

---

[1]- ارنست كونل: نفس المرجع السابق، ص154.

الباب الثاني:

أضرحة الغرب الجزائري
من خلال بعض النماذج

◈ الفصل الأول

- الأضرحة السلطانية

◈ الفصل الثاني

- الأضرحة الشعبية

الأضرحة السلطانية

ضريح سيدي أبي مدين

أولا: حياته

يعتبر أبو مدين شعيب من أعيان مشائخ المغرب، و شعيب ابن الحسين الأنصاري الأندلسي المعروف باسم أبي مدين كما كان يسميه سكان الجزائر، كان من أصل عربي كما يبينه اسمه الأنصاري[1]. ولد بإشبيلية بالأندلس حوالي سنة 520هـ-1126م في قرية تدعى قطيانة، و كان ذلك في أواخر عهد المرابطين و بدء عهد الموحدين.[2]

و قطيانة قرية تابعة لإشبيلية، و كان والده الذي توفي في عهد مبكر من حياة أبي مدين صاحب غنم، و لم تكن الغنم من الكثرة بحيث تسمح باستئجار راع لها، و كان شعيب أصغر إخوته فكلفوه بأن يقوم على رعيها و رعايتها.

وBARGES يبين أن سيدي أبي مدين قد أنهى دراسته في مدارس قريته، ثم في إشبيلية و لم يمر وقت طويل حتى غادر الأندلس، التي كانت تعيش جوا من التوتر نظرا لتعرضها للحملات المسيحية المتعددة فعبر البحر نحو المغرب[3].

ولقد كان المغرب في ذلك الوقت، يزخر بمجموعة مرموقة من حكماء وفقهاء المذهب المالكي و تم استقرار أبي مدين بفاس، التي كانت مركز الخلافة و مصدر الإشعاع الفكري، " فأخذ العلم بفاس من أبي الحسن على ابن حرزهم[4]، كما أنه كان كثير الاجتهاد في البحث عن الصفوة من العلماء والفقهاء، اذ لم يقتصر نهله من علم ابن حرزهم بل وكان من بين أساتذته الفقيه العلامة أبي الحسن بن غالب[5].

---

1 - BARGES : vie de célèbre Marabout Sidi- Abou-Mèdienne, autrement vie Bou-Mèdienne, Paris Larousse Librairie, p1.

2 - BARGES : opcit p.1.

3 Ibid, p.1

4- أبو زكرياء يحي بن خلدون : نفس المصدر السابق ،ص 125.

5- عبد الحميد حميدو التلمساني: السعادة الأبدية لأبي مدين شعيب فخر الديار التلمسانية، طبع بالمطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة 1354م -1935م عدد 64، ص 39-40.

وقد قرأ على يد شيخه ابن حرزهم معجم التقاليد للترميذي، أما تحت متابعة الشيخ الحسن ابن غالب فقرأ المذهب المالكي. وقد كان الحسن ابن غالب من كبار رواة الحديث بحاضرة فاس في ذلك العهد.

وذكر عن أبي مدين شعيب أنه قال:" كنت في أول أمري و قراءتي على لشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو (معنى) حديث قنعت به وانصرفت لموضع خالي خارج فاس اتخذه مأوى للعمل فيه بما فتح الله به علي.[1] وكان أبو مدين رحمه الله من صغره يحب الذاكرين والمنسوبين إلى الله تعالى المنقطعين إليه، فما سمع بشيخ أو ولي يدعي التصوف إلا وذهب لزيارته والجلوس معه والاقتباس من معارفه وأسراره، حتى لقي أجل شيوخه (أبي يعزى)[*] الذي فتح له آفاق حياة الزهد والتصوف، ولم يكن يتعدى وقتها سن المراهقة[2]. ولقد كان لدروس هذا الشيخ بالغ الأثر في حياة أبي مدين، " فقد كان شيخ المشائخ أبا يعزى (رضي الله عنه) يسعى إلى أن وصل وحقق وأدرك فشرف بإذنه[3].

ويمكن أن نذكر هنا قصة الشيخ أبي مدين مع الشيخ أبي يعزى، حسب ما ورد في كتاب " البستان" :وبقيت كذلك مدة وأخبار سيدي أبي يعزي ترد علي وكرماته يتداولها الناس وتنقل إلي فملأ قلبي حبه، فقصدته مع جماعة من الفقراء فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة درني، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم، وبقيت كذلك ثلاثة أيام فأجهدني الجوع وتحيرت من خواطر ترد علي، وقلت في نفسي إذا قام الشيخ أمرغ وجهي في المكان فقام ومرغت وجهي فإذا أنا لا أبصر شيئا وبقيت طول ليلتي باكيا، فلما أصبح الصباح دعاني وقربني فقلت له يا سيدي قد عميت ولا أبصر شيئا فمسح بيده على عيني فعاد بصري ثم مسح على صدري فزالت عني تلك الخواطر وفقدت ألم الجوع وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته، ثم استأذنته بنية أداء فريضة الحج فأذن لي وقال ستلقى في

---

[1]- ابن مريم : نفس المصدر السابق،ص 109.

[*]- أبو يعزى: أبو يعزى يلنور بن سليمان الولي العارف وحيد دهره وفريد عصره في العلم والعمل من رجال الكمال وصدور الأولياء الأبدال، أخذ عن أبي شعيب السارية عنه أخذ أبو مدين شعيب، توفي سنة 572هـ وعمره نحو 130 سنة(ينظر كتاب محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق،ص 163.

[2] – BARGES : La vie de Sidi Boumediene, p.2.

[3]– أبو زكرياء يحي بن خلدون: نفسالمصدر السابق،ص 125-126.

طريقك الأسد فلا يرعك فإن غلب عليك خوفه فقل له بحرمة آل النور إلا انصرفت عني فكان الأمر كما قال[1].

وفي سياق آخر حول تربيته من طرف الشيخ أبي يعزى، الذي كان له أسلوب قاس في التربية، نورد هذان البيتان اللذان قالهما أبو مدين بعد أن فقد بصره باكيا:

قليـــل لمثلـــي زفـــرة ونحيب وليس لـــه إلا الحبيب طبيـــب

وأمثل ما يلقى المحب خضوعه إذا كان من يدعـــوه ليس يجيب

" ...ثم مسح بيده على صدري وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم[2]" . ولن يفوتنا التطرق إلى أستاذه في العلوم الصوفية الصالح أبي علي الدقاق، وهو من كبار مشايخ الصوفية، وكان إمام في ذلك وكان يقول:" أنا أول من أخذ منه الشيخ أبو مدين علم التصوف[3]".

ويروى أيضا عن الشيخ أبي مدين، أنه كان يفضل كتاب الرسالة القشيرية للشيخ القشيري، وأيضا كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي.

ورحل أبي مدين شعيب إلى المشرق بقصد أداء فريضة الحج، والاستزادة من العلم والفقه، ولعل هذه الرحلة كان لها بالغ الأثر في حياته بفضل الشيوخ الذين التقى بهم خلالها وخيرهم عبد القادر الجيلاني.

ويروي ابن مريم أن أبا مدين قد تعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث، وألبسه خرقة الصوفية[*] وأودعه كثيرا من أسراره

---

[1]- ابن مريم : نفس المصدر السابق، ص 109- 110.

[2]- سيد أحمد سقال: الولي الصالح أبي مدين ، منشورات سقال 10، نهج إدريس، تلمسان، 1993،ص 13-14.

[3]- سيد أحمد سقال : المرجع نفسه ، ص 10-11.

[*]- خرقة الصوفية: هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يد لأمور منها الزي بزي المراد ليتلبس باطنه بصفاته، كما تلبس ظاهرة بلسباسة وهو لباس التقوى ظاهرا وباطنا ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (سورة الأعراف الآية 25) ومنها وصول بركة الشيخ الذي لبسه من يده المباركة إليه ومنها نيل ما يغلب على الشيخ في وقت الإلباس من الحال الذي يرى الشيخ ببصيرته النافذة المنورة بنور القدس

وحلاه بملابس أنواره فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشائخه[1].

وبهذه الرحلة اتسعت أفاق أبي مدين الفكرية والعقائدية، اذ مكنته من أن يقف على تعاليم الصوفية في المغرب والمشرق[2] فكثر علمه وحط رحاله ببجاية، بعد عودته واستقر بها نهائيا وقد وصفها بقوله" بجاية بلد ملائم للغاية للدراسة والبحث فيما هو مشروع ومباح."[3] وكانت بجاية تعرف في ذلك العهد أوج ازدهارها، لكونها قلعة بني حماد [4]وبها ذاع صيته فقد استقر بزاوية وأصبح يعقد حلقات ذكر يلقي فيها دروسا ومحاضرات حول العقيدة وحول أحكما القضاء القرآني.

وهكذا أمضى أبو مدين فترة زمنية هامة ببجاية يدرس بها، ويبهر بكراماته، ولم يزل بها يزداد حاله رفعة على مر الليالي وترد عليه الوفود وذووا الحاجات من الآفاق، ويخبر بالغيوب إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور[*] بحجة أنه يشكل خطرا على دولته لأن له شبها بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون، في كل بلد فوقع في قلبه وأهمه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره وكتب لصاحب بجاية بوصية الاعتناء به وحمله خير محمل. فلما أخذ في السفر شق على أصحابه، وتغيروا وتكلموا معه فأسكتهم وقال لهم إن منيتي قربت وبغير هذا المكان قدرت، ولا بد لي منه وقد كبرت وضعفت لا أقدر على الحركة فبعث الله تعالى لي من يحملني إليه برفق، ويسوقني إليه أحسن سوق، وأنا لا أرى السلطان وهو لا يراني، فطابت نفوسهم وذهب بؤسهم وعلموا أنه من كراماته[5]

أنه يحتاج إليه لرفع حجبه العائقة وتصفية استعذره فإنه إذا وقف على حال من ثبوت على يده علم بنور الحق ما يحتاج إليه فيستزل من الله ذلك حتى يتصف قلبه به فسيرى من باطنه إلى باطن المريد ومنها المواصلة بينه وبين الشيخ به فيبقى بينهما الاتصال القلبي والمحبة دائما ويذكره الأتباع على طول الأوقات في طريقته وسيرته وأخلاقه وأحواله حتى يبلغ مبلغ الرجال فإنه أب حقيق كما قال عليه السلام: " الآباء ثلاثة: أب ولدك وأب علمك وأب رباك" (هذا حديث لم يعثر عليه) (ينظر: كمال الدين عبد الرزاق القاشاني: نفس المصدر السابق ،ص 160.

[1]– ابن مريم: المصدر السابق،ص 110.

[2]– محمد عمرو الطمار: تلمسان...، ص 70.

p.11. [3]-BARGES : La vie de Sidi Boumediene...,

[4]- Ibid, p.11.

[*]– يعقوب المنصور: أحد الخلفاء الموحدين الذي عرفت خلال حكمه، الدولة الموحدية الازدهار والعمار، فقد كان يشجع الادباء والعلماء،(ينظر محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور،ص 76).

[5]– ابن مريم: نفسه،ص 113..

إلا أن السن المتقدمة لأبي مدين، جعلت من مشاق الطريق عبئا ثقيلا عليه فمرض على مشارف مدينة تلمسان، في مكان لاحظ فيه تواجد عدة قبور متناثرة هنا وهناك، وحينما سئل قيل له إنه العباد فقال قولته المشهورة" ما أحلاه للرقاد"[1].

واشتد به المرض وعرف أصحابه انه لن يسلم فلما وصل وادي يسر، نزلوا به هناك فكان آخر كلامه " الله حق" وتوفي رحمه الله تعالى سنة 594هـ[2].

وبما أن صيت أبي مدين كان ذائعا في كل الأقطار، فقد هب سكان مدينة تلمسان إلى جنازته، وقد شيعت جنازته بالعباد. ويشير BARGES أن عمر الحباك الذي مشى في جنازة الشيخ أبي مدين، قد سلك مسلك الزاهدين إلى أن أصبح من المشاهير الصالحين[3].

ويعتبر ما أورده BROSSLARD عن زيارة الشيخ الأولى بتلمسان ملفتا للانتباه، فيذكر أن أبا مدين بقي بضعة أيام يلقى الدروس، ثم غادرها إلى أن رقد فيها رقدته الأبدية.[4]

وأثناء تصفحنا للمصادر الأخرى لم نصادف ذكرا لهذه الرحلة. إذ ولا واحد من الكتاب الآخرين أشار إلى هذه الرحلة إلى تلمسان. وما يهمنا هو أن هذا الولي الصالح قد أعطى للمدينة صبغة من الهيبة والاحترام برقاده فيها.

أ-علمـــــه:

ينبغي أن لا نذكر أبا مدين شعيب، دون المرور بإيجاز على علمه الذي شمل عدة عناصر كالتصوف، والفقه، والتوحيد، قبل الحديث عن كراماته.

1- تصوفـــه:

ورد في البستان عن ابن صعد التلمساني في النجم الثاقب:" كان رحمه الله تعالى من أفراد الرجال وصدرا من صدور الأولياء والأبدال، جمع الله له بين الشريعة والحقيقة وأقامه ركن الوجود هاديا وداعيا للحق، يقصد بالزيارة من جميع الأقطار... وذكر التادلي وغيره أنه تخرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات، وقال أبو الصبر

---

[1] Le site : Tlemcen,p.66

[2]- ابن مريم: نفس المصدر السابق،ص 114.

[3] - BARGES : La vie de sidi Boumediene,p61-62.

[4]- CH.BROSSELARD : Opcit, p.5-6.

كبير مشائخ وقته: " كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا(*) بالله تعالى، خاض بحار الأحوال ونال أسرار المعارف، خصوصا مقام التوكل[1].

وقد تخرج على يد أبي مدين علماء كثيرون منهم محي الدين بن عربي، الحاتمي، والشيوخ أبو محمد صالح الينصارني الدوكالي، وابن عبد الخالق التنسي، وأبو يوسف الدهماني، والشيخ طاهر المزوغني، وغيرهم كثيرون.

*-عارفا: العارف من/ أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله، فالمعرفة حال تحدث عن شهود(انظر كمال الدين القاشاني: نفس المصدر السابق،ص 106.)

1- ابن مريم: نفس المصدر السابق،ص 108.

وكل من يذكر الولي الصالح أبي مدين، يعرفه بالقطب[*] والغوث[*] نظرا لعلمه الواسع وزهده وورعه اللامتناهين.

2- فقهـــــه:

كان في علم الفقه من أعلام علماء الطبقة الثانية عشر (12) من علماء المالكية، ومن حفاظ الحديث، خصوصا الترميذي، وكان يقوم عليه، وكان ترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، منها فتواه لأبي إسحاق الطيار[*] دفين تلمسان.

وكان يروي المذهب المالكي وهو موطأ مالك عن ابن بشكوال عن ابن عتاب عن والده عن أبي محمد مكي بن أبي طالب عن أبي محمد بن أبي زيد عن ابن اللباد والأبياني عن يحي بن عمر عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك بن أنس، كما اخذه عن الحافظين أبي الحسن بن حرزهم، وأبي الحسن بن غالب.

---

*- القطب: "هو الواحد الذي هو موضع (نظر الله تعالى من العالم في كل زمان وهو على قلب اسرافيل عليه السلام، أما BARGES فعرف القطب كالآتي: " القطب بالنسبة للمتصوفة هو أعلى درجات الكرامات الإلاهية التي يصبون إليها ولا يبتعد BROSSLARD كثيرا في تصوره وتعريفه لهذا المصطلح فهو يقول:" القطب في لغة الصوفية يعني الشخص المفضل الذي يحمل هذا الإسم هو الرجل الصالح، الناسك، الذي يحتل قمة السلم البشري، فهو يحمل كل الفضائل، كل العلوم...، إن القطب هو الذي ينشر فكرة الحياة على الطبيعة العليا والسفلى فبيده ميزان الانبثاق والانبعاث العامين(ينظر .Opsit,p.14 CH.BROSSLARD)

*- الغوث: هو القطب عندما يلتجأ إليه ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا ينظر إلى كاتب القشاني: نفس المصدر السابق، ص167 ويعرف BROSSLARD الغوث كالآتي: " أيضا يعني شخصا فريدا وفذا وهو يحتل درجة أعلى في سلم الصوفية...إنه الملجأ الأعلى للمحتاجين، المنقذ ...فقد أودعه الله هبة السعد أو الفال السعيد، إنه ينتشر في كل الطبيعة بمختلف موادها وجواهرها فيعطيها الحياة، كما ينعش الجسم كله (أنظر إلى .CH.BROSSLARD.Opsit,p.15).

*- سأل أبو إسحاق الطيار أبا مدين قائلا: صلينا الصبح أنا ورجل معي ببغداد، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح فأعدنا معهم، وجلسنا حتى صلينا الظهر، وأتيانا القدس فوجدناهم في الظهر،فقال لي صاحبي هذا يغيد معهم فقلت:" لا" فقال لي ولم أعدنا الصبح بمكة؟ فقلت له كذلك كان شيخي يفعل، وبه أمرنا، فاختلفنا أتينا للجواب فقال أبو مدين أما إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين اليقين، وببغداد علم اليقين، وعين القين أولى من علم اليقين، وصلاة الظهر بمكة، وهي أم القرى فلذلك لا نعاد غيرها، قال فقنعنا به وانصرفنا " (أنظر لابن مريم: نفس المصدر السابق،ص 113.)

ويجب أن نشير في هذا الصدد إلى ما قدمه BARGES في كتابه حول سيدي أبي مدين حيث ذكر أن الشيخ كان يشرح القرآن فلا يتعدى السورة (67)(*) مما يدل على علو مقام أبي مدين في التوحيد، ما قاله الشيخ أبو محمد صالح الينصاريني: لقيت أبا العباس الخضر عليه السلام بالمغرب سنة ثمانين وخمسمائة(580) فسألته عن شيخنا أبي مدين، رضي الله عنه ،فقال: هو إمام الصديقين في هذا الوقت وسره من الإرادة، ذاك أتاه الله مفتاحا من السر المصون بحجاب القدس، ما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه[1] .

وسوف ننتقل إلى الحديث عن بعض كراماته المدهشة، إذا أنها كثيرة ولا نستطيع أن نوردها جميعا في هذا السياق.

3- كراماته:

إن الكرامة التي ذكرت عن أبي مدين شعيب كثيرة جدا، ولا يسعنا الحديث عنها كلها في هذا السياق لذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعضها وخاصة التي ذكرها والتي حدثت له في مجالسه.

يروي لنا ابن مريم في كتابه البستان هذه الكرامة الأولى فيقول:" كنت(الشيخ أبو مدين) في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو (معنى) حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس اتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به علي، فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأوي إلي وتؤنسني، وكنت أمر في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس فيدورون حولي ويصبصون لي، فبينما أن ذات يوم بفاس وإذا برجل من معارفي بالأندلس سلم على فقلت " وجبت ضيافته" فبعت ثوبا بعشرة دراهم فطلبت الرجل لأدفعها له فلم أجده هنالك فخليتها معي وخرجت لخلوتي على عادتي، فمررت بقريتي فتعرض لي الكلاب ومنعوني الجواز حتى خرج من القرية من حال بيني وبينهم ،ولما وصلت لخلوتي جاءتني على عادتها فلنا شمتني نفرت عني وأنكرت علي فقلت ما أتى علي إلا من أجل هذه

---

*- وهذه الفكرة حول عدم ذهاب الشيخ أبعد من سورة(67) فيقول الشيخ أبو مدين:" هذه السورة كانت موجهة لي " سدرة المنتهى وقد اعتبرها كحد أقصى ونهائي فلا أستطيع أن أذهب أبعد من هذا حتى لا أتعرض للعاقب الإلاهي(ينظر : BARGES la vie de sidi...,p.41-42.)

1- نور الدين الشطنوفي: بهجة الأسرار ومعدن الانوار، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،ص 67.

الدراهم التي معي، فرميتها عني فسكنت الغزالة وعادت لحالها، و لما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي فلقيت الأندلسي فدفعتها له، ثم مررت بالقرية في خروجي فدار بي كلابها وبصبصوا على عادتهم وجاءتني الغزالة على عادتها فشمتني من مفرقي إلى قدمي وأنست بي[1].

ومما يروى عن الشيخ أنه قال: عن العارف عبد الرحيم المغربي، قال سمعت سيدي أبي مدين يقول: " أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك قلت يا رب عطاؤك، قال عن شمالك قلت يا رب قضاؤك، فقال يا شعيب قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك[2]

ومما يرويه أبو العباس المرسي قال: " جلت في ملكوت الله فرأيت سيدي أبا مدين متعلقا بساق العرش وهو يومئذ رجل أزرق العينين، فقلت له ما علومك وما مقامك فقال علومي أحد وسبعون علما، وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، وسئل عما خصه الله به فقال مقامي العبودية وعلومي الألوهية، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ملأت علومه سري وجهري وأضاء بنوره بري وبحري، فالمقرب من كان به عليما ولا يسموا إلا من أوتي قلبا سليما الذي يسلم مما سواه ولا يكون في الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب.

وسئل في مجلسه عن الحب، فقال أوله دوام الذكر، وأوسطه الأنس، بالمذكور وأعلاه أن ترى شيئا سواه[3].

ومن الكرامات أيضا: أن رجلا جاءه ليعترض عليه فجلس في الحلقة فأخذ صاحب الدولة في القراءة فقال له أبو مدين أمهل قليلا، ثم التفت للرجل وقال له لم جئت فقال لأقتبس من نورك فقال له ما الذي في كمك، فقال له مصحف فقال افتحه واقرأ في أول سطر يخرج لك ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه "الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها

---

[1]- ابن مريم :المصدر السابق،ص 109.

[2]- نفسه،ص 110.

[3]-ا نفسه،ص110-111.

الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين" فقال له أبو مدين أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله[1].

يورد BARGES هذا الجدل الذي قام حول نقطة يقول عنها أنها تجد بعض الشبه مع الديانة المسيحية، ألا وهو الاختلاف الذي قام حول الحديث" إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة" .

وعندما جاءوا لسؤاله بينما كان يلقي درسه، كاشفهم في الحال وأجابهم أن المراد من نصف الجنة هو الكشف له عن مقعده ليتنعم به وتقر عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة[2].

4- إنتاجه الفكري:

ومن بين ما خلف سيدي أبي مدين من إنتاج فكري، بعض الحكم التي نذكر منها:

1- إذا رأيت من يدعي مع الله حال وليس على ظاهره شاهد فاحذره.

2- حسن الخلق معاشرة كل شخص بما يؤنسه ولا يوحشه ومع العلماء بحسن الاستماع والافتقار ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار ومع أهل المقامات بالتوحيد والإنكسار.

3- من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم

4- من اشتغل بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذل

5- علامة الاخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق[3]

ومن شعره المأثور عنه قوله:

مغيث أيوب والكافي لذي النـــون ينيلني فرجـــا بالكـــاف والنـــون

كم كربة من كروب الدهر فرجها دوني و لم ينكشف وجهي لمن دوني[4]

---

[1] - ابن مريم: المصدر نفسه،ص 111.

[2] - BARGES : la vie de sidi ..., p.27.

[3] - ابن مريم نفسه،ص 114.

[4] - أبو زكرياء يحي بن خلدون:نفس المصدر السابق،ص 126.

كما خلف قصائد شعرية إخترنا منها الأبيات التالية:

طـــال اشتياقي ولا خل يأنســـني ولا الزمـــان بما تهـــوى يوافيـــني

هذا الحبيب الذي في القلب مسكنه عليه ذقت كؤوس الـــذل والمحـــن

عليه أنكرني من كـــان يعرفـــني حـــتى بقيت بلا أهل ولا وطـــن

قالوا جننت بمن تهـــوى فقلت لهم مـــا لـــذة العيش إلا للمجانيـــن[1]

يظهر مما أشرنا إليه أن أبا مدين، كان عالما، ومحدثا، وفقيها، وصوفيا، وزيادة على كل هذا شاعرا، وشعره جميل في اللفظ والتركيب، وثري في المعاني فهو شعر مستكمل النفاسة لفظا ومعنى، والبعض منه يغنى به وينشد في محافل الذكر[2].

وقبل التطرق لضريح سيدي أبي مدين لا بد من التطرق إلى مجمع العباد.

*** المجمع المعماري للعبـــاد:**

يقع ضريح سيدي أبي مدين ضمن مجمع معماري بالعباد. والعباد هو إسم القرية التي توجد على بعد كيلومتر شرقي مدينة تلمسان، أي بالتحديد في الجنوب الشرقي من تلمسان في سفح جبل (البعل)، الذي يشرف عليها بغابته ذات الأشجار الوارفة الظلال وهي تشرف أيضا على واد الصفصيف.وسمي العباد لأنه جمع عابد، إذا كان في بادئ الأمر رباط يجتمع فيه النساك والزهاد، بقصد الإنقطاع لعبادة الله تعالى[3].

آخرون يرجعون تسمية العباد نسبة الى الولي الصالح سيدي عباد، والذي يعتبره سكان العباد القدامى رجلا صالحا حط رحاله بتلمسان، قبل (سيدي أبي مدين) وأعطى تسمية للقرية، ومع أن هناك قبة تنتصب بالعباد ترمز له وتحمل إسمه، إلا أننا لا نستطيع الفصل في حقيقة وجود هذا الولي من عدمه[4] .

يمدح الشيخ محمد بن يوسف القيسي الأندلسي العباد قائلا:

و لتغد للعبـــاد منهـــا غـــدوة تصبح هموم النفس عنك بمعـــزل

---

[1]- سيد أحمد سقال: نفس المرجع السابق،ص 47.

[2]- المرجع نفسه،ص 21..

[3]- محمد بن رمضان شاوش: نفس المصدر السابق، ص 278.

[4]- William et George Marçais : les monuments ..., p225.

و ضريح تاج العارفين شعيبهـــا زره هنـــاك فحبـــذا ذاك الـــولي
فمزاره للديـــن والدنيـــا معـــا تمحي ذنوبك وكروبـــك تنجلـــي
وبكهفها الضحاك قف منتزهـــا تسرح جفونك في الجمال الأجـــل
وتمشي في جنباتهـــا و رياضهـــا وأجنح إلى ذاك الجنـــاح المخضـــل[1]

وقال الحاج الطيب أبو عبد الله بن أبي جمعة التلاليسي في قصيدة مدح فيها تلمسان:

وعبادها ما القلب نـــاس ذمامـــه به روضـــة للخير قد جعلت حلا
بها شيخنا المشهور في الأرض ذكره أبـــو مدين أهلا به دائمـــا أهلا[2]

انقسم العباد في القديم إلى قسمين **العباد السفلي**، والذي يمتد من عين وانزوتة إلى سيدي أبي إسحاق الطيار، وقد كانت به حمامات وأسواق ومنتزهات، اندثرت ولم يبقى منها أي أثر اليوم **والعباد العلوي** أو **الفوقي**، هو الذي يحوي مسجد سيدي أبي مدين بكل مرافقه[3] .

أنشأ ضريح سيدي أبي مدين بأمر من السلطان محمد الناصر[*][4]وهذا السلطان هو الذي أمر ببناء ضريح يليق بذاكرة الشيخ أبي مدين، ولعل **محمد الناصر**، كان أول من شيد الضريح فاتحا بذلك الباب أمام من أتى بعده، في الابداع والتزيين. فقد عمل السلطان الزياني **يغمراسن ابن زيان** على تزيين هذا الضريح، كما أمر بدفن السلطان الموحدي **السعيد** بمقبرة سيد أبي مدين، كتكريم لروح السلطان المنهزم أمامه، ولعائلته[5].

---

[1] - Barges : vie de ..., p 2XXVII XXVIII.

[2]- عبد الحميد حميدو: نفس المرجع السابق،ص 22.

[3]- محمد بن رمضان شاوش: نفس المرجع السابق، ص 279.

[*]- محمد الناصر: هو ابن السلطان الموحدي ومحمد الناصر هو أول من شيد ضريح سيدي أبي مدين شعيب أواخر القرن السادس للهجرة(ينظر إلى كتاب محمد بن رمضان شاوش: المرجع السابق،ص 288.)

[4]-سيد أحمد سقال: المرجع نفسه،ص 23-24.

[5] -CH BROSSELARD, opcit, numéro4, p.89.

ولعل أروع المعالم المخلفة لنا هي تلك التي قام بها السلطان **أبو الحسن المريني**، إذ يصفها ابن مرزوق على أنها مما لم يعهد منه في سالف الأزمان، ولا سبق شكله في قواعد البلدان[1].

ان ما أنشأه أبو الحسن المريني يفوق كل اعتبار، فعلاوة عن اهتمامه بترميم مبنى الضريح وتجديده، فانه سارع إلى إنشاء مجمع يشتمل على المسجد والمدرسة والقصر[2].

أ- الجـــامع:

باب الجامع الضخم رائع الجمال، يحتوي على قنطرة عظمية البنيان على شكل حذوة الفرس، ويحمل هذا الباب حاشية فوق الإطار المستطيل بها كتابة تشير بخطوط اندلسية نصها " الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن عبد الحق أيده الله ونصره، عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله به.يصعد إلى الجامع بمدرج مفروش بالرخام تعلوه قبة بديعة المنظر،تحمل في سقفها كتابة:" هذا ما أمر به مولانا أبو الحسن عبد الله علي" أما زخرفتها الجصية فهي آية في الجمال.

أما الباب الذي ينفتح على صحن الجامع، فيصفه ابن مرزوق بأنه:" و أما الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي يترل فيه إلى قبر الشيخ رضي الله عنه ...وهو باب من النحاس يشتمل على مصراعين، كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل، وتخريمه على أشكال من نحاس ملون فهو من غريب ما يتحدث به"[(3)].

بعد المرور من هذا الباب نجد الصحن المربع الشكل، مفروشا بالفسيفساء المختلفة الألوان بوسطه حوض من الرخام ومصاطب للجلوس.وتحيط بهذا الصحن أروقة من الجهات الثلاث، أما جهة القبلة فتحتلها قاعة الصلاة التي تحتوي على أربعة بلاطات

---

[1] محمد ابن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، دراسة و تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا،تقديم محمود بوعياد، اصدارات المكتبة الوطنية النصوص و الدراسات التاريخية 5 الجزائر .401 1 ،1981،ص 125

[2] سيدي محمد الغوثي بسنوسي: المرجع السابق،ص 353- 354.

[3] - محمد ابن مرزوق التلمساني : المصدر السابق، ص 34.

وخمسة أروقة محمولة عقودها على ستة عشرة سارية...أما السقف والجدران فهي مزخرفة بنقوش بديعة[1]،كما نجد به مئذنة رائعة الجمال (أنظر الشكل رقم 03).

ب- دار السلطان:

يجد الزائر لمسجد سيدي أبي مدين، إذا دخل من الباب على يساره بابا عريضا يؤدي إلى دار السلطان وهي عبارة عن قصر شيده السلطان المريني، من أجل الاستراحة فيه من هموم الحكم والسياسة. ويرجع تأسيس هذه الدار إلى نفس العهد الذي أسس فيه المسجد و المدرسة. وهي تعد من المنشآت المعمارية المرينية الرائعة، ومع أنها اليوم لا تخلف لنا سوى أطلال توحي بذوق معماري رفيع، إلا أننا لا زلنا نجد جدرانا مخربة تحتفظ بزخارف جصية وأروقة ذات قناطر مقوسة[2].

كان القصر يحتوي على أكثر من 12 غرفة تبلغ بعضها 12 مترا طولا ولا تتعدى 3 أمتار عرضا بها تحلية رائعة وجذابة[3].

ج- المـــدرسة:

حينما تخرج من مسجد سيدي أبي مدين تجد بابا جوفيا يوصلك إلى المدرسة، أسست المدرسة ثماني سنوات بعد مسجد سيدي أبي مدين، من طرف السلطان أبي الحسن المريني ولعل الزاوية قد كانت من المنشآت الجديدة التي أدخلها أبو الحسن المريني، إلى تلمسان وهي مكان تعبد للمنقطعين إلى الله، فهي للصلاة، لتلاوة القرآن وأما المدرسة فلإلقاء الدروس كما أنها مأوى عابري السبيل والطلبة[4].

للمدرسة باب واحد معقود بعقد حذوي، بداخلها صحن مستطيل في وسطه حوضان: أحدهما كبير يحيط به شباك من حديث العهد، وآخر صغير في وسطه نافورة ماء. على الجانبين الأيمن و الأيسر من الصحن نجد رواقين محمول سقفهما على عشر سوار: خمس

---

[1]- محمد بن رمضان شاوش: المرجع السابق، ص 290-235-296.

[2]- المرجع السابق، ص 285.

[3]- William et Georges Marçais: Ibid, p.274.

[4] - Ibid,p.274.

من كل جهة، ثم نلاحظ ساريتين إزاء الباب الذي دخلنا منه، وساريتين أمام القاعة المقابلة التي يلقى بها الدروس و تقام بها الصلوات،أمافي جدار كل واحد من الرواقيين الأيمن،

و الأيسر فنجد البيوت التي تعد للطلبة وهي بعدد 6،في الواجهة الجنوبية من الصحن توجد القاعة المهيأة للدراسة وللصلاة، معا وهي مربعة الشكل تعلوها قبة من الخشب، يغطيها من الخارج قرميد أخضر، و هي مفتوحة بـــ6 نوافذ لإدخال الضوء.

بناني كي يقيم لدي دينا * * * الإسلام أمير المسلمينا

أبو الحسن الذي فيه المزايا* * * تفوق النظم بالمدح الثمينا[1]

قبل الوصول إلى الضريح نجد باب دار المقدم أو وكيل الضريح، و لعلنا لنا نمر إلى الضريح قبل التطرق إلى نقطة هامة، نود الإشارة إليها، لأنها في نظرنا قد لعبت دورا هاما خاصة و أنها أصبحت ظاهرة وثيقة الصلة بالضريح، ألا وهي تواجد الحارس أو المقدم بجانب الضريح.

ويشير Barges في كتابه حول سيدي أبي مدين، إلى هذه النقطة فيبين لنا أن التبجيل المرتبط بذاكرة سيدي أبي مدين، جعل دائما من مراقبة ضريحه امتيازا و هذا الشرف بقي و لوقت طويل شبه متوارث عن المرازقة (بني مرزوق)، أحد هؤلاء الحراس المشهورين كان المسند أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، الذي لعب دورا سياسيا هاما خلال الحكم المريني (736-751 - 1335-1336)[2].

ونحن لا نريد أن ندخل في متاهات دور المقدم، لأن هذا ليس من مجال تخصصنا إلا أننا أردنا، أن نبين للقارئ الكريم الخلفية التاريخية لحارس الضريح أو ما يعرف في عصرنا بالمقدم، فدوره أخذ نصيب من المال مقابل زيارة الضريح. و المهم في حديثنا هو أن التبجيل الذي حضى به سيدي أبي مدين لم يقلل من قيمة ضريحه[3].

---

[1]- محمد بن رمضان شاوش: نفس المرجع السابق،304-305-307.

[2] - Barges : Ibid, XXX-XXXI.

[3] - Le site : Tlemcen, p 70-71.

ثانيـــــا: ضريحـــــه

يحتل ضريحه سيدي أبي مدين، مكانة كبيرة في عمارة مدينة تلمسان، و يعتبر من أهم معالمها الأثرية الهامة، وله مكانة عظيمة في قلوب سكانها الذين يعتزون به، وقد ارتبط تاريخ هذا الضريح ارتباطا وثيقا بتاريخ تلمسان إذ ظل ضريح هذا العابد مقبرة مفضلة، مأثورة عند الأجيال التي تعاقبت عبر الأزمان على تلمسان[1].

ونورد في هذا السياق بعض الآراء حول الضريح، الذي كان صيته ذائعا في تلمسان وخارجها:

يجزم Brosselard دون أدنى شك أن ضريح سيدي أبي مدين، هو الأروع من نوعه الموجود في الجزائر، فمع أن ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي مشهور و جدير بالزيارة، إلا أنه ينتمي إلى فن فقير ومرحلة ضعف، فكل مقارنة بين الضريحين تكاد تكون غير ممكنة و نفس الشيء يقال دون تعسف على المعالم المختلفة لمدينة قسنطينة، و التي تخلد أوليائها.

ويبقى ضريح سيدي أبي مدين دون منافس منذ سبعمائة عام، انه مقصد الحجاج، فهو يحمل إلى العباد جمع من الزوار من كافة البلدان المسلمة، مؤرخون، ورحالة و مسافرون، كل من كتب حول إفريقيا الشمالية يذكرونه في كتبهم: فإبن بطوطة العائد من رحلة بالمشرق عام 750 هـــ مر بتلمسان، و كانت زيارته الأولى إلى ضريح سيدي أبي مدين[2]. كما وصفه أبو محمد العبدري، الذي توقف بتلمسان قادما من المغرب، وقاصد مكة في كتابه (الرحلة المغربية: أجلّ و أكثر الأضرحة تبجيلا الموجودة، ضريح العابد أبي مدين، وحيد عصره) [3].

كما يصفه سيد أحمد سقال قائلا:" وقبر الشيخ أبي مدين بالعباد معهود، مشهور وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا، فما رأيت أنور من قبره، و لا أشرق و لا أظهر من سره و ليس الخبر كالعيان"[4].

---

[1] - William et George Marçais : les monuments …, p230.
[2] - Brosselard : Opcit.84.
[3] -Ch. Brosselard : Ibid (N°4), p 84-85.
[4] - سيد أحمد سقال: نفس المرجع السابق، ص23-24.

ونقل عن المقري: "وقد زرته متين من مرات، و دعوت الله تعالى عنده. بما أرجو قبوله[1]. لقد كان من عادة الحجاج العائدين من البقاع المقدسة، أن يزوروا هذا الضريح قبل العودة إلى أهلهم و ذويهم.

أ- الوصف المعماري و الزخرفي للضريح:

يتكون ضريح سيدي أبي مدين من جزئين جليلين:الضريح الذي يعد حرما للمعبد أين يوجد جثمان الولي، و من فناء أو ساحة أمامية (أنظر الشكل رقم 04)[2].

ندخل إلى الضريح بواسطة باب صغير معقود بعقد حذوي، يبلغ طوله 1.88م و عرضه 86سم يحيط به إطار من البلاطات الخزفية المتعددة الأشكال و الألوان، أين تحتل الزخرفة النباتية حيزا أكبر من الزخرفة الهندسية، وهي تتمثل في شبكات من المراوح النخيلية،

و الزهرات الصغيرة المتعددة الألوان، و يغلب على البلاطات الخزفية اللونين الأصفر، الأخضر الفاتح، و الأخضر الداكن، و الأزرق و نلاحظ إختلاف أنواع البلاطات و ذلك راجع للترميمات العديدة و العشوائية في الكثير من الأحيان (أنظر اللوحة رقم 12).

يكتنف المدخل عمودان خشبيان، بدنهما دو قنوات تعلوهما تيجان كرنثية[3] ويحمل هذان العمودان عقد حذوي. ترتكز الظلة التي تعلو المدخل على أوتاد خشبية، أما سقفها من الداخل فمقسم إلى ثلاث مربعات: المربعان الموجودان على اليمين و على اليسار مماثلان يحملان زخرفة هندسية، في كل زاويا إطار المربع و يظهران بأرضية زرقاء داكنة تنتشر فيها زخارف نباتية متشابكة، يتنوع لونها بين الأخضر الفاتح، و الأزرق الداكن، و هذه الزخارف أغلبها عبارة عن مراوح نخيلية، وسيقان رقيقة متفرعة منها. تحتل مركز كل مربع نجمة ذات ثمانية رؤوس، و هي ناجمة عن تقاطع مربعين تحتل مركزها زهرة ذات مركز دائري تظهر باللون الأبيض. يتجلى جمال هذه النجمية في الألوان التي تزينها إذ أنها مرسومة على أرضية خضراء شفافة، يحيط برؤوسها ثمانية الأزرق الداكن ثم الوردي، أما

---

[1]- أحمد بن محمد المقري التلمساني – نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب – دار صادر بيروت المجلد السابع، ص142.

[2] - Barges : Ibid, XXX-XXXI

[3] - William et George Marçais : les monuments …, p239.

الزهرة التي تحتل مركزها فيحيط بجوانبها اللون البرتقالي، ويظهر وسطها بلون بنفسجي منغنيزي (أنظر اللوحة رقم 12).

يتوسط هذان المربعان مربع أصغر حجما، و تزينه سلسلة من النجميات الصغيرة ذات ثمانية رؤوس ذات لون برتقالي، يميل إلى الأحمر تحيط بها من الجانبين زخارف نباتية تتنوع ألوانها من الأخضر الوردي، و هي مرسومة على قاعدة برتقالية.(أنظر اللوحة رقم 12).

أسفل الشرعة مباشرة نلاحظ وجود زخرفة عبارة عن بائكة، ذات عقود مفصصة ترتكز على أعمدة صغيرة. يعلو الظلة من الخارج سقف هرمي الشكل، مكسو بالقرميد الأخضر.

نترل إلى الضريح بواسطة درج يتكون من 9درجات، (في حين أشار Marçais إلى وجود 8 درجات)، لنجد صحنا ذو مخطط قريب من المربع يبلغ طوله 5.40م،وهو يعد بمثابة قاعة إنتظار أين يرتاح الزوار قبل الدخول إلى الضريح، وحسب ما تحكيه الجدات فقد شهد هذا الصحن العديد من مجالس الذكر و الحديث، للنسوة خاصة(أنظر اللوحة رقم 13)، يحيط بالصحن من الجهات الأربعة رواق يرتكز على أعمدة من المرمر، تعلوها أو تتوجها تيجان من المرمر[1] (أنظر الشكل 05).

تعلو هذه الأعمدة عقود نصف دائرية،هذه الأعمدة وتيجانها يظهر على حسب الشريط الكتابي المنقوش على إحدى تيجانها، أنها استقدمت من قصر النصر الذي بناه **أبو الحسن** بالمنصورة. هذه التيجان مزينة حسب ثلاث نماذج مختلفة ، فيهما جميعا نجد قطعة علوية مربعة محلات ببروز ضعيف، و مكسوة في قاعدتها بمراوح نخيلية مقسمة، تربطها إلى أزواج (اثنان، اثنان) رابطة متوسطة وقطعة أسطوانية أين تدور لفائف في القمة، اثنان من بينهما تحملان شريطين كتابيين، و منحنيات هذه الأشرطة متمددة، ولا تستمر على مختلف الواجهات من أجل تشكيل دائرة واحدة، ثلاثة من هذه التيجان تحمل لفائف حلزونية[2] " تاج الزاوية الجنوبية- الشرقية تصغير للتيجان الكبيرة لمسجد المنصورة".

---

1 - Ch Brosselard : opcit, Numéro4, p83-84.
2 - William et George Marçais : les monuments …, p234-135-136.

و نشير إلى أن التاجان الموجودان بصحن ضريح صحن سيدي أبي مدين، يعودان إلى فترة زمنية بعيدة لكون عقود الرواق تؤكد ببصماتها إلى قدم البناية[1].وتجب الإشارة إلى وجود قبة خشبية تعلو الصحن الذي هو في أصله مكشوف، ولسنا ندري إن كانت هذه القبة موجودة من قبل لأننا لم نجد في المصادر و المراجع ما يشير إلى وجودها.

في الجهة الجنوبية الغربية للصحن يوجد البئر " و البئر حرزة من المرمر" [2] ساء حالها بسبب إحتكاك السلسلة. و لن نغادر الصحن حتى نشير إلى وجود شواهد قبور، من الرخام عليها زخارف هندسية، عبارة عن معينات وهذه الشواهد تخبأ الأرضية للوهلة الأولى[3].

تحمل جدران الصحن في الأسفل تكسية من البلاطات الخزفية، وهي متكونة من مربعات يبلغ طول ضلعها 0.13م البعض منها مزينة باللونين الأزرق على الأبيض المائي، أو الوردي،وتحمل هذه البلاطات أشكالا عبارة عن دائرة مركزية تحتل مركزها ثمان زهريات مقفلة و تحيط بها أشكال هندسية، مختلفة كما نجد شريطا دائريا أو دائرة تنطلق منها تفريعات نباتية، وهي عبارة عن وريقة منبسطة تتناوب مع زهريتين مقفلتين (أنظر الشكل رقم 06)، في حين نجد بلاطة أخرى تحمل زخارف هندسية، صفراء، و خضراء بالتناوب، تنطلق من المركز زخارف نباتية ذات اللون الأبيض مرسومة على قاعدة لونها بنفسجي منغنيزي (أنظر الشكل رقم 06). كما نجد بلاطات خزفية أخرى متعددة الألوان كتلك التي تظهر باللون الأزرق، والأصفر، فاللون الأزرق التركوازي يتدرج من الفاتح إلى الداكن ويتميز اللون الأصفر ببريق ولمعان نادر. ويتكون التصميم العام للبلاطة من عنصر مركزي عبارة عن مربع متداخل غير منتظم، تشع منه أوراق خماسية الفصوص، وأوراق على هيئة أوراق الأكانتس مرسومة بأسلوب محور، وحفظت هذه العناصر باللون الأبيض

---

1 - Ch Brosselard: Ibid, Numéro4, p83-84.
2 - Rachid Bourouiba : l'art Religieux Musuleman en Algérie, Société Nationale d'Edition et de Diffusion 2 éme Edition, Alger 1983, p279.
3 - BARGES : La vie de cidi…, p XXX-XXXI.

على أرضية كوبالتية رقيقة[1] كما نلاحظ أن الألوان المستعملة في البلاطات الخزفية تعد من مميزات البلاطات الخزفية المصنوعة بإيطاليا[2] وأخيرا نجد بلاطات خزفية تحمل شكل الزهرة المتفتحة، التي تحمل أربعة زهيرات صغيرة (أنظر الشكل رقم 06).

أما البلاط الأرضي للصحن، فيتكون من عناصر متباينة معظمها حديثة العهد. بعض الأنواع بسيطة وعادية، ففي الزاوية الشمالية الشرقية نجد مربعات صغيرة، يتروح طول أضلاعها بين 6 إلى 10 سم ذات البروز الخفيف في حالة رديئة بسبب الاحتكاك المتواصل، مغطاة بطلاء أخضر الشفاف، أو أخضر داكن (أنظر الشكل رقم 07)، يبدوا لنا أنه من الصعب تحديد أصلها الدقيق، ويدل أسلوب الزخرفة النباتية المستخدم على انتمائها إلى الأسلوب التركي... ونجد مثيلاتها في بعض أجزاء صحن سيدي أبي مدين، ومسجد سيدي أبي الحسن ،(المتحف)[3] وهكذا نلاحظ أن الضريح يعد وعاء صبت فيه عدة تيارات واتجاهات فنية، من زيانية، مرينية إلى تركية.

وغير بعيد عن الدعامة الشمالية الغربية، شضية من بلاطة مربعة كبيرة محلات ومبرنقة بأسلوب غير واضح ساءت حالتها، أما فيما يخص الزخرفة الهندسية ذات الأشرطة البيضاء فتبدوا محددة لمضلعات ملونة بشتى الألوان، ومزينة بزخارف(بعض المربعات بالأبيض والأسود تشبه مربع الشطرنج).

بعض الشبكات تركت بدون تحلية زخرفية، والهدف من ذلك عدم اختلاط الزخارف. ولعل النقص الظاهر في التنفيذ الذي يأتي خاصة من عدم تساوي الإنصهارية، في الزخارف المستعمل يظهر لنا هذه القطعة غاية في الأهمية وهذه القطعة، ليست هي المثال الوحيد الذي يمكن أن نلاحظ فيه هذا التوجه نحو تعويض الفسيفساء الخزفية للعصور المزدهرة، بالمربع المتعدد الألوان ذو الاستعمال البسيط.[4]

تجب الإشارة إلى أن ضريح سيدي أبي مدين، بتعرضه للحريق قد تأثر بالغ الأثر،

---

[1]- عبد العزيز محمود لعرج: الزليج في العمارة الإسلامية في العصر التركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، الجزائر، 1990، ص 153.

[2]- William et George Marçais : Les monuments ..., p234.

[3] - William et George Marçais: Ibid, p236.

[4] - William et George Marçais: ibid ..., p236.

و قد أعيد ترميمه بالزخارف والألوان، المزودان ببلاطات من الفسيفساء الخزفية، تحت أوامر محمد باي وهران، سنة 1793. وهذا التاريخ يناضر عام ثمانية ومايتين وألف[1] كما يظهر في الكتابة الأثرية التي سوف ترد في نهاية الوصف المعماري، الترميمات التي قام بها المهندس التركي **الهاشمي بن صرمشيق**،والتي لا تشرف كثيرا هذه الحقبة حيث نلمس عدم قوة الفن المعاصر، وهو يقلد ولو من بعيد الفن القديم.فوق باب قاعة الدفن المرمم الذي يبلغ طوله 2,16 م وعرضه 1,50م، نقرأ كتابة جصية محاطة بالأرابيسك ذات قواعد ملونة، ويظهر من خلال الكتابة إسم الشاب التركي **صرمشيق**، وهو فنان تركي ولد بتلمسان وعاش بالجزائر العاصمة، ونلاحظ أن اسم صرمشيق موجود بمسجد عين البيضاء بمعسكر ولعله لأحد أفراد أسرة **الهاشمي بن صرمشيق** ان لم يكن والده.

والكتابة الموجود بمسجد عين البيضاء هي كالآتي: إنتهى بحمد الله على يد المعلم " أحمد بن محمد بن حج أحسين بن صارمشق التلمساني رحمه الله"[2]. ويعني اسم صرمشيق باللغة التركية، اسم نبتة متسلقة تسمى بالعربية فاشرة، أوالكرمة البيضاء، أما اسمها بالفارسية فهزرجشان، ويوجد معنى هذه النبتة في الكتب الطبية وشرح لنا اسمه من طرف جزائري مختص في المجال الطبي في القرن الماضي يدعى " عبد الرزاق".[3]

وحسب ما علمنا لا تزال هناك عناصر من هذه العائلة الفنانة موجودة بتلمسان، إلى يومنا هذا تشتغل بالصناعة التقليدية[4] .

أما فيما يخص طريقة الصنع، فهي عبارة عن تلطيخ بمادة عجينية غير منتظمة وسيئة الصنع، مستوحاة كثيرا من الزخرفة العربية، وهي عبارة عن صفوف من المعينات مماثلة للتي نراها في المدرسة، ولكنها مزينة حسب الذوق التركي، وبعناصر نباتية[5] .

وقد شبه صرمشيق ما قام به من أعمال فنية بالدرر، رغم أنها ليست بهذا المستوى من الرقي والإتقان، كما أن Bosselard لم يفته أن يشير إلى جرأة هذا الشاب في كونه أشار

---

1 - Ch Brosselard : Opcit, p86-87.
2 -Dr leclerc : Inscriptions arbres de Mascara (R.A, N°4, P42-46)
3 Dr Leclerc : opcit : (R.A N°4,p 42-46.)
4 - Ch Brosslard, opcit (N°4), p43-46.
5- محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق،ص 287.

إلى اسمه ليبقى شاهدا عليه للأجيال القادمة، مع أن كبار الفنانين في الحمراء لم يسجلوا أسماءهم على أعمالهم الفنية[1] كما يبينBosselard أن كتابة محمد باي، هي الوثيقة الوحيدة في علم الكاتبات الأثرية، التي ترتبط بتاريخ ضريح سيدي أبي مدين[2].

ولعل ما لاحظه Brosselard عن كون الهاشمي بن صرمشيق،قد أشار إلى اسمه في كتابة ضريح سيدي أبي مدين، نلاحظه أيضا في مسجد عين البيضاء بمعسكر، حيث أشار إلى اسمه" أحمد بن محمد بن حج أحسين بن صارمشيق التلمساني" وكأن هذه العائلة الفنانة لا يفوتها الإشارة إلى اسمها ليبقى شاهدا عليها.

أما في ما يخص غرفة الضريح، فهي تتبع المخططات أو التصميمات المتبعة في المشرق والمغرب وهي عبارة عن غرفة ذات مخطط مربع الشكل تقريبا، يبلغ طولها 6,50 م وعرضها 6,30 م، وندخل إليها من الصحن، وتعلو هذه الغرفة قبة[3].

والمهم أن غرفة الضريح، تبرز لنا نماذج رائعة من حيث التناسق في الأشكال، والإبداع في النحوت، زيادة على كونها الغرفة المقدسة أين يرقد جثمان الولي سيدي أبي مدين . حنيات معقودة بعقد مخموس تحتل الجدران الداخلية الأربعة لقاعة الدفن، وهذه الحنيات مفتوحة في أجزائها العلوية بشمسيات، تنتهي بقوس مزدوجة ومزينة بشبكة هندسية من الجص، في حين تحتل شبكة من الزخارف الجصية الهندسية، جدران الحنايا(يحيط بالحنايا الجدارية لضريح سيدي أبي مدين شريط كتابي، سوف يرد نصه في آخر الوصف المعماري للضريح).

وفي مستوى أعلى توجد نوافذ أصغر حجما، معقودة بعقد نصف دائري تدخل الضوء عن طريق زجاجيات ملونة تخفف الضوء، وتجعل انعكاسه خفيف على العين[4].

ولعل هذه ميزة فعلية في الأضرحة، فخفوت الضوء وانتشار الظلام، سمة نلاحظها على جميع الأضرحة وهذا ربما من اجل إضفاء طابع الهيبة والقدسية على المكان.

1- William et George Marçais les monuments …, p234.
2 - Ch Brosslard, opcit (N°4), p88.
3 - Barges : La vie de cidi…., PXXXI-XXXII
4 - Ch.Brosselard (opcit N4),p84-85.

يحيط بجدران غرفة الدفن المربعة شريط قرآني مكتوب بالخط المغربي، سوف يرد نصه في نهاية الوصف المعماري كما تعلو هذه الكتابة أربع أنصاف قباب متقاطعة، يختلف عن تعارض ضلوعها جوافات مثلثة تمكن من الانتقال من المربع إلى المضلع، وتحتل غرفة الدفن تحلية جصية وهي عبارة عن معينات مزخرفة، تحتلها زخرفة كتابية، وهندسية ،بالتناوب أما الزخرفة الكتابية، فهي عبارة عن كلمتي:" له الملك" وتظهر هاتان الكلمتان أيضا في معينات موازية معكوسة.

القبة التي تغطي هذه الغرفة قبة نصف كروية، قطرها 30, 4م وترتكز على 12 لوحة مزينة بأربعة وعشرين عقدا نصف دائري، منها تنطلق سلسلة تشبيكات هندسية تنتهي بنجمة ذات أربعة وعشرين رأسا[1] . والنجمة ذات الأربع و العشرين رأسا، التي تحتل المركز أو الوسط، هي ميزة من مميزات الزخرفة في الحقبة المرينية، التفريعات النباتية التي تكون زخرفة القبة تحدد أربع وعشرين أنصاف مغازل(تتسع ثم تضيق)، محلات بزخرفة نباتية ترتكز على أربعا وعشرين عقدا حذويا مزين بغصينات ومراوح نخلية[2] (أنظر الشكل رقم 08) .

وقد استعملت في زخرفة هذه القبة ألوان متعددة، فهي مزينة بمضلعات مطلية (مدهونة) بألوان مختلفة: المضلعات الكبيرة مزينة بنماذج ذات اللون الوردي، والأبيض والأحمر، والأصفر، والبرتقالي، والأزرق، والأخضر، زخارف زجاجية البعض منها، زرقاء وخضراء فاتحة اللون وحمراء يظهر أنها ملونة في كتلها، أما الأخرى فلونها أقل ضياء، برتقالي وأحمر داكن، استعملا في النوافذ[3] .

أما من الخارج فتتميز القبة، بسقف ذو أربعة أرداف هرمي الشكل مغطى بقرميد أخضر. تقوم ألواح خشبية على ارتفاع مترين، بتقسيم قاعة الدفن عرضيا إلى قسمين، تنطلق هذه الألواح من جهة النصف الجنوبي إلى الشمالي، مقسمة المبنى إلى مقصورتين متساويتين تقريبا، هذه الألواح المحلات بنقوش ذات الطابع الجنائزي، تكبر وتصغر في

---

[1] - William et George Marçais : Les monuments …,p232-234.
[2]- Rachid Bourouiba : lArtReligieux…, p279.
[3] - William et George Marçais : Ibid, p 234.

الوسط على شكل قوس قوطية، في أسفل الإفريز سواء في الجوانب العلوية أو السفلية يتمركز قضيب معلق عليه حوالي عشرين من بيض النعام على شكل تحلية وكذلك باقات قرنفل الهند[1] .

أما وراء الغرفة فترتفع بعظمة تسعة أعلام من الحرير، ذات اللون الأخضر والأحمر، إلى جانبها تحلية عبارة عن زخرفة ذهبية تمثل عمامة، على جزء اللوح الذي يرتفع على شكل قوس قوطية، نرى ورقة كبيرة مربعة مسطر عليها بالعربية بمداد متعدد الألوان الكتابة التالية:

لا إله إلا الله، محمد رسول الله،

عبد ربه العربي النصر

أعانه الله

وبجانب هذه الكاتبة نرى واحدة أخرى أقل حجما ومكتوبة بالمداد الأسود:

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله[2].

وأمام هذه النقوش الخشبية يوجد قدح معلق بواسطة سلك حديدي، يستعمل كالفانوس أو الثريا. تكسو البلاطات الخزفية أسفل جدران المقصورة الأولى، حتى ارتفاع المترين، تتكون من مربعات يبلغ طول ضلعها 0,13م البعض منها مزينة باللونين الأزرق على الأبيض المائي إلى الوردي، أما الأخرى فمزينة بألوان متعددة أين يتمازج الأزرق والبنفسجي المنغنيزي والأخضر النحاسي والأصفر، وهي من مميزات البلاطات الخزفية المصنوعة بإيطاليا[3]، وقد اختفت هذه البلاطات تماما من جدران الضريح، أما أرضية هذه الغرفة فمبلطة بمربعات من البلاطات الخزفية ومغطاة بزرابي غنية.

ندخل إلى المقصورة الثانية بواسطة باب خشبي ذو عقد نصف دائري، يتوسط اللوح الخشبي (وتعتبر هذه المقصورة هي الجزء المقدس من المبنى) حيث يرقد منذ سبعمائة عام

---

1 - Barges :La vie de ...,PXXXI,PXXXII.

2 - Barges :La vie de ...,P XXXII.

3 - William et George Marçais : Les monuments ..., p234.

سيدي أبي مدين، في ضريح يأتي المسلمون لزيارته من كل أنحاء العالم[1]، لنجد التابوت الخشبي الذي ينتصب بعظمة وهيبة لا متناهيتين، وهو مكسو" بسجاد دمشقي" أحمر رائعا يتدلى حتى الأرض.و لاكن هذا التابوت الرائع، قد اختفى بعد تعرض الضريح للحريق ونقدم هنا صورة حيّة،نرى من خلالها قبر الولي(أنظر اللوحة رقم14)

وقد كان من عادة الحجاج العائدين والأغنياء والفقراء إثراء الضريح بأقمشة حريرية وسجاجيد رائعة كدليل على حبهم للولي وامتنانهم له.

أزهار يابسة وذابلة مرشوشة ومبعثرة فوق كل جوانب التابوت، أما في أعلى النعش فقد علق فانوس من الحديد الأبيض (Fer Blanc) تحلية بسيطة تميز صنعه وهذا يتناقض مع غنى السجاد والأعلام الرائعة من الحرير ذات الألوان الإسلامية، التي تنتصب بجانب الضريح[2].

في أقصى المدفن تستند على الجدار مرآة متوسطة الحجم، رفقة شمعتان ذات اللون الأبيض تتدليان من المسمار المعلقتان عليه ويضاء هذا الجانب من المبنى بمنور يوجد في وسط الحائط الشرقي[3].

ويجب الإشارة إلى وجود محراب صغير يقابل التابوت وهذا حسب ما روي لنا ولكننا لم نشاهده بأعيننا وبجوار ضريح أبي مدين وتابوته، ينتصب سيدي عبد السلام التونسي[*] رحمه الله، وهو يزار بعد أبي مدين رضي الله عنه.

وبالقرب من هذين القبرين في الروضة دفن السعيد الموحدي، بأمر من يغمراسن وقد سبق الحديث عن هذا في سياق حديثنا عن الضريح، ولابد من الإشارة إلى وجود قبور كثيرة،شخصيات استحقت أن تدفن بجانب ضريح الأندلسي سيدي أبي مدين، ملوك وعلماء، دراويش موجودون جنبا إلى جنب[4] .

---

1 - Barges :La vie de …,PXXXI,PXXXII.

2 - Barges :,La vie de …,PXXXI, PXXXII.

3 - Barges: Ibid, …,PXXXIII

* – عبد السلام التونسي عالم زاهد لا تأخذه في الحق لومة لائم يلتبس بالصوف ويأكل الشعير من حرث يده إلى أن مات رحمه الله قبل سنة تسع وثمانين وخمسمائة 589هـ– 1143م(عبد الحميد حميدو: المرجع السابق،ص 36).

4 - Barges :ibid …,PXXX, PXXXI

ولعلنا لن نغادر الضريح، دون أن نقدم هذه الكتابة الأخيرة، التي توجد في المدفن على بعد خطوات إلى الأمام من تابوت أبي مدين، حجر متواضع ، ذو الشكل البيضوي والذي كتب عليه بفواصل غير متساوية، ودون احترام كبير للخط المستقيم، حروف مغربية غائرة في شاهد القبر(وسوف يرد نص الكتابة ضمن الزخرفة الكتابية).

وتجدر الإشارة إلى أن عددا من الوجهاء والشخصيات في الدولة، فضلت الدفن بجوار أضرحة الأولياء الصالحين " نذكر من بين الأضرحة التي استقبلت عددا من الشخصيات ضريح سيدي أبي مدين، وسيدي عباد بالعباد العلوي[1].

في النهاية نود أن نشير إلى أن ضريح سيدي أبي مدين، تعرض لحريق تعسفي في شهر نوفمبر من سنة 1994 ، قضى على جل معالمه وقد أوردنا صورا حية عن مخلفات هذا الحريق ومدى أثره البالغ على جل العناصر المعمارية، إذ أن هذه الألواح الخشبية لم يبقى لها أي أثر كما نود أن نشير إلى أن الضريح يعرف في الأشهر الأخيرة عملية ترميم وإصلاح، سوف تعيد إليه ولو القليل من معالمه الجميلة والأصلية، وهي مبادرة حسنة وإلتفاتة طيبة من السلطات المعنية، أتمنى أن تعم كل الأضرحة.

ب- الزخرفة الكتابية:

* يوجد في الجهة الجنوبية الشرقية للصحن باب يؤدي إلى قاعة الدفن، ويحمل باب قاعة دفن ضريح سيدي أبي مدين الكتابات الأثرية التالية:

1) في السطر العمودي الخارجي الأيمن: الحمد لله أمر بتنميق هذه
2) في السطر الأفقي الأعلى: الروضة المباركة المشتملة على ضريح
3) السطر العمودي الخارجي الأيسر: الشيخ سيدي أبي مدين أدركنا الله برضاه
4) السطر العمودي الداخلي الأيمن: الأمير عبد الله
5) السطر الأفقي الأسفل: السيد محمد باي أيده الله ونصر وجعل
6) السطر العمودي الداخلي الأيسر: الجنة مترله عام ثمانية ومئتين وألف

---

[1]- سيدي محمد النقادي: التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالته الاجتماعية، رسالة لنيل درجة ماجستير معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، أسنة 1991، ص 173.

7) الإطار المربع الأعلى يمينا: أنظر إلى الدر الأنيق

8) الإطار المربع الأعلى يسارا: تراه في جيد شريف

9) الإطار المربع الأسفل يمينا: نظمه فتى عشيق

10) الإطار المربع الأسفل يسارا: الهاشمي بن صرمشيق

ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى سنة 1793/1208 م وتحمل اسم" محمد باي وهران"(*) (1193-1779 – 1213/1798)[1].

- ونورد هنا أيضا نص الإطار الكتابي للحنية الجنوبية بضريح سيدي أبي مدين.
- الجدار الجنوبي الجامة اليمنى استطعنا أن نستقرأ كتابة بالخط الكوفي نصها:

﴿ أَعوذُ باللّهِ مِنَ الشَيْطَانِ الرَّجِيم ﴾

- الجدار الجنوبي الجامة الأفقية العليا:

﴿ قُل هُوَ اللّهُ أَحدْ اللّهُ الصَمَدْ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدْ ﴾

- الجدار الجنوبي الجامة اليسرى:

﴿ قُل هُوَ اللّهُ أَحدْ اللّهُ الصَمَدْ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدْ

كما استطعنا أن نقرأ نص الحنية المقابلة للمدخل وهو نفسه النص القرآني الموجود بالحنية السابقة أي صورة الإخلاص وأغلب الظن أن الحنية الثالثة تحمل نفس النص القرآني وقد استحال علينا قراءتها نظرا لعملية الترميم.

- هذا نص الشريط القرآني المحيط بالجدران الأربعة لقاعة الدفن:

---

* – محمد باي وهران: محمد باي ابن عثمان باي رحمة الله، أنشأ عدة مبان في عهد ويدل على ذلك الكتابة الموجود في مسجد عين البيضاء بمعسكر: أما بعد أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان السيد " محمد باي بن عثمان".

و في كتابة أخرى نجد: هذا البيان المحبسات السلطان ابن سلطان السيد" محمد باي ابن سيد عثمان " رحمة الله على المجمع الأعظم الكائن في حومة سيدي علي بن محمد الذي أنشأه و شيده مع مدرسة الحايطة و دار الوضوء الغربية منه مع الجبانة المحايدة له أيضا. كما أمر " محمد باي " عملية الترميم التي قام بها صرمشيق في تلمسان. (ينظر Dr : Leclèrc, Inscription Arabes de Mascara : RA, N° 04, P 42-46.).

1 – رشيد بورويبة: الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة " ابراهيم شبوح"، التاريخ و الحضارة2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر SNED 1973- 1399، ص90-91-92.

* الجدار الجنوبي : ﴿ أَعوذُ باللَّه منَ الشَيْطَان الرَّجيم. إنَّ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منَّا الحُسْنَى أُولَئكَ عَنْهَا مُبْعَدُونْ لاَ يَسْمَعُونَ حَسيسَهَا وَهُمْ ﴾

* الجدار الشرقي: ﴿ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالدُونْ لاَ يَحْزُنُهُمْ الفَزَعُ الأَكْبَرْ وَتَتَلَقَّاهُمْ المَلاَئكَةً هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

* الجدار الشمالي : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكتَاب كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهْ وَعْدًا عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعلينَ وَ لَقَدْ ﴾

* الجدار الغربي: " كَتَبْنَا فِي الزَّابُورِ منْ بَعدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لقَوْمٍ عَابدِينْ"[1]

هذا نص الكتابة المتواجدة في قاعة الدفن بضريح سيدي لأبي مدين على بعد خطوات إلى الأمام من تابوت الصالح:

بسم الله الرحمان الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه
و سلم تسليما الحمد له رب العالمين و العاقبة للمتقين قل يا
عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله
يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم يا نفسي لا تقنطي من زلة عظيمة إن الكبار في الغفران كلهم أما بعد
فهذا قبر الفقيه البركة الشريف المنيف المرحوم بكرم الله
تعالى السيد محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن الولي الصالح
البركة السيد الجيلاني بن يحي الحسني قد مات قتيلا قرب
فجر يوم الجمعة في ثاني عشر محرم الحرام فاتح ثلاث و سبعين
و مايتين و ألف.

و يفهم من الكتابة أن هذا القبر لصاحبه آغا محمد بن عبد الله الذي قتل بطريق تلمسان في ليلة 11 إلى 12 سبتمبر 1856. و هذا الرجل من عائلة كان أجدادها من الأولياء فمن أجداده الولي سيدي يحي المعروف بمنطقة أولاد النهار[1].

---

[1]- الآيات 100- 106- من سورة الأنبياء.

ضريح سيدي ابراهيم

1. حياته :

الشيخ العالم الصالح الولي الزاهد أبو إسحاق أحد شيوخ الإمام إبن مرزوق الحفيد ... قال إبن صعد التلمساني في النجم الثاقب كان هذا الولي أحد من أوتي الولاية صبيا وحل من رئاسة العلم والزهد مكانا عليا [1] .

وقد نشأ هذا العارف ✧ بالله محبا للعلم ، متعطشا للإستزادة منه . أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة ، ولد وترعرع فيها ، فلما كبر طلب العلم فأخذ بفاس عن جماعة من العلماء كالشيخ الإمام حامل راية الفقهاء في وقته " موسى العبدوسي ✧ " والشيخ الإمام الشهير " محمد الآبلي ✧ " وقرأ كثيرا على الشيخ الإمام شريف العلماء أبي عبد الله

---

[1] - Ch Brossclad : Opsit N° 4, P91-92.

[1] - إبن مريم : المصدر السابق ،ص 64

✧ - العارف : من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماؤه وأفعاله ، فالمعرفة حال تحدث عن شهود (ينظر للقاشاني : نفس المصدر السابق ، ص 106)

✧ موسى العبدوسي : أبو عمران موسى بن محمد بن معطي العبدوسي وبه عرف الفاسي ، عالمها ومفتيها الإمام الحافظ العلامة كان آية في معرفة المدونة أقرأها نحوا من أربعين سنة و له مجلس لم يكن لغيره يحضره الفقهاء و المدرسون و الصلحاء ، له تآليف منها تقييدان على المدونة و تقييد على الرسالة توفي سنة 776 هـ (ينظر إلى كتاب محمد بن محمد مخلوف ، نفس المصدر السابق ، ص 163) .

✧ الشيخ محمد الآبلي : الإمام العلامة المجمع على إمامته " محمد بن إبراهيم بن محمد العبدري التلمساني " الشهير " بالآبلي " ، قال إبن خلدون أن أصله من الاندلس و من أهل آبلة من بلاد الجوف ... و نشأ بتلمسان في كفالة جده القديم ... بعد حجه رجع إلى تلمسان فقرأ المنطق والأصلين على " أبي موسى بن الإمام " ورحل في آخر السابعة إلى المشرق فدخل مصر والشام والحجاز والعراق ثم قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان ،وكان له عدة تلاميذ مالمقري وإبراهيم بن محمد المصمودي وغيرهم ، توفي بفاس سنة 757 هـ ، وأورد إبن مريم أن مولده كان سنة 681 هـ (ينظر إلى كتاب بن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 214 ، 215 ، 216) .

الشريف التلمساني ✦ ثم إنتقل بعد وفاته لسكنى المدرسة التاشفينية، فقرأ على الشيخ العلامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان سيدي سعيد العقباني [2] .

لقد تفرغ الشيخ للفرائض الدينية، معتزلا في بيته غير منقطع عن طلب العلم [1] ومازال سيدي إبراهيم مقبلا على العلم، والعبادة، والإجتهاد، في طريق المجاهدة آخذا بالغاية القصوى في الورع والزهد والإيثار، مثابرا على البر متبعا طريق السلف ، وكان أحب الناس لمذاكرة أهل العلم لايسمع بكبير في العلم أو بمنفرد إلا إجتمع به وذاكره [2] .

قال إبن صعد نقلا عن جده أبي الفضل عن صفات الشيخ المصمودي وثيابه أنه أبيض اللون طويل القامة، لايلبس سوى الكساء الجيد، ولايجعل على رأسه شيئا أكثر الأوقات وحدثني جماعة من الفضلاء أنه كان في ملازمته للجبل إذا وجد به نوار الربيع أمعن النظر في أنواعه وألوانه وأحكام صنعته فيغلبه الوجد والحال، ويتواجد ويتبختر في كسائه ويقرأ حينئد هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ... توفي عام 805 هـ وحضر جنازته السلطان الواثق ماشيا على قدميه ... ودفن بروضة آل زيان من ملوك تلمسان رحمه الله [3] .

وقد عرف على الشيخ حبه للخلوة * والإعتزال ، وهذا من أجل النهل من العلم وقد كانت له كرامات كثيرة .

✦ – محمد أبو عبد الله الشريف التلمساني : هو الشيخ الفقيه الإمام الصدر العالم الحسيب الأصيل سيدنا الشريف إمام جامع الخراطين إختصر شرح التسهيل لأبي حيان ، كان يدرس المفتاح وبعض التسهيل لإبن مالك ، توفي عام 847 هـ ودفن بباب الجياد (ينظر إلى كتاب إبن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 222) .

[2] – إبن مريم : المصدر نفسه ، ص 64 – 65 .

[1] - BARGES Complément de l'histoire ... p 258 – 259 .

[2] – إبن مريم : نفسه ، ص 64 – 65 .

[3] – نفسه ، ص 65 – 66 .

* – الخلوة : " محادثة السر مع الحق بحيث لايرى غيره وهذا حقيقة الخلوة ومعناها وأما صورتها فيه ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله تعالى والإنقطاع عن الغير " (كمال الدين عبد الرزاق القاشاني : نفس المصدر السابق ، ص 161) .

كراماته :

تحدث بعض أصحابه عن كرامته فقالوا، كنا جالسين معه في بيته ليس معنا أحد وهو يقرأ القرآن ويشير بقضيب في يده إلى محل الوقف ضاربا على عادة أشياخ التجويد فقلت في نفس لم يفعل هذا أتراه يقرأ عليه أحد من الجن، فما تم الخاطر حتى قال لي : يا محمد كان بعض الشيوخ يجود عليه الجن القرآن . وذكر لي غير واحد ممن يهدي له طعاما من لبن وغيره وربما رده عليهم فيتفقدون أنفسهم فيجدون موجب الرد إما من شبهة وإما من ضجر أهل البيت أو غيره .وحدثني غير واحد أنه كان خارج البلد في وقت لايدرك باب البلد عادة إلا وقد أغلق ثم يمر به في البلد [1] .

ويورد Barges أن وفاته كانت أواخر حكم السلطان " أبي زيان "، وهكذا إنتهت مسيرته المشرقة .

[1] BARGES Complément de l'histoire … p 258

2. ضريحه :

شيد السلطان أبو حمو موسى الثاني، حسب الكتابات الأثرية الموجودة على العمودين المؤطرين لمدخل جامع سيدي إبراهيم [1] زاوية، و مدرسة ،و مسجدا، سنة 765 هـ/1363 م ضمن مجمع معماري موحد داخل مجموعة من البساتين ولقبت المدرسة **بالمدرسة اليعقوبية**، نسبة لوالده " أبي يعقوب "[✧] و قد كان هذا المبنى الأخير موجودا بجانب مسجد سيدي إبراهيم الحالي .[2]

و لم يبق من هذا المجمع الذي شيده أبو حمو موسى الثاني، سوى المسجد والضريح الذي ينسب إلى سيدي إبراهيم المصمودي، الذي أصبح محل زيارة من طرف المخلصين ، الا أن الإقبال على زيارة هذا الضريح قليل إذا ما قورن بضريح سيدي أبي مدين ، أو سيدي الحلوي مثلا، و ذلك لكونه يقع بمكان منعزل و لا يمكن الدخول إليه إلا من خلال باب المسجد .

و قبل وصفنا للضريح يجب أن نتطرق في البداية **للمسجد** الذي يعتبر الجزء المتبقي مع الضريح من مجموعة ، سيدي إبراهيم نظرا لكون المدرسة اليعقوبية إندثرت و لم يبق منها أي أثر ، مع العلم أن بها دفن الشيخ المصمودي 80 عاما بعد تأسيسها.[3]

يختلف المسجد بعض الشيء عن المساجد الزيانية الأخرى، في مخططه العام ، ذلك أنه بني أثر الإحتلال المريني لتلمسان ، فجاء متأثرا بالتنظيمات التقليدية التي نشاهدها في المساجد المرينية التلمسانية [4] (أنظر الشكل رقم 09)

---

[1] – رشيد بورويبة : الكتابات الأثرية ...، ص 253 .

[✧] – أبو يعقوب : هو أبو يعقوب يوسف إبن عبد الرحمان و والده أبو حمو موسى الثاني ، و أخ السلطان أبي سعيد عثمان الثاني و قد كان جريئا إذ ساهم بقسط وافر في إرساء قواعد حكم إبنه ، فقد حارب الثورة التي قامت في شرق البلاد و قضى عليها و إستطاع بمساعدة " عبد الله بن مسلم " من الزحف نحو الجزائر و تطهيرها من " شعيب بن داور رارا " و غيرهم من بني مرين ... توفي أبو يعقوب بمدينة " الجزائر " و شيعت جنازته بتلمسان و مشى فيها الملك أبو حمو موسى الثاني حزينا و دفنه بجوار أبي سعيد و أبي ثابت (محمد عمرو الطمار : تلمسان عبر العصور ... ص 175)

[2] - WILLIAM et Georges Marçais : Les Monuments ..., p 301 .

[3] - WILLIAM et Georges Marçais: Ibid ..., p 302.

[4] – سيدي محمد الغوتي بسنوسي : نفس المرجع السابق ، ص 276.

ويتألف المسجد من قاعة صلاة ذات خمس بلاطات، و مئذنة على الطراز المغاربي وصحن محاط بأروقة في الجوانب الثلاثة، ذي حوض مستدير و نافورة للوضوء [1]

قاعة الصلاة مستطيلة الشكل يبلغ طولها 19 م و عمقها 15 م، و البلاطات في أقصى اليمين و الشمال مغطاة بقبو متقاطع ، لا تحمل أية زخرفة ... للمسجد سدة بسيطة، أما الصحن فيتكون من حوض مستدير من الرخام يحتوي على نافورة يحملها عمود من المرمر و تاج من الطراز القديم . و قد أشار**Brosselard** إلى أنه إستطاع أن يستقرىء إسم أبو حمو موسى و لكنه لم يبق لنا من هذه الكتابة أي أثر، لتأثير المياه عليها [2]

و لابد من الإشارة إلى أن المسجد يتعرض لعملية ترميم واسعة، فقد تجرد من كل آثار الفن الأصلي القديم، لأنه أصبح يعاني حالة جد متدهورة و كاد أن يسقط بعد أن شهد تاريخا عريقا لمدة تزيد عن الستة قرون.

يقع **الضريح** على تلة أو ربوة على بعد أمتار غرب المسجد، في الناحية الشمالية ويتكون من صحن و غرفة تعلوها قبة (أنظر الشكل رقم 10)، ندخل إليه بواسطة باب معقود بعقد حذوي بسيط يعلوه إطار للباب أما الباب الخشبي فبسيط يبلغ عرضه 1.67م أتت عليه عوامل الزمان فأصبح هشّا، يؤدي هذا الباب إلى الصحن ثم من الصحن إلى قاعة الضريح .

الصحن مربع الشكل طول ضلعه 5.65م، و تحيط بالصحن أروقة من الجوانب الأربعة ترتكز على أعمدة قصيرة بواسطة عقود حذوية، يبلغ إرتفاع الأعمدة 1.15م وقطرها 0.55 سم و حسب ما يبدو فإن هذه الأعمدة البسيطة الأسطوانية من المرمر قد جلبت من آثار المنصورة [3] .

و لكن ما لاحظناه هو تجرد العمودين الأماميين للصحن من تحلية المرمر وأصبحت فقط من الحجر ، و ذلك راجع لعوامل الطبيعية لأن الصحن مكشوف .

---

[1]– محمد بن رمضان شاوش : المرجع السابق ، ص 252 .

[2] – WILLIAM et GEORGES Marçais : Les monuments … p 302 – 304 .

[3] - WILLIAM et GEORGES Marçais : Ibid … p 302 .

و لن نغادر الصحن قبل أن نشير إلى وجود عدد من شواهد القبور منتشرة هنا وهناك و لا تحمل أية كتابة تدل على أصحابها.

ندخل من الصحن إلى قاعة الضريح أو الدفن بواسطة باب يبلغ عرضه 1.27م وإرتفاعه 2.70 م، تكسو الإطار العلوي للباب تحلية نباتية، عبارة عن مراوح نخيلية مرسومة على أرضية تتدرج ألوانها من الأخضر الفاتح، إلى الأخضر الغامق، ثم إلى الأصفر و الأبيض الشفاف، و فتحة الباب معقودة بعقد حذوي (أنظر اللوحة رقم 15).

قاعة الضريح قريبة من المربع طولها 8.30 و عرضها 8.10 ،يقابلك وللوهلة الأولى ضريح الشيخ سيدي إبراهيم المصمودي، و ضريحه يتوسط القاعة وهو عبارة عن قبر بسيط يحتوي على شاهدي قبر يحملان كتابة لم نستطع قراءتها و ذلك راجع لتأثير عامل الرطوبة عليها (أنظر اللوحة رقم 16)

في وسط الجدار المقابل للضريح حنية على هيئة محراب، يبلغ إرتفاعها 3.18م وعرضها 2.42م أما عمقها ف60 سم أما الحنية الجدارية الثانية الموجودة على يسار المدخل فيبلغ عمقها 57 سم (أنظر اللوحة رقم17) في حين يبلغ عمق الحنية الجدارية التي تقع على يمين المدخل 87 سم .

و يحيط بالحنيات شريط كتابي يحمل نصا قرآنيا، (سوف يرد في نهاية الوصف المعماري)

أما الجدران فمحلاة من الأسفل إلى إرتفاع يبلغ حوالي 1.20م بالزليج، وهذا الزليج يتكون من مجموعة من زخارف هندسية، عبارة عن معينات متعددة الألوان من الأبيض والأصفر و الأخضر الداكن، و هذه التشبيكات الهندسية تعطي شكل النجمة ذات الثمانية رؤوس مركزها قطعة دائرية (أنظر اللوحة رقم 18)

تعلو الزليج زخارف جصية متنوعة، تتكون من الأطباق النجمية التي تحتوي في وسطها على زخرفة كتابية أو نباتية متناوبة فيما بينها (أنظر اللوحات 19–0 2 – 21– 22– 23– 24) و يعلو الزخارف الجدارية شريط يحمل زخارف هندسية، وقد صعب علينا أخذ صور لها .

كما نجد في جدار من الجدران الثلاثة نافذتين صغيرتين، ذات عقد نصف دائري عبارة عن شمسيات محلات بزخارف هندسية، متنوعة تقوم بإضاءة و تهوية الضريح (أنظر اللوحة رقم25) كما يلاحظ وجود نافذة مفتوحة في الحنية اليمنى من الضريح ولكنها لم تكن موجودة و أغلب الظن أنها فتحت بطريقة عشوائية في السنين الأخيرة .يتم الإنتقال من المربع إلى المثمن ثم إلى الدائرة بواسطة حنايا ركنية، على شكل نصف قبو متقاطع

و يتخلف عن تعارض ضلوعها جوفات مثلثة، (أنظر الشكل رقم6 2) و مع أن قبة ضريح سيدي إبراهيم، تعتبر النموذج الوحيد الذي وصلنا من الفن بعد إعادة إستقرار الزيانيين من جديد بعد الرحيل النهائي للمرينيين،.[1] إلا أنها أصبحت اليوم تخلو من أي أثر لتكتسيها الجصية الجميلة ، فلقد تأثرت بفعل الرطوبة بالغ الأثر .

أرضية ضريح سيدي إبراهيم مغطات ببلاطات خزفية طمست معالمها، بفعل الرطوبة ولا تظهر شيئا ملفتا للنظر سوى تواجد 4 شواهد قبور بها (أنظر اللوحات رقم27 – 28). و مع أننا نعلم من خلال المصادر أنها بنيت من طرف السلطان أبوحمو موسى الثاني، اكراما لعميه الأميرين أبي سعيد و أبي ثابت، و أبيه الأمير أبي يعقوب[2] إلا أننا لم نستطع تحديد مكان هذه أو الأخرى لإنمحاء الكتابة عليها إلا أننا إستطعنا أن نستقرئ هذه الكتابة من شاهد القبر الموجود على يمين الباب المؤدية لقاعة الضريح وعليها مكتوب:

في السطر الأول : * السلام عليكم * (لم نستطيع فهم الكلمات الأخرى وقراءتها)

في السطر الثاني : * بكم الله *

في السطر الثالث : لم نستطع قراءة الكتابة لأنها غير واضحة تماما .

في السطر الرابع : الكلمة الثانية " الله "

قاعة الضريح مزينة من الخارج بأفاريز من الشرافات ذات السبعة فصوص، و هي مغطات بقبة ذات الثمانية أضلاع .

---

[1] –WILLIAM et GEORGES : Les Monuments ...p309.

[2] – محمد بن رمضان شاوش : المرجع السابق ،ص 252.

- **الزخرفة في ضريح سيدي إبراهيم :**

أما فيما يخص الزخرفة الموجودة بضريح سيدي إبراهيم، فتضم الزخرفة الجصية المتعددة الأشكال مع أنها تظهر فقرا في الأسلوب و تقنية الصنع . الكتابة الأثرية أخذت حيزا أكبر من الكتابة العادية ، أما الخط الكوفي فلا نجده إلا ضمن نماذج تستعمل للتحلية و تأخذ حيزا ضيقا (انظر اللوحات رقم 20 – 21–22–23–24)

أ – الزخرفة الهندسية :

تلعب دورا هاما حيث نجد هنا النموذج الأول و الوحيد الذي تمثله المعالم التلمسانية فيما يخص الزخرفة الهندسية المستعملة في المساحات الكبيرة، والذي يكون الزخرفة الأساسية للتكسية إنه تنظيم من الأطباق النجمية ذات 12 رأسا، فوق مساحة مثلثية و هذا النوع من الزخرفة يلاحظ أيضا في غرناطة و الحمراء (أنظر اللوحة رقم 19).

ب – الزخرفة النباتية :

هي بسيطة جدا إذا إستثنينا المحارة الأسطوانية، و هي تعلو شوكتي الحنية و تتمثل في نجمة تنجم عن تقاطع مربعين، و هي نجمة ذات ثمانية رؤوس و بها نقش بسيط على طراز الأرابيسك (أنظر الشكل رقم 11).

ولعل الزخرفة النباتية لا تحمل سوى المراوح النخيلية البسيطة، وخلاصة القول أن هذه التحلية بمختلف أنواعها تعكس فترة إنحطاط [1] ونحن نقدم صورا لهذه النماذج الهندسية التي تتمازج معها نماذج نباتية جميلة .

ج –الزخرفة الكتابية :

فيما يلي نورد نص الشريط الكتابي الكوفي الذي يحيط بالمستطيلات المحيطة بأطر الحنيات ، يبدأ هذا الشريط الكتابي من الجهة الجنوبية و يستمر إلى الجهات الأخرى ثم ينتهي إلى الجهة الجنوبية كالآتي :

* **الجدار الجنوبي** : الجامة اليمنى : بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

[1] – William et Georges Marçais : Les monuments …p 310 – 311 .

* **الجدار الجنوبي** : الجامة الأفقية العليا :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ

* **الجدار الجنوبي** : الجامة الأفقية اليسرى :

﴿ ايَـعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾

* **الجدار الجنوبي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة السفلية الأفقية اليمنى :

﴿ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة الأفقية العلوية :

﴿ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة العمودية اليسرى :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾.

* **الجدار الشرقي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ ﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة الأفقية اليمنى :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ ﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة الأفقية العلوية :

﴿ وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ ﴾.

* **الجدار الشمالي** : الجامة العمودية اليسرى :

﴿ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ﴾

* **الجدار الشمالي** : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ﴾.

* **الجدار الغربي** : الجامة الأفقية السفلية اليمنى :

﴿ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا ﴾

* **الجدار الشرقي** : الجامة العمودية اليمنى :

﴿ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

الجدار الغربي : الجامة الأفقية العلوية :

﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ ﴾

الجدار الغربي : الجامة العمودية اليسرى :

﴿ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ﴾

الجدار الغربي : الجامة الأفقية السفلية اليسرى :

﴿ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾

الجدار الجنوبي : الجامة السفلية اليمنى :

﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[1]

الجدار الجنوبي : الجامة العمودية اليمنى :

﴿ ... علينا ... الشيطان الرجيم ﴾.

---

[1]_ المصحف الشريف :الآية 109-117 من سورة المائدة

ضريح الشيخ سيدي محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب

(الإمام السنوسي)

1.حياته

ولد الشيخ السنوسي بين سنتي 832 و 838 الهجريتين ، إشتهر نسبة إلى القبيلة المعروفة بالمغرب من قبل أبيه الحسني نسبة إلى الحسن أبي علي إبن أبي طالب رضي الله عنهما من قبل أمه [1] .

وأصل بني سنوس بربري يعود إلى منابت واسينية زناتية ، وبنوسنوس قبيلة تقطن بجبل مسمى " آسنوس " أو " أسنوس " ، الذي يبعد عن مدينة تلمسان بحوالي 40 كلم[2] وعلى هذا الأساس وقعت نسبة كل مقيم بهذه المنطقة إلى جبل أسنوس بحيث يكون إسم الواحد على الشكل التالي سنوسي – سنوساوي – إبن سنوس [2]

والإمام السنوسي فقيه سني، موحد متصوف، كثير التمسك بالسلف الصالح، صاحب كرامات [3]

نشأ فاضلا، خيرا، صالحا، في بيت يعتز بشرف العلم والتقى، وكان والده أبو يعقوب رجلا صالحا وزاهدا، معروفا بخشوعه وبحبه للمعرفة، هذا وله زوجة وذرية اذ ترك بعد موته فتاة وفتى إسمه عبد الله. وقد عاش الشيخ السنوسي في زمن إنتشر فيه الخوف وقطع الطرق واللصوصية، حيث نشأت حينذاك طوائف في صحراء المغرب العربي وانفردت بالحكم السلطة المركزية بتونس وفاس و تلمسان ، و قد شاع التعسف والظلم و التعدي على الأهل ، فقد فوجئ عبد الباسط بن خليل باللصوص يوم حل بمدينة تلمسان عام 868 هـ / 1463 بظهور القطاع من رحلته من فاس إلى تلمسان[4]

---

[1]- إبن مريم : المصدر السابق ص 237 ، 238 .

[2] – عبد المالك بن عبد القادر بن علي ، الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا ، القسم الأول ، مطبعة دار الجزائر دمشق، بدون تاريخ ، ص 07 .

[3] – أبو عبد محمد الأنصاري : فهرست الرصاع ، تحقيق وتعليق محمد العنابي ، المكتبة العتيقة (دار الكتاب الوطنية) تونس ، ص 201 .

[4] – الحفناوي (أبو القاسم محمد) : تعريف الخلف برجال السلف ، مطبعة بيير فونتانة الشرقية الجزائر (1325 هـ / 1907 م) ،ج 1 ، ص 67 .

ويقول السنوسي نفسه حول العهد الذي عاش فيه و عن تدهور هذه الفترة الزمنية:

" ما عسى أن يصف الواصف من شرور هذا الوقت و شرور أهله ، و قد أغنى فيه الخبر عن العيان ... و من أراد النجاة بعد تحصيله ما يلزم من العلم أن يعتزل الناس جملة ، و يكون جليسه بيته و يبكي على نفسه ، و يدعو دعاء الغريق ...[1]

وقد أخذ الإمام السنوسي القراءات السبع عن أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس أحمد بن محمد الشريف الحسني، و أخذ عن الحباك* علم الإسطرلاب و أخذ الأصول والمنطق والبيان والفقه ، كما قرأ على أخيه لأمه علي بن محمد التالوتي الأنصاري*

وعن الولي الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان المزيلي الراشدي* و كان يحبه ويدعو له فحقق الله فراسته و دعوته فيه ...[2]

وقد أخذ عن السنوسي، إبراهيم التازي نزيل وهران، ألبسه الخرقة و روى عنه أشياء كثيرة . و قد جمع تلميذ السنوسي أبو عبد الله الملالي في أحواله و سيره وفوائده تأليفا كبيرا فيه نحو ستة عشر كراسا سماه بالمواهب القدسية في المناقب السنوسية .قال فأما

---

[1] – السنوسي : شرح العقيدة الوسطى،ط1 مطبعة التقدم الوطنية،تونس وبدون تاريخ، ص 5-6 .

* الحباك : " ... أحد شيوخ السنوسي قرأ عليه على ما قاله تلميذه الملالي كثيرا من علوم الإسطرلاب و شرح أرجوزته فيه المسماة بغية الطلاب في علم الإسطرلاب... وله شرح تلخيص إبن البناء و نظم رسالة الصفار في الإسطرلاب و توفي كما قال الونشريسي سنة 867 هـ و له أيضا شرح على التلمسانية في الفرائض (أنظر إبن مريم : البستان ... ص 219 – 220

* علي إبن محمد التلوتي الأنصاري ... الشيخ الفقيه المتقن العالم ... كان حافظا متقنا ، يحفظ كتاب إبن الحاجب و يستحضره بين عينيه ..

قرأ عليه أخوه محمد السنوسي في صغره ... و كان من أكابر تلاميذه الحسن أبركان ... و ما رأيناه إلا ذاكرا أو قارئا القرآن أو مشتغلا بالمطالعة ... توفي في صفر عام 895 و قد كان أخوه الشيخ السنوسي رأى في منامه قبل موته دارا عظيمة ملئت بالفرش المرتفعة فقيل له أنها لأخيك علي يدخل فيها عروسا (أنظر إبن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 139 – 140 – 141)

* أبو علي إبن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي الشهير بأبركان (معناها الأسود بالبربرية) كان مستقره بقرية الجمعة مقر أسلافه و هو أحد الفقهاء العالمين ، عرف بالصلاح و الخيرية ، أخذ عن إبراهيم المصمودي و الحفيد إبن مرزوق و أخذ عنه أبو عبد الله التنسي ، التالوتي و السنوسي و أثنى عليه القلصادي ...كانت وفاته سنة 857 ... كان يدأب على ذكر الله ... و كان السلطان يعظمه و يقبل يده و هو إلى كل ذلك من الزاهدين (أنظر محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ص 262 و أبو عبد الله محمد الأنصاري : فهرست الرصاع ... ص 44)

[2] إبن مريم :المصدر السابق ، ص 228.

علومه الظاهرة فله فيها أوفر نصيب و جمع من فروعها وأصولها السهم ... لا يتحدث في علم إلا ظن سامعه أنه لا يحسن غيره لاسيما علم التوحيد والمعقول، شارك غيره في العلوم الظاهرة و إنفرد بالعلوم الباطنة [1]

و لعل جوانب حياة السنوسي متشعبة متعددة المناحي، ولكننا سنحاول عرضها بوضوح و إيجاز .

[1] ابن مريم : المصدر نفسه ، ص 228 – 229 .

أ – أخلاق السنوسي :

لقد أشاد المترجمون للشيخ ، فضلا عن شيوخه و تلامذته بسمو أخلاقه و طيبته ، فقد كان من شيمه الوفاء و التواضع و الحياء ، بوجه أخص لأنه أم الفضائل عنده، وكان يكره أن يكاتب الأمراء ، و إذا حدث له أن كاتبهم فذلك إستجابة لحيائه ، لقد كان السنوسي حليما ، كثير الصبر ، ربما يسمع ما يكره فيتعامى عنه و لا يؤثر فيه بل يقابل ذلك بوجه بشوش تعلوه الإبتسامة ... و كان كثير الوفاء كثير التواضع فكان لا يرفع صوته بل يعتدل فيه [1]

و من بين كراماته الكثيرة ما يذكر أن رجلا إشترى لحما من السوق فسمع الإقامة في المسجد فدخل و اللحم في قبه فخاف من طرحه فوات ركعة وكبر كذلك فلما سلم ذهب لداره فطبخت أهله اللحم فبقي إلى صلاة العشاء فأرادوا طرح اللحم فإذا هو بدمه لم يتغير عن حاله حين وضعوه فتذكر الرجل فذهب إلى الشيخ فأعلمه فقال له يا بني أرجو الله تعالى أن كل من صلى ورائي لا تعدو عليه النار ولعل هذا اللحم كان معك حين صليت معي و لكن أكتم ذلك ...[2]

و من تآليفه : العقيدة الصغرى ، و شرح مشكلات البخاري في كراسين ومختصر الزركشي على البخاري و مختصر حاشية التفتزاني على الكشاف و شرح مقدمات الجبر و المقابلة لإبن الياسمين و شرح جمل الخونجي في المنطق و شرح مختصر إبن عرفة و مختصر في القراءات السبع ..[3]

---

[1]– ابن مريم : المصدر السابق ، ص 241 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 244 – 245 .

[3]– نفسه : ص 246 – 247

2.ضريح السنوسي

تقع روضة* السنوسي التي تحوي قبره في الجهة الشمالية الشرقية من المقبرة لمدينة تلمسان و هي المقبرة التي تنسب إليه ، وقد كانت تسمى من قبل بمقبرة " عين وانزوتة " أو مقبرة العباد السفلي وهي على بعد حوالي 600 متر من ضريح سيدي أبي مدين .

و قد أقام السلطان أبو عبد الله محمد الملقب بالثابتي* هذا الضريح ، الذي يرقب كل المقبرة و يحمل إسم السنوسي منذ 1490 [1]

تقدر مساحة روضة السنوسي المسيجة بجدار بحوالي 180 م^2 شكلها شبه منحرف تقع قاعدته الكبرى بإتجاه الشمال الغربي و يشوبها إنحراف في الحائط نحو الشمال الشرقي على مستوى الزاوية الشمالية سببه إختلاف في مستويات سطح ربوة الروضة نفسها ، و يتميز هذا الحائط عن حيطانها الأخرى بتقوسه قليلا على مستوى القبة ، وكذلك على مستوى الزاوية الغربية كما يدل الحزام المار بوسط الحائط المسيج للروضة ،على أن هذا الحائط قد بني مرتين في فترتين زمانيتين مختلفتين أولاهما قبل الإستقلال و أخراهما بعد الإستقلال [2]

قبل الإستقلال لم يكن يزد إرتفاع الحائط عن المتر الواحد ، ثم بعد هذه الفترة وقع تمديد إرتفاعه بحيث وصل علوه العام إلى المترين ، يتكون الجدار المسيج للروضة من :

أ – الترب المكشوفة

ب– الضريح .

---

* – الروضة : إن روضة لغة هي الأرض المخضرة لإنتشار الماء فيها و لوجود شتى النباتات و هي في الإستعمال الديني ، الحديقة أو الجنة ... كما أن روضة الجنة هي أطيب بقعة فيها أو هي البقعة الشريفة من الجنة (أنظر الزمخشري ، تفسير الكشاف ، تحقيق محمد مرسي عامر ، ط2 في ستة أجزاء ،دار المصحف ، القاهرة 1397 هـ / 1977 م ، ج5 ، ص5) .

*– أبو عبد الله محمد الثالث المعروف بالثابتي المعروف نسبة إلى جده ثابت ، وقد أخذ زمام الحكم عام 902 هـ / 1496 م و قد كان فطنا ذكيا حسن التدبير ... زاد ما بين سنتي 904 – 906 هـ في احباس " أبي مدين " ما قيمته مائة دينار ، توفي سنة 909 هـ / 1503 م (أنظر إلى محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ...ص217 و Opcit Mohamed Benblal) ص 251 .)

[1] - Mohamed Benblal : Opcit , p251 .

[2]– جمال الدين بوكلي حسن : إبن يوسف السنوسي ... ، ص24 .

1- أما القسم الأول و هوالقسم الشمالي الشرقي فتقدر مساحته بحوالي 2.65م^2 وهو القسم الذي ينفرد بمدخل الروضة وهو مدخل يصل عمقه إلى 1.10 م وعلوه 2.10م وتزدان عتبته بعقد نصف دائري يصل علوه إلى 1.75م و عرضه 1.05م و هو عقد خال من كل الزخارف ... كما توجد في نهاية المدخل درجتان نصعد عن طريقهما إلى السطح الحالي للروضة، فيقابلنا على الأقصى باب الضريح ومدخل غير مسقف يؤدي بنا إلى المصلى و المحراب و كلاهما يشكل القسم الثاني من التربة المكشوفة .

2- القسم الثاني هو القسم الجنوبي الشرقي ، تقدر مساحته ب 2.22 م^2 والذي يحتوي على محراب وجدارين مما بقي واقفا من المصلى ولابد من الإشارة إلى أن الرغبة في الدفن بالقرب من الضريح دفعت الناس إلى الإقتطاع التدريجي من هذا القسم حتى وقع الدفن بالمحراب نفسه مما زاد من إرتفاع مستوى أرضيته ...

3- القسم الثالث وهو القسم الجنوبي الغربي وهو أوسط أقسام الروضة وأكثرها أشجارا تقدر مساحته المستطيلة ب 2.57 م^2 و تضللها أربع أشجار [1]

الضريح :

ندخل إلى ضريح الشيخ السنوسي (انظر الشكل رقم12) بواسطة مدخل معقود بعقد حذوي مفتوح بالجدار الشمالي للضريح ويقدر عرضه ب 91 سم وعلوه ب 180سم وعقد المدخل خال من الزخارف ولعل إرتفاع الباب البسيط والذي يوجب على الداخل إلى الضريح الإنحناء، دافع قوي للاضفاء من الإحترام و إجبار الزائر على تقدير الولي وقد كان الباب المؤدي إلى المدخل بابا خشبيا حسب ما يروي زوار الضريح في الماضي إلا أن ما لاحظناه هو عبارة عن باب حديدي حديث الصنع وهو باب ذو مصراعين خال من الزخارف .حينما ندخل إلى داخل الضريح نجد أربعة حنيات جدارية يبلغ طولها 3.85م وعرضها 2.85م وعمقها 20سم ويزين كل واحدة منها عقد مدبب ويوجد بالحنية الجنوبية الشرقية ثلاث فتحات : خزانة ، نافذة و فتحة للتهوئة و الإضاءة (أنظر اللوحة رقم 30).

[1]- جمال الدين بوكلي حسن : المرجع السابق ، ص 25 .

- الخزانة عبارة عن تجويف مستطيل الشكل، (74 × 67 سم) و بها باب خشبي ذو مصراعين وهي في متناول يد الزوار وإن كنا نجهل الغرض من وجودها في حين توجد خزانتين في الحنيتين الجداريتين الأخرتين.

–أما النافذة فإنها تتوسط العقد وتعلو الخزانة وينفرد بها الجدار الغربي الشمالي وذلك لشكلها الشبه المنحرف إذ في قاعدته السفلى 68 سم أما قاعدته العليا فهي على هيئة عقد منحن ويظهر التأثير العثماني وأغلب الظن أنها كانت تستعمل لحفظ الكتب .

– تعلوالفتحة النافذة وهي مستطيلة الشكل (45 × 67 سم) وبها باب خشبي يمكن فتحه وغلقه.

–وعلى مستوى منطقة إنتقال القبة نجد ثلاث فتحات تعمل على تهوئة الضريح ، كما يتمكن بواسطتها دخان الشموع و البخور الخروج من الضريح ، ويتم الإنتقال من المربع إلى المضلع بواسطة أربع حنايا ركنية على شكل نصف قبو ، وتعلو الضريح قبة نصف كروية تحتوي على 12 ردفا ، تبلغ مساحة قاعدتها حوالي 2.16 م يغطيها من الخارج سقف هرمي الشكل يبلغ طول ضلع القاعدة المربعة للهرم سبعة أمتار أما إرتفاع الهرم فيصل إلى الثلاثة أمتار [1] و نجد القبة من الخارج مكسوة بالقرميد الأخضر تنتهي بقضيب معدني تعلوه تفاحة و هلال نحاسيان(أنظر اللوحة رقم29.)

و قد أورد الأستاذ بوكلي حسن في رسالته تفاصيل زخرفة قبة السنوسي الا أنه قد تعذر علينا ذلك نظرا للون الأحمر الداكن الذي دهنت به كل الزخرفة حتى أصبح مستحيلا علينا تحديد تفاصيلها، ولعل هذا راجع لعمليات الترميم الخاطئة التي تعرض لها الضريح .

و زينت القبة في نصفها الأسفل ببوائك صماء عددها يساوي عدد الأضلاع، (12) رفعت أقواس هذه البوائك على أعمدة جصية بتيجان خالية من الزخارف، أما الفواصل الموجودة بين الأقواس والمتمثلة في الطبلة والبنيقة فهي مزدانة بتوريق جصي خفيف وأنيق

[1] - جمال الدين بوكلي حسن : المرجع السابق ، ص 25 .

وأما حنية العقود فجاءت مفصصة [1] تحتل مركز القبة محارة ذات 16 باتلات (أنظر الشكل رقم13) .

قبر الشيخ السنوسي يعلوه تابوت خشبي طوله 217 سم وعرضه 80 سم، وإرتفاعه 110 سم و قد تم وضع هذا التابوت الخشبي مؤخرا، من أجل تمييز ضريح السنوسي على الآخرين لأن ضريحه يحوي العديد من شواهد القبور .

ويغلب على التابوت اللون البني وتوجد به بعض الزهرات المحزوزة و المطلية بالأخضر كما يحتوي على بعض الرسوم الهندسية ،و هو مغطى برداء أخضر(أنظر اللوحة رقم 30).

وقد حاولنا قراءة شاهدتي قبر الشيخ السنوسي إلا أننا لم نستطع،نظرا لإنمحاء الكتابة بفعل الرطوبة الشديدة التي أثرت بالغ الأثر على الشواهد وسنورد ما قدمه Brosse lard :

الحمد لله هذا قبر الشيخ العالم الولي الصالح سيدي محمد بن سيدي يوسف السنوسي توفي رحمه الله في شهر جمادى الثاني من عام خمسة و تسعين و ثمانمائة

أما في الشاهد المقابل فنجد هذه السورة من القرآن الكريم و هي الآية 88 من سورة القرآن .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم *** كل شيء هالك إلا وجهه

له الحكم و إليه ترجعون

كما يورد Brosselard هذه الكتابة الموجودة في شاهدة قبر أخ السنوسي لأمه علي التالوتي :

الحمد لله هذا قبر الشيخ الفقيه العالم العامل

الصالح علي بن محمد التالوتي الأنصاري

توفي رحمه الله في ليلة الثلاثاء خامس صفر عام خمسة و تسعين وثمانماية [1]

---

[1] جمال الدين بوكلي حسن : المرجع نفسه : ص28 .

[1] - Ch Brosselard : Inscriptions arabes de Tlemcen , tombeau du CID Mohamed Es-Senouci et de son frère CID Ali Et-Tallouti , in la revue Africaine n 28 Année 1861 , p 247 – 248 .

أما أرضية ضريح سيدي السنوسي بها نماذج من الزليج به أشكال و مقاسات مختلفة و أغلب الظن أنه يرجع إلى العهد العثماني وهو عبارة عن بلاطة مربعة الشكل طول ضلعها 15سم ويغلب عليها اللون الأصفر والأبيض والأخضر ولعل إختلاف الألوان والأشكال في أرضية الضريح يدل دائما على البصمات المتعددة للترميم المتعدد والخاطئ في أغلب الأحيان .

وقد أحصينا 12 شاهدا ضمن ضريح الشيخ السنوسي ، على يمينه أخوه من أمه علي التالوتي .

الا أننا لم نجد أثرا لبعض هذه الشخصيات وأغلب الظن أنه قد تم الدفن فوقها وتعويض شواهدها بشواهد أخرى. و فيما يلي سنقدم بعض الشواهد المقروءة في ضريح السنوسي.

على يسار الشيخ السنـــوسي شاهد قبر من الرخام.

هذا ضريح المرحوم الفقيه العلامة قاضي الحق

والعدل السيد البشير بن المفتي السيد حمو إبن رسطان

توفي رحمه الله يوم الجمعة 12 من ربيع الثاني 1339

ودفن رحمة الله عليه على أبيه العلامة الفقيه إبن رسطان

السلام الذي قضي يوم 22 من شوال سنة 1280 و الشاب

السيد مصطفى الحاج أحمد إبن رسطان

المتوفي يوم 27 من شهر ذي القعدة سنة 1303

تغمدهم الله بالرحمة و أسكنهم الجنة بجاه خير

البرية كتبها عبد ربه مالطي محمد بن محي الدين

ثم بجانب الشيخ السنوسي و غير بعيد عنه شاهد قبر من الرخام :

هنا بجوار ولي الله السنوسي قبر العلامة المرحوم

الـــفقـــيه السيد الحـــاج جلول بـــن عبد القـــــادر

بن محمد بن مصطفى جلابي ختمت أنفاســـــــه

الكريمة عند طلوع الفجر من يـــــوم الثـــلاثـــاء

فاتح شهر صفر عام 1335 مـــن الهـــــجـــــرة
النبوية و في الشميس برج القوس قطعت مـــنـــه
درجه و سنه يناهز السبعين ربيعا قضى منها نحو
37 في الخطبة و الإفتاء بالجامع الأعظم بمسقط
رأســـه تلمســـان عامـــــله الله بـــالمغـــفـــــرة
و غير بعيد وعلى يسار السنوسي نجد شاهـــد قبر آخر من الرخام
كل من عليها فإن ويبقى وجه ربك ذو الجـــــلال و الإكـــــــرام
هذا ضريح الجليلة فاطمة بنت برسطان بن قادة بـــن الحـــــــاج
محمد بنت الكريمة المرحوم البشير بن حمادي بن جـــلول بـــــن
قلفاط توفيت رحمـــــها الله يوم الأربعاء 11 جمـــادى الثـــانيـــة
عام 1351 الملادية الموافق ليوم 14 أكـــتـــوبر ســـنـــة 1932
يناهز عن سن المائة سنة هنا بجوار الـــولي الصـــالح الموحـــد
الصـــحيـــح الشيـــخ الـــسنوســـي نفـــعـــنـــا الله ببـــركـــتـــه

أما الشاهد الاول على يمين المدخل فهو من مادة التافزة و يحمل ما يلي :

حياة المرء في الدنيا مـــنام و يقظة و لو ذكره الحمام
فعشه في دين ربك مستقيما و مت تحب ربك والسلام
في هدي إلاهي إرحم عبيدا تزود من طاعتك ما يرام

هذا قبر المرحوم السعيد الشهيد السيد بن علي المكثي إبن حمو
إبن العلامة مفتي تلمسان إبن أحمد ولد بن علي إبن رسطان
عن سنه يناهز خمسة و ستين توفي رحمه الله يـــــــوم 14
ربيع الثاني سنة 1328 الموافق ل 20 سنطـــنبـــــر 1929
و إلى جانب هذا الشاهد شاهد آخر من الرخام به ما يلي :

هذا قبر الدر الأنيق صـــــاحب الفضيلة الـــمختـــص بهذا
في النسب الباهر الفقيـــه العـــلامة ســـي محمـــد مصطفى
إبن الحاج عـــلال مفتـــي تـــلمســـان تغمـــده الله برحمـــته
وأسكنـــه فسيـــح جنـــته و قـــد ختـــمت أنـــفاسه الطـــيبة
يـــوم 29 وسنة 1931

على يسار المدخل نقرأ بصعوبة كبيرة ضمن شاهدة من الحجر :
هذا قبـــــر المرحوم بـــــكرم الله الـــــحي القـــيـــــوم
صـــالح ولـــد فـــري مـــحمـــد بـــــن بوعـــياد تـــوفي
رحـــمـــه الله و غـــفـــر لـــه فـــي أواخـــر ربـــيـــع
الثـــاني عام 1996 م

وقد علمنا أن الشيخ القلعي مدفون ضمن الإثنا عشرة ضريحا و لكننا لم نستطيع إيجاد شاهدتي قبره لأن الرطوبة قد أثرت كثيرا على حالة الشواهد فمعظمها غير مقروءة كما أن عملية الدفن تتم بطريقة عشوائية

كما لاحظنا غياب الزخرفة الهندسية و الكتابية ضمن حنيات الضريح و في كل أجزائه.

– لقد كانت السمة الغالبة على هذا الضريح البساطة و التواضع و كأنها كانت إقتداءا ببساطة الرجل و تواضعه : " هذا هو المعلم الذي يناسب السنوسي ، إن تواضعه كان سيترعج من الزخرفة المقبرية المبالغ فيها و التي تسلط على قبور العظماء " [1].

[1] - J. Berque : L'Algerie, Terre D'art et d'histoire, Alger 1937, p 206.

ضريح ابن مرزوق الحفيد

1. حياته :

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني الإمام المشهور و الحجة الحافظ التقي الصالح الزاهد الورع، الولي الصالح العارف بالله الآخذ من كل فن بأوفر نصيب ... حجة الله على خلقه المفتي الشهير السني، الجامع بين المعقول و المنقول و الحقيقة و الشريعة بأوفر محصول [1]

ولد بتلمسان عام 766 هـ / 1364م تحت حكم السلطان أبي حمو موسى الثاني، وقد مضى على طرد المرينيين من تلمسان خمس سنوات و إعادة بسط سلطان مملكة بني عبد الواد ، أخذ العلم عن والده الذي كان مفتيا مشهورا و أمه عائشة إبنة القاضي أحمد الحسن المديوني كانت متعلمة ورعة و قد نمى بن مرزوق في بيئة وجد فيها أمثلة يقتدى بها و إعتنى بتربيته منذ صغره جده و أبوه و أمه [2]

و كان في الفقه حجة إذ يقول ابن مريم :" أما الفقه فهو فيه مالك ... فلو رآه مالك لقال له تقدم فلك العهد و الولاية و تكلم فمنك يسمع فقهي بلا محالة ...

و قد جمع بين معرفة التفسير ... و الإطلاع بحقائق التأويل ، أما زهده وصلاحه فقد سار به الركبان و إتفق على تفضيله وخيرته الثقلان :

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر [3] .

... و قد أخذ الشيخ بن مرزوق الحفيد عن جماعة من المشائخ و المعلمين منهم الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد عبد الله إبن الإمام ، العلم الشريف التلمساني ★

---

[1]- ابن مريم : المصدر السابق ، ص 201 – 202 .

[2] - Rachid Benblal : Tlemcen des saints et des savants , Edition Dar ElGharb , p 184 – 185.

3 - ابن مريم : نفسه : ص 202 – 203 – 204

★- الشريف التلمساني : هو أبو عبد الله محمد بن احمد بن الشريف أصله من قرية العلويين الواقعة في شمال تلمسان و تسمى اليوم قرية عين الحوت، ولد عام 710 هـ /1310م و بها نشأ و درس على علمائها كإبني الإمام و الآبلي ... ألقى العديد من الدروس بالمدرسة اليعقوبية و توفي عام 771 هـ / 1370م (للمزيد أنظر إلى محمد بن رمضان شاوش : نفس المرجع السابق ، ص 426 – 427 ، و البستان ص 222)

و الإمام سعيد العقباني * و الولي أبو إسحاق المصمودي و عن عمه و أبيه إبني الإمام بن مرزوق، و بتونس عن بن عرفة و بفاس عن إبن النحوي و الشيخ أبي زيد المكودي ... وبمصر عن الشيخ سراج الدين البلقيني والحافظ أبي الفضل العراقي ...

وأخذ عن جماعة من السادات كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي، و قاضي الجماعة عمر القلشاني، و الولي الحسن أبركان [1]

قال عنه تلميذه أبو الفرج إبن أبي يحى الشريف التلمساني : " هو شيخنا الإمام العالم العلم جامع أشتات العلوم الشرعية و العقلية حفظا و فهما و تحقيقا راسخ القدم، رافع لواء الإمامة بين الأمم ... ذو الرواية والدراية والعناية ملازما للكتب و السنة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع ... وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن احمد عن بن المرزوق : " إتصلت به فأويت منه إلى ربوة ذات قرار ومعين فقصرت توجهي عليه ... فأنزلني منزلة ولده ... فأفادني من بحار علومه ... فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن و من الحديث صحيح البخاري بقراءته و كذا صحيح مسلم ... و جميع كتاب سيبويه و ألفية إبن مالك و أوائل شرح الإيضاح لإبن أبي الربيع ... وألبسني خرقة التصوف كما ألبسه أبوه و عمه و هما ألبسهما أبوهما جده [2]

... حج قديما سنة 790 رفيقا لابن عرفة و سمع عن البهاء الدماميني و النور العقيلي بمكة و فيها قرأ البخاري على إبن صديق ولازم المحب إبن هشام في العربية ثم حج سنة 819 ... أما تآليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة الأكبر المسمى إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة إستوفى فيه غاية الإستيفاء ضمنه سبعة فنون في كل بيت

---

* السعيد العقباني : أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني التوجيبي التلمساني ولد بتلمسان سنة 720 هـ و توفي سنة 811 هـ و العقباني نسبة لقرية من قرى الأندلس تسمى عقبان ، نسبة لعقاب إسم قرية ، أخذ عن الآبلي ، و عن إبني الإمام ووصفه إبن فرحون بأنه فقيه في مذهب مالك ، وكان يقال له رئيس العلماء و العقلاء و تخرج عليه كثيرون مثل أبي الفضل بن الإمام و الحفيد إبن مرزوق و إبراهيم المصمودي ... تولى القضاء في تلمسان و بجاية و سلا (للمزيد أنظر البستان لمؤلفه إبن مريم ص 106 شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للمؤلف محمد بن محمد مخلوف ، ج1 ص250 و الديباج المذهب لإبن فرحون ص 124 – 125 و كذا فهرست الرصاع لأبي عبد الله محمد الانصاري ، ص115 – 116 .

[1] – ابن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 209 .

[2] – نفسه ، ص 201 – 202 – 203 – 204 – 205 – 206 .

والأوسط والأصغر المسمى بالإستيعاب لما فيها من البيان والأعراب، ومنها المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية، والمفاتيح المرزوقية في إستخراج رموز الخزرجية،

ورزجان في علم الحديث الكبير سماه الروضة، جمع فيه بين ألفيتي بن ليون والعراقي وإختصاره سماه الحديقة، وأرجوزة في الميقات سماه المقنع الشافي في ألف وسبعمائة بيت . و نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين .ومختصره الحاوي في الفتاوى لإبن عبد النور التونسي، ومنها الروض البهيج في مسائل الخليج...

وأرجوزة في إختصار ألفيه إبن مالك وتأليفه في مناقب شيخه الولي إبراهيم المصمودي[1]

توفي الشيخ بن مرزوق الحفيد، يوم الخميس رابع عشر شعبان عام 842 إثنين وأربعين و ثمانمائة و دفن يوم الجمعة بالجامع الأعظم من تلمسان رحمه الله [2]

وقد أنشأ يغمراسن الضريح الذي دفن فيه بوقت قصير بعد وفاة محمد إبن مرزوق[3]

---

[1] – ابن مريم : المصدر السابق ، ص 210 – 211 – 212 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 212 .

[3] - Rachid Benblal : Tlemcen … p 186.

شجرة المرازقة [1]

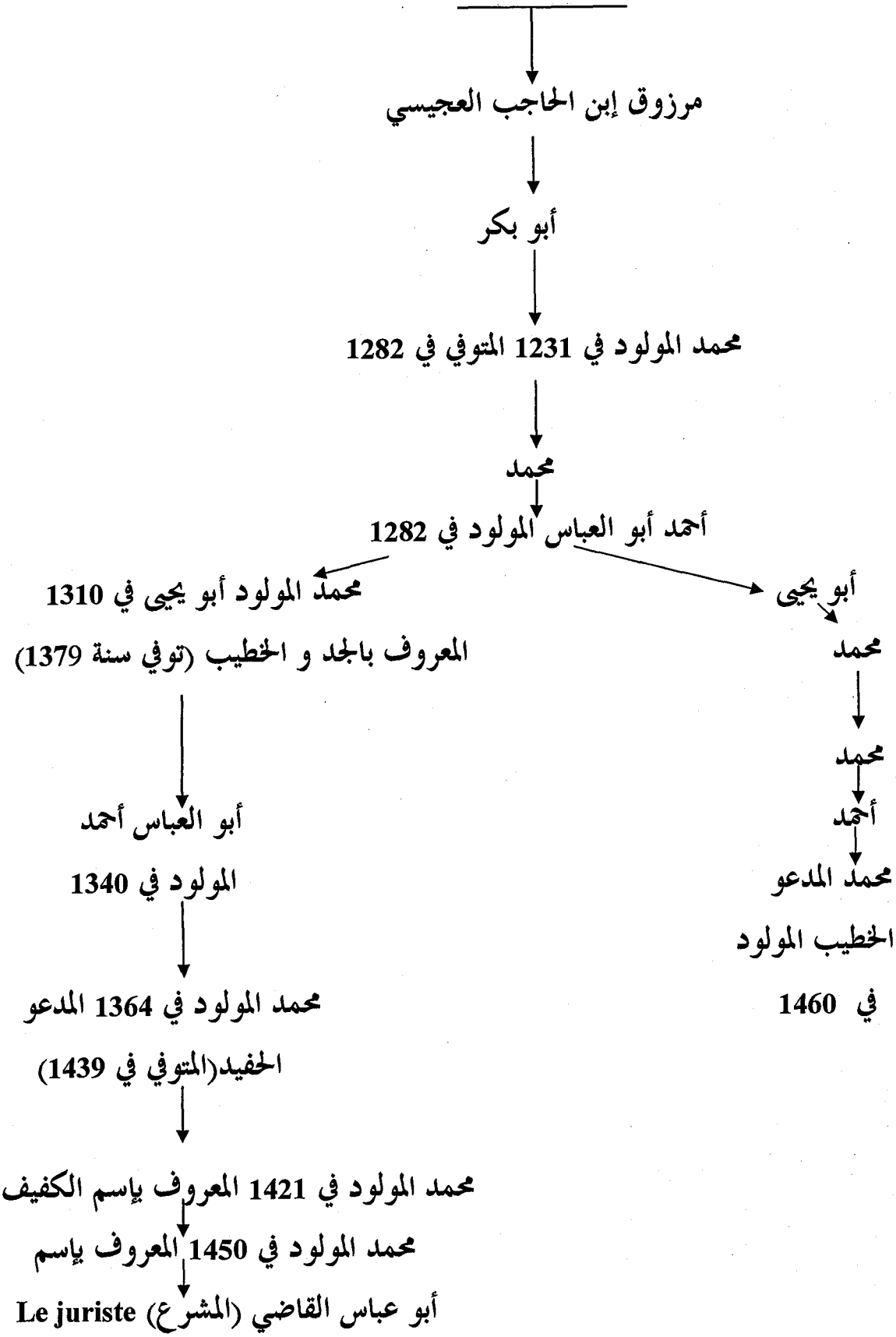

[1] - Rachid Benblal: Opcit , p 186.

2.ضريح الحفيد ابن مرزوق:

يقع ضريح الشيخ الحفيد إبن مرزوق بحذاء المسجد الأعظم بتلمسان، و قد أمر الوالي المرابطي ببناء هذا المسجد الجامع سنة 1070م وهو يقع في قلب المدينة الجديدة " تاقرارت" و قرب الحي التجاري القيسارية (*)و الأسواق الأخرى.

و المسجد عبارة عن مبنى مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب 60 مترا

و عرضه من الشرق إلى الغرب 50 مترا (أنظر الشكل رقم 14) و يتألف المسجد من بيت للصلاة، وصحن مربع تتوسطه فوارتان و تكتنفه من الجهة الغربية مجنبة تتألف من 4 بلاطات، أما المجنبة الشرقية فتتألف من ثلاث بلاطات تعتبر إمتداد لبلاطات بيت الصلاة

و يشتمل المسجد على 12 بلاطة عمودية على جدار القبلة، و تستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم و هذه الصفوف من الدعائم تقسم سطح القاعة إلى 6 أساكيب تمتد من الشرق إلى الغرب. و يلاحظ أنّ العقود تمتاز بفصوص تعطيها رشاقة و حسنا و أخرى على شكل حذوة الفرس. أما البلاطة الوسطى فتزيد في الإتساع عن البلاطات الأخرى على النحو المتبع في مساجد المغرب الأقصى و يقطع سطحها قبات : واحدة منهما تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى أما القبة الثانية فتتقدم المحراب وهي آية من الفن الأندلسي المغربي فهي قائمة على ضلوع متقاطعة يقوم من قاعدة القبة 12 عقدا تعلوه قبّة مقرنصة (1).

كما تنشأ عن تقاطع العقود فراغات مزينة، بتوريقات مفرغة في الجصّ و تتخللها شمسيات صغيرة و هي تذكرنا بنماذج قباب قرطبة.

كما نجد أسفل القبة إفريزا نقش في حفريته العريضة بخط أنيق:

---

*- القيسارية : كانت عبارة عن مدينة صغيرة في وسط تلمسان تحيط بها الأأسوار و كان بداخلها مستودع عام توضع به البضائع قبل أن تعرض للبيع كما كان بها دور و أفران و حمامات و دكاكين و حوانيت و مسجد و كنيسة و دير للرهبان .. (أنظر محمد بن رمضان شاوش، نفس المرجع السابق، ص: 341).

1- محمد بن عمرو الطمار: المرجع السابق، ص: 44-45.

" بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على محمد و على آله و سلم تسليما هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل .... أيد الله أمره و أعز نصره و أدام دولته و كان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتمّ في شهر جمادى الأخير عام ثلاثين و خمسمائة" و الملاحظ أن إسم الأمير الذي أمر بهذا العمل الجليل قد كشط و محي و لكن الذي محى اسم الملك غفل عن محو التاريخ الذي هو 530 هـ و هكذا وقف التاريخ شاهدا على منشء هذا الصرح وهو أمير المسلمين على ابن يوسف بن ثاشفين اللمتوني (*) و أغلب الضن أنّ الأمر بمحو اسم الأمير كان من الموحدين. كما نجد على إفريز آخر قريب من المحراب هذه الكتاب :" بسم الله الرّحمن الرحيم وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ "(1).

و قد نقش هذه الآيات بالخطّ الكوفي، أمّا قبة المحراب فترتكز على قاعدة مثمنة أمّا سقفها فمزخرف بتخاريم كبيرة غاية في الإتقان[2]. و لعلّ إستيلاء الموحدين على تلمسان سنة 1144 م قد منع والي تلمسان من أن يتمّ تزيين هذا المسجد فقام بذلك " يغمراسن بن زيان" (*)، فهو الذي أضاف إلى الجامع القسم الشمالي من مسطح قاعة الصلاة بما في

---

*- على بن يوسف بن ثاشفين: هو ابن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية.... و لعل أهم ما ميّز عهده هو النفوذ الذي بلغه الفقهاء و قد نم في عهده (530 هـ- 1135م) إنشاء المسجد الأعظم. توفي سنة 537 ه. (أنظر إلى كتاب محمد بن عمرو الطمّار : نفسه، ص: 46-49).

1- الآيات 204-205 و 206 من سورة الأعراف.

2- محمد بن رمضان شاوش: المرجع السابق، ص 218-219.

*- يغمراسن بن زيان من قبيلة بني عبد الواد، أصله بربري وهو المؤسس الفعلي للدولة الزيانية، تسلم مقالد الحكم سنة 637 هـ 1240م و قد كان فارغ التنية و المستأثر دون الملوك بلخلال السنية و قد استطاع حكم تلمسان حوالي نصف قرن توفي سنة 681 هـ 1283م (أنظر M.A.Barges. Complément de l'histoire des Béni-zeiyan Rois de Tlemcen ouvrage du Cheikh Mohamed Abdal-Djalil Al Tenessy, Ernest Leroux, 28 rue Bonaparte, 1887, p5-21).

ذلك القبة الثانية و الصحن و المئذنة التي تبلغ إرتفاعها سبعين مترا و اضيف بعد " يغمراسن" خزانتان تضمان كتبا مختلفة" [3].

و للجامع الأعظم بتلمسان ثمانية أبواب ثلاثة منها في القبلة : باب ابن مرزوق: و سمي بهذا الإسم لقربه من ضريحه، و كان فيما قبل يدعى باب المدرسة التاشفينية لقربه من بابها و باب الجنائز، و باب الضحيّة لأن الإمام يذبح به أضحيته يوم العيد، وباب الخرازين و باب دار المساكين، و باب سيدي أحمد بن الحسن الغماري، لأنه يقابل ضريحه، و قد كان للمسجد باب آخر كان يسمى باب سوق الغزل أو باب النساء، لأنهن كن يدخلن منه يوم الجمعة أو العيد لكن هذا الباب حول إلى باب المحكمة الشرعية التي هي جزء من الجامع إنتقص منه في عهد الإحتلال الفرنسي و للمسجد باب واحد في الشمال وهو باب ابن صعد إذ هو يقابل مقامه" [1]

ضريح ابن مرزوق الحفيد:

يقع ضريح ابن مرزوق الحفيد في الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الأعظم بتلمسان، وقد أنشأ يغمراسن ابن زيان الضريح الذي دفن فيه محمد بن مرزوق، عند ما كان يوسّع المسجد و أنشأ المنارة " [2]. (أنظر الشكل رقم 15)

و قد وجدنا بالمتحف البلدي لتلمسان شاهدة جلبت من ضريح ابن مرزوق الحفيد و بها الكتابة الآتية:

شاهدة قبر محمد بن مرزوق.

بها سبعة أسطر من الحجر الرّملي، و كتابة مغربية و في شوكتي الشاهد زخرفة نباتية عبارة عن مراوح نخيلة.

الحمد لله هذا قبر الشاب الأسعد أحمد بن الفقيه العالم الشيخ.

محمد بن مرزوق توفي رحمه الله أول محرم سنة ألف ماية و خمسة.

3- محمد بن عمرو الطمّار : المرجع السابق، ص:45.

1- محمد بن رمضان شاوش : المرجع السابق، ص: 213.

2- Rachid Bourouiba : l'Art Religieux Musulman en Algérie, SNED Alger 1981, p : 195.

يحتوي الضريح على قسمين: الأول ندخل إليه بواسطة الباب الموجود على يسار مدخل الجامع الأعظم، يلغ طوله 1,10 م و عرضه 80 سم معقود بعقد مذبب لنجد فناء وهو عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل طولها 2,62م و عرضها 1,44 م، وهي غير مغطاة بها شجرتان أولاها شجرة ليمون و الثانية شجرة فاكهة (أنظر اللوحة رقم 31).

ندخل إلى قاعة الضريح بواسطة باب عادي غير معقود يبلغ طوله 1,70 م وعرضه 90 سم لنجد بالضريح جزآن الجزء الأول على يسار المدخل، و هو قاعة الدّفن و الجزء على اليمين عبارة عن ممر يخرج من خلال باب آخر إلى جزء من أجزاء المسجد الأعظم .

أمّا على اليسار فنجد ثلاث حنيات جدارية، الأولى تعلو الباب المؤدي إلى قاعة الدفن و يبلغ علوها 2,00 و عرضها 2,30 و عمقها 0,25 سم، الحنية الثانية الموجودة على يمين المدخل و التي تتواجد ضمنها شواهد قبر ابن مرزوق يبلغ طولها 2,25م و عرضها 2,00م، و عمقها 0,25 سم.

الجدار الأيسر للمدخل به حنيتان جداريتان الحنية الكبرى يبلغ طولها 2,25م و عرضها 2,32م، أمّا الحنية الصغرى فيبلغ طولها 2,00 و عرضها 1,47 م. و هتان الحنيتان موجودتان ضمن الجدار الخارجي المطل على القاعة المكشوفة للضريح. ومع أن الجدار المقابل للمدخل لا يحمل حنايا ركنية إلاّ أنه خارج الضريح يمكننا أن نرى حنية جدارية.

كلّ الحنيات معقودة بعقد مذبب، و بها نوافذ فعلى يسار المدخل نجد نافذة يبلغ طولها 40 سم و عرضها 20 سم، معقودة بعقد نصف دائري وفي أسفلها نافذة كبيرة فتحت لإدخال الضوء و الهواء،و بالجدار المقابل للمدخل نجد نافذتان مفتوحتان لإدخال الضوء و الهواء و أخيرا بالجدار الأيمن للضريح نجد نافذة تحتل وسط الحنية يبلغ طولها 76 سم و عرضها 34 سم. و هي معقودة بعقد نصف دائري و تعلوها نافذة مغلقة.

– على يسار المدخل و في إتجاه القبلة نجد محرابا معقود بعقد مذبب و المحراب خال من أية زخرفة و بسيط.

يتم الإنتقال في الضريح من المربع إلى المضلّع، بواسطة حنايا ركينة على شكل نصف قبو متقاطع و يتخالف عن تعارض ضلوعها جوفات مثلثة، ترتكز القبة ذات 8 أضلاع

على أسطوان مربع يبلغ طوله 1,20 م أما إرتفاع القبة و 1,80 م و تظهر القبة من الخارج ذات 8 أرداف.(أنظر اللوحة رقم 31)

وتحتل شوكتي شواهد قبر ابن مرزوق محارة ذات 8 باتلات و بها الكتابة التالية : (أنظر الشكل رقم 32)

بسم الله الرحمن الرحيم:

صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و على آله و صحبه و سلّم تسليما " إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلاً صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ " (1).

1- الآيات 106، 107، 108، 109، 110، من سورة الكهف.

الحمد لله هذا قبر محمد ابن مرزوق العجيسي رحمه الله تعالى برحمته و رحم الزائرين	توفي ليلة الجمعة الخامس عشر من شهر شعبان المعظم عام إثنين و اربعين و ثمانمئة هجرية عن قضاء الله تعالى خيره و بركته سنة 842 ه رحمه الله ورحم من رفق عليه و دعا له .	و الصلاة و السلام على محمد من حلّل الأرض في عصر ركائز الرسائل على الإطلاق هو إبن مرزوق و جيل العلى علامنا توفي بالإطباق رضي الله عنه و نفع به.

كما وجدنا نافذة مغلقة بالضريح و هي على هيئة خزانة، تظهر حديثة العهد ، بها مجموعة من الكتب، و فوقها إطار خشبي به زخرفة ويحمل العبارة التالية.(أنظر اللوحة رقم 33)

و لا غالب إلاّ الله:بسم الله الرحمن الرحيم : "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ "[1].

– لا توجد أية زخرفة جصيّة أو هندسية ضمن جدران الضريح، و هذا النموذج من الأضرحة غريب الشكل عن ما سارت عليه العادة في الأضرحة، اذ أنّ قاعة الضريح تظهر على هيئة قاعة جلوس عادية و هي تستعمل لذكر الله.

[1] المصحف الشريف : سورة الفتح الآية : 58- 59، ص515.

ضريح سيدي الحلوي

1. حياته

لا تزال مدينة تلمسان تفخر باحتضان جثمان رجل لعب في الماضي دورا لا يستهان به، في تعليم شعب تلمسان البسيط وترقية أفكاره وأخلاقه بوسائله البسيطة رغم عظمة الرجل وسعة علمه، إنه من أولئك الرجال الذين يقول فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن أولياء الله تعالى فقال: ﴿ **هم الذين بذكر الله تعالى برؤيتهم** ﴾

إن الشخصية التي سوف ترد في سياق حديثنا هي شخصية الشيخ أبو عبد الله الشوذي الحلوي، فمن تكون هذه الشخصية؟ وكيف قادتها الأقدار إلى تلمسان؟ و لم استحقت التكريم بانتصاب مسجد يحمل اسم الشيخ الحلوي إلى يومنا الحالي؟

عرف باسم امام العارفين وتاج الأولياء المحققين وسيد الصالحين،نزيل تلمسان وهو من أكابر العلماء العباد العرفين بالله[1].

ولعل لقب " الحلوي" قد اتصل به فيما بعد حينما قدم إلى تلمسان، فاسمه الحقيق أبو عبد الله الشوذي، وقد كان أندلسيا قحا من إشبيلية، ومع أننا لا نعلم الكثير عن طفولته وشبابه ولا حتى عن بداياته الأولى في هذا العالم، إلا أننا يمكن أن نلاحظ أنه درس وأنه كان أستاذا في العلوم القرآنية[2] .

ويجمع المؤرخون على أن الولي"الشوذي"كان قاضيا بإشبيلية، أين نشأ ولعل هذه المهنة تدل على درايته المتينة في علم التشريع[3] .

والسؤال الذي يطرح بشدة حول هذه الشخصية المتميزة، يتعلق بأسباب تركه مهنة القضاء والخروج من إشبيلية؟

---

[1]- ابن مريم : المصدر السابق، ص 68.

[2] -Ch Brosselard : Opcit,p161.

[3]- تلمسان، سلسلة الفن والثقافة، ص 47.

لقد ترك الحلوي كل متاع الدنيا الزائل من مال وثروة وجاه، وخرج من إشبيلية مودعا الاهل والأصدقاء والكتب التي طالما أحبها باترا بذلك كل ما كان يربطه بالعالم[1].

لبس الصوف بعد الحرير وافترش الأرض كسرير عوض السرير المريح الناعم، وخرج مسافرا إلى المغرب وإلى تلمسان في أوائل القرن الثالث عشر[2] ، باع كل ما يملك من أملاك وتصدق بأموالها على الفقراء والمعوزين، كما خلع عنه عباءة القضاء وملابس الحرير، معوضا إياها بملابس رثة، آخذا العصا، وقطع البحر، دون الندم ولو للحظة على هذا المكان الرائع من الأندلس الذي سوف يغادره بدون رجعة، وجاء إلى تلمسان حوالي سنة 665 هـ أي 1266م في عهد حكم يغمراسن بن زيان[3] ويصل التائه، الزاهد الصوفي إلى تلمسان ذات صباح في ثيابه الغريبة البالية وقد حسبه الناس مجنونا ويستقربها.

وعن مجيئه إلى تلمسان واستقراره فيها يقول ابن المرآة[*]...تطوفت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ بالسوق وبيده طبق من عود فيه الحلوى للصبيان الصغار فتفرست فيه مخائل القوم فاتبعته...يدور ويشطح وربما أنشد مقطوعات متفقات الألفاظ في معنى المحبة فلم أشك أنه من الصالحين ثم أخذ شيئا من ثمن حلوائه فاشترى به كسرة خبز سميد فتصدق بها على يتيم ذي أطمار بعد علمه بحاجته"[4].

لقد انتهج الحلوي لشدة ذكائه وفطنته أسهل الوسائل وأقربها للناس من اجل إيصال رسالته ونشر أفكاره إذا ظهر بمظهر المهرج المرح فتسارع الأطفال إليه منبهرين بحلوياته وبحركاته ومن شدة حبهم له أصبحوا يلقبونه **بابا الحلوى**.ولكن هذا الاخير عندما كان يرى الناس مجتمعة حوله يتسنح الفرصة فيغير اللغة ويضع طبق حلوائه جانبا ويبدأ في حديث حول أصول الدين والأخلاق، ومصير الإنسان وحول كل النقاط العميقة البعيدة المعنى في العلم، لقد كان يقدم حديثه بطريقة معبرة وممتعة يسحر بها سامعيه ويدهشهم.[5]

---

[1]- تلمسان، سلسلة الفن والثقافة، ص 47.

[2] - Ch Brosselard : Opcit,p161-163..

[3] - Ch Brosselard : Ibid,p163.

[*]هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد دهان الأوسي(ينظر ابن مريم: نفس المرجع السابق،ص 68.)

[4]- ابن مريم: المصدر السابق، ص 68.

[5]- Brosselard : Opcit,p164-165.

لقد كان أبو عبد الله الشوذي متمكنا في العلوم التشريعية، وحينما كان يسترسل في حديثه عن العقيدة وحول أصولها وأسررها، يبهر سامعيه إذ كيف لهذا الرجل البسيط في نظرهم، المتسول التائه أن يلم بكل هذه المعارف الواسعة و العميقة، لقد كان من عباد الله الذين اختارهم ومن علمهم بعلمه في الأرض.

ولم يمض وقت طويل حتى جزم الناس على أنه ولي من الأولياء الصالحين، ولم يبقى الحديث سوى حول كراماته المعجزة[1]

أ- كرامـــاته:

يورد ابن مريم حول كرامات الشيخ حادثة غريبة على لسان الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوسي المعروف بابن مرة:...وكان ذلك برمضان فلما جاء الفطر ابتعت سميدا وعسلا وقلت لعمتي اصنعي لي مشهدة يفطرها عندي رجل من الصالحين، ففعلت فالتمسته في الناس بعد صلاة العيد فلم أجده فحوقلت وقلت في نفسي اللهم بحقه عليك اجمع بيني وبينه في هذه الساعة فإذا هو عن يميني فانظم إلى وقال صنعت عمتك المشهدة فقلت نعم يا سيدي، فقال قم بنا إلى موضع نأكل هذه المشهدة الحاضرة وبعدئذ نمشي إلى دار عمتك فقمت معه إلى خارج المصلى فأخرج من تحته صحيفة مغطاة بمنديل نظيف وكشطة فإذا هو فيه مشهدة لم يرى الراؤون مثلها وطيبتها امرأة في الدنيا. فأكلنا وتوجهنا إلى دار عمتي فأخرجت مشهدتها فوجدناها لم تشبه الأولى في شيء فأكلنا منها قليلا[2].

وهكذا تتلمذ هذا الراوي على يد الشيخ وعند قدومه على الحلوي في المسجد، طلب منه هذا الأخير قراءة كتاب الله العزيز فيقول أبو إسحاق:..." وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فتكلم في فضلها عشرة أيام ثم قرأت عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شيئا من الأدب[3].

---

[1] - Brosselard : Ibid,p164-165.

[2]- ابن مريم: المصدر السابق، ص 68-69.

[3]- نفسه، ص 69.

وسوف نورد في سياق حديثنا حادثة وفاته التي تعد بحق إحدى الكرامات الرائعة التي حباه الله بها من أجل إظهار براءته ونصرته على من ظلمه.

ودعونا نواصل حديثنا عن علمه وعن مسيرة حياته بتلمسان، فقد ذاع صيته بها حتى أصبح الحلوي على ألسنة العامة والخاصة فقد كانوا يقولون عنه " لقد أودع الله فيه أسرار العالم الظاهرة والخفية[1]".

وبالطبع لم يخفى أمره على السلطان فسلم إليه مهمة تهذيب وتعليم أبنائه،و مع أن المهمة كانت، صعبة وحساسة ولكن الشيخ لم يتأخر في تنفيذ طلب السلطان وشرع في مهمته بكل تفان وإخلاص وقد نجح فيها نجاحا رائعا، مما جعل السلطان يترقب النتائج بكل شغف واندهاش ولكن النجاح جر على صاحبه أعين الحسد وأوغل صدورا بالكره والمكائد.

ففي أحد الأيام بينما جلس السلطان" أبوزيان محمد بن عثمان حفيد يغمراسن" للعشاء رفقة ولديه، رفض هذين الأخيرين تناول العشاء وعندما سأل السلطان عن السبب أخبراه بأنهما يأكلان عند شيخهما الحلوي أكلا لذيذا يرضي شهيتهما ويمتع ذوقهما، وكانت هذه هي الفرصة السانحة للوزير لأن يشي بالشيخ الحلوي لدى السلطان فأوهمه أن هذا الأخير ساحر، وموال للشيطان وأنه وال مزور يخدع الناس بهذا المظهر بينما يخفي سوء لا نهاية له ، وهكذا قرر أن يكون الجزاء على قدر العمل وامر بأخذه خارج أسوار المدينة لتقطع رأسه وليرمى جسده دون دفن كفرسية للحيوانات المتوحشة[2] وهكذا فعلت الوشاية فعلتها وثأر الوزير لكرامته من الشيخ الذي قتل وقطعت رأسه، و لم يرضى سكان المدينة على هذا الحكم الظالم المتعسف، ولكنها أوامر السلطان و لا بد أن تنفذ دون تأخير، وفي المساء الذي تلى هذه الحادثة الرهيبة، عند صلاة العشاء وعندما أتم بواب المدينة تفقده للمدينة وبينما كان يصيح الباب ! الباب ! حتى يدخل المتأخرون المتواجدون

---

[1] -Ch Brosselard : Opcit,p168.
[2] -Ch Brosselard : ibid, p169-170.

خارج المدين، إذ به يسمع صوتا يمزق صمت المدينة يقول: " يا بواب أغلق بابك – روح ترقد يا بواب، لم يبق أحد سوى الحلوي المظلوم[1] "

أخذ الحارس بالذعر والاندهاش ولكنه فضل الصمت لولا أن الحادثة نفسها تكررت سبعة أيام على التوالي، بحيث لم يقوى هذا الأخير على الصمود أكثر، فقرر قصد المشور ومقابلة السلطان شخصيا حتى يسرد الوقائع المذهلة، وبعد استماع السلطان للوقائع قرر الذهاب بنفسه والتحقق من الأمر شخصيا فأمر البواب بانتضاره عند صلاة العشاء في المكان نفسه : (باب علي) واتجه شخصيا رفقة وزيره الأول من أجل التحقق من هذا الأمر الغريب والمدهش[2].

و ما أن ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء حتى بدأ صدى الصوت يتردد ممزقا صمت الليل و سكونه.دهش السلطان و تحقق من الامر،فأحسن للبواب و عرف أن الوزير قد خدعه و تسبب في موت الشيخ ظلما و أمر بقتله و كان ذلك خلال سنة 705هـ-1305م[3] فأصر السلطان كتكفير عن خطئه تشييد ضريح يليق بعزة و مقام الحلوي،أين وضعت أشلاءه[4].هذه الوقائع الحقيقية و المؤلمة لوفاة الحلوي الذي أخذ نسبة الحلوي المظلوم و أصبح مقصدا لاصحاب المظالم من أجل نصرتهم.

ب-علمه :

ورد حول مكانة الحلوي العلمية و الدينية الرفيعة، و في مدى سعة صداه في الخارج و الداخل :...يورد الشيخ أبو الحسن المايورقي، عن شيخنا أبي عبد اللهالآبلي،قال كان ابن دهاق،المتقدم الذكر،يدرس كتاب الطهارة من المدونة بالجامع،فقال له يوما أبو عبد الله الحلوي : الى كم ذا : غسل و حيض و نفاس؟ فلما فرغ أقبل عليه،و قال : سيدي قلت لي ما قلت فما تراني أصنع؟ فقال :

---

[1] -Ch Brosselard : opcit, p170
[2] - Brosselard : Ibid, p171
[3] - Brosselard : Ibid, p168
[4] - Brosselard : Ibid, p171

اشتغل بما ينفعك، فقال له : أقرأ عليك يا سيدي قال لا، و لاكن امض الى فلان بتونس. فخرج ابن الدهاق من حينه الى تونس،و لقي المذكور و طلب منه القراءة عليه فسأله عن بلده، فقال تلمسان، فقال له : عليك بشيخي فيها، أبي عبد الله الشوذي. فعاد المذكور، فلما وصل لقي الحلوي خارج باب القرمادين، فقال له : ردك الي؟ قال نعم، قال افعل اذن كفعلي، و ركب قصبة و انصرف، فكسر ابن الدهاق مزراقة و ركب منه قطعة، واتبعه فكانا يأويان تبتلا إلى كهف خارج باب كشوطة، إلى أن مات الولي الحلوي ودفن خارج باب علي، وقبره الآن هناك مزار[1] .

وقد كان رضي الله عنه لا يأكل قط طعاما في النهار فلم ير إلا صائما قائما ومن نظمه رضي الله عنه:

إذا نطق الوجود أصاخ قوم **** بآذان إلى نطق الوجـــــود
وذلك النطق ليس به انعجام **** ولكن دق عن فهم البلـــيد
فكن فطنا تنادى من قريب **** ولاتك من ينادى من بعـــيد[2] .

---

[1]- أبو زكرياء يحي بن خلدون:المرجع السابق، ص127 – 128.

[2]- ابن مريم: المصدر السابق،ص 69-70.

ج- زهده و تصوفه:

تنسب إليه الشوذية، وكان في أول أمره من فقهاء مرسية ثم التف حوله أمثال عزيز بن خطاب وحازم وأبي المطرف وغيرهم.

والشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي إلا أنها أكثر إيجابية، وقد تورط أصحابها في السياسة وقالوا بأن العلوم الشرعية غير صحيحة في ذاتها، زعموا ولذلك وجدوا مقاومة شديدة، وحمل عليهم ابن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي وابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، ولابن الزبير الغرناطي أرجوزة في ذم الشوذية[*] كما رد عليهم(ابن الزبير) عند تفسيره للآية القرآنية الأولى من سورة النمل عند قوله سبحانه "لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ "[1]

وقد ذكره ابن خميس في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

عجبا لها أيذوق طعم وصالها.....

فقال:

وبدت على الشوذي منها نشوة****** ما لاح منها غير لمعة آلها[2]

أما في سياق آخر فقد ورد: " وهو أول من كون سلالة الحكماء الأبرياء الفائضين بالروح الإلهية وفي اعتقاد هؤلاء الحكماء إن العلم والحكمة لا يتحققان بدون ذرة من الحمق كما أن معرفة الله مقيدة بنوع من التخلي عن القوانين والشكليات أيا كان نوعاها.

وقد قيل عنهم :" أنهم يحسنون الموافقة وبصفة دقيقة بين العلم والتخيل والتقشف والعبادة"[3].

---

[*]- انظركتاب : مدخل تاريخي إلى دراسة الشوذية لمحمد بن شريفة طبع عام 1965.

[1]- الآية(انظر كتاب ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير العاصمي الغرناطي ، ص 898)

[2]- محمد بن شريفة: المرجع السابق، ص 58.

[3]- تلمسان – سلسلة الفن و الثقافة، ص 47.

وقد نسبت الشوذية لسيدي الحلوي حتى التصقت باسمه التصاقا وثيقا، وهكذا نلاحظ أن هذا البائع للحلواء لم يكن بتلك البساطة التي كان يبدو بها. ولكن غايته في الوصول إلى قلوب الناس وتهذيبهم، بررت الوسيلة وإن كانت بسيطة مبتدعة.

2. ضريحه

قبل التطرق إلى ضريح سيدي الحلوي لا بد من إعطاء لمحة عن مسجد سيدي الحلوي:

***مسجد سيدي الحلوي:** يطل ضريح سيدي الحلوي على مسجد رائع يحمل اسم مسجد سيدي الحلوي، الذي شيد من طرف السلطان أبو عنان فارس[*] سنة 754هـ (353م) وهذا حسب الكتابة الأثرية الموجودة على العقد الذي يعلو مدخل الجامع وهذا نصها﴿ **الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبو عنان فارس بن مولانا السلطان أبو الحسن المريني ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام 754 هـ** ﴾[1] وهي مكتوبة بخط أندلسي مغربي.

إن طراز هذا المسجد يشبه طراز مسجد " أبي مدين" إلا أنه أصغر منه قليلا في أبعاده، كما يعتبر تحفة معمارية منقطعة النظير، (أنظر الشكل رقم 16) للمسجد ثلاثة مداخل أحدهما شرقي، والآخر غربي، والثالث وهو الرئيسي ويقع في الجهة الشمالية للجامع. وقبل الدخول يستوقفك منظر الشرعة المحمولة على ثلاثة عشر مسندا منقوشة بدقة رائعة الجمال تزين إطار الباب زخارف فسيفسائية، وفوق الباب نجد الشريط الكتابي الذي تحدثنا عنه سابقا، وهو الذي يحمل الكتابة التذكارية للجامع.

---

*- أبو عنان فارس : ابن السلطان المريني (أبو الحسن المريني) تم له الأمر بعد الانتصار على أبيه ومقتل هذا الأخير سنة 752هـ(1351م) وما إن تم جلوسه على عرش أجداده حتى قام بغزو تلمسان عام 753هـ(1352م)، وأقام بها مدة ونظرا لمكونه ولوعا بالفن وإقتداء بوالده الذي شيد مسجد سيدي أبي مدين وملاحقه فقد شيد أبو عنان فارس مسجد سيدي الحلوي وملاحقه وإن لم يبقى لنا اليوم سوى الجامع وبانتهاء حكم أبي عنان بوفاته سنة 759هـ(1358م) انتهى حكم المرينيين بتلمسان (محمدرمضان شاوش : المرجع السابق، ص 104)

1- رشيد بورويبة : الكتابات الأثرية....، ص 97.

أما مساند الشرعة فتعتمد على إفريز يحمل كتابة كوفية " **الغبطة المتصلة والبركة الكاملة والسعادة**".

يؤدي المدخل الرئيسي بواسطة سلم على ستة درجات، إلى صحن مربع الشكل تقريبا طوله10,10م وعرضه 10,60م يحتوي في وسطه على حوض مائي يستعمل للضوء، يحيط بالصحن أروقة من الجانبين والمؤخرة، ترتفع المئذنة ذات الطراز المغربي الأندلسي في الواجهة الشمالية الغربية. قاعة الصلاة الواقعة في الجانب القبلي تحتوي على أربعة بلاطات وخمسة أساكيب ولعل ما يميز قاعة الصلاة هذه الأعمدة المرمرية والتيجان المزخرفة التي تزيدها بهاءا وجمالا، أما المحراب فيقع في الجدار المقابل للرواق الأوسط، ولا بد من الإشارة إلى تواجد جمجمة الولي الصالح رحمه الله داخل إطار زجاجي وضع بداخل جدار المحراب وقد تعذر علينا أخذ صورة لهذا الجمجمة نظرا لخفوت الضوء وصعوبة موقعها، أما القبة التي عادة ما تتقدم المحراب فهي معوضة في هذا المسجد بسقف مربع هرمي الشكل يكسوه قرميد أخضر من الخارج. بالجامع ساعة شمسية نقشت على إحدى الأعمدة القريبة من الباب الشرقي. أما سقف الجامع وعلى عادة المرينيين فمغطى بسقف هرمي الشكل يكسوه قرميد أخضر.

وقد أشارت بعض المصادر إلى وجود زاوية، ومدرسة، ضمن مرافق المسجد إلا أننا لم نجد لهما أثرا يذكر [1].

لقد شيد السلطان أبو عنان فارس، هذا المسجد سنة بعد استيلائه على تلمسان أي بما يقرب 14 سنة بعد تشييد مسجد سيدي أبي مدين، الذي شيده والده أبو الحسن المريني ويعد هذا الجامع تحفة معمارية رائعة لا تزال تحتفظ بمعظم معالمها المعمارية والأثرية كما أن هذا الجامع لا يزال يقف شاهدا لمؤسسه، على مدى تفوقه هو وأجداده بني مرين في الميدان المعماري، فقد كان أبو عنان ولوعا بالبناء والتشييد على غرار أبيه وأجداده[2].

---

[1]- محمد بن رمضان شاوش: المرجع السابق، ص 309.

[2]- سيدي محمد الغوتي بسنوسي: المرجع السابق، ص 357- 358.

ضريحه

يقع ضريح سيدي الحلوي شمال شرق تلمسان، وهو يعلو مسجد سيدي الحلوي، يقع الضريح في الأعلى على بعد نحو 100م عن المسجد الذي ينتصب في أسفل الهضبة يتواجد المدخل في الجهة الشمالية، وهو عبارة عن باب يبلغ عرضه 85 سم مطلي باللون الأخضر الداكن يعلوه عقد نصف دائري.

والضريح عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل طولها 3,70م وعرضها 2,05م، يعلوها قرميد على شكل هرمي بسيط لونه بني، وبالغرفة ثلاثة كوات جدارية، الأولى الموجودة بجدار القبلة يبلغ عرضها 55سم و عمقها 35سم، والثانية بالجدار الجنوبي الغربي فعرضها5 4 سم وعمقها32سم، في حين تقع الأخيرة في الجدار الشمالي يبلغ عرضها 25سم وعمقها35 سم، (أنظر الشكل رقم 17) . ندخل إلى الضريح لنجد تابوتا خشبي تآكل بفعل عوامل الطبيعة مغطى بلواء أخضر، يبين المكان الذي يرقد فيه جثمان الولي الحلوي، لا توجد في الضريح أية كتابة تدل على تاريخ الإنشاء ولكننا نعلم أنه أنشأ بعد قتل الولي الحلوي وقد كان ذلك في عام 705هـ/ 1305م.[1]

يوجد على يسار المدخل محراب مضلع وهو عبارة عن فتحة يبلغ عرضها 88سم يعلوها عقد حذوي يكتنفها في الجانبين عمودان صغيران، كما يبرز المحراب نحو الخارج بـ 45سم (أنظر الشكل رقم 18) يغطي الضريح سقف خشبي من الداخل، وهو لا يكاد يكون ملفتا للنظر وهذا السقف على غرار الضريح قد تصدع بفعل الرطوبة فتآكلت عناصره ،ونلاحظ غياب النوافذ وبالتالي غياب الإضاءة والتهوية، وهذا كان سببا في تأثره بعوامل كثيرة حتى أصبح في حالة يرثى لها. أما الجدران فغاية في البساطة وخالية من الزخارف.

وحينما نخرج من الضريح نجد منصة أرضية، نطل من خلالها على المسجد الرائع الذي يجلب الانتباه والزوار (أنظر اللوحة رقم 34).

---

[1] - Brosselard : Opcit, p168.

ومن الواجب أن نشير إلى أن إهمال الضريح، من طرف الهيئات المختصة جعله قبلة لعناصر السوء التي لم تحترم قدسية المكان، وقد أدى ذلك إلى غلقه و منع زيارته، فهل هذا هو الحل الأمثل لمواجهة هذه الظاهرة؟

كما أن موقع الضريح ضمن كتلة هائلة من الأشجاروالأشواك، يكاد يحجبه عن الأنظار، وقد أصبح من الضروري الانتباه إلى هذا الضريح الذي لو بقي على هاته الحال لتصدع أكثر، إذ أن حتى الممر المؤدي إليه يكاد لا يكون ظاهرا وهو طريق غير معبد، شائك تشوبه الأحجار والأشواك.

فمتى نلفت لهذا الضريح الذي يعد مثالا عن الأضرحة التي تبنى عند بوابات المدن من أجل الحفاظ عليها فهو (الحلوي) حارس باب الزاوية وحاميها[1].(أنظر اللوحة رقم 35)

*** الزخرفة بضريح سيدي الحلوي:**

أ- الزخرفة الكتابية:

يوجد في محراب ضريح سيدي الحلوي، بقية شريط كتابي كان يحيط بجامة المحراب إلا أنه لم يبقى منه اليوم سوى كلمتين وهي **يـــم** وكلمة **اللـــه** .(أنظر الشكل رقم 19).

ب- الزخرفة الهندسية:

تحتل شوكتي المحراب نجمتان، وهي عبارة عن تقاطع مربعين ينجم عن تقاطعهما نجمة ذات ثمانية رؤوس، مركزها زهرة ذات الثماني باتيلات(أنظر الشكل رقم 20).

[1] -William et George Marçais ;Les monuments…..p332-333.

ضريح الشيخ محمد بن عمر الهواري

1. حياته

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير الهواري، نسبة إلى هوارة ✦، ولي عارف بالله ، القطب ، نشـــأ في طلب العلم فساد به ورأس و إقتبس من الحضرة ما إقتبس و جمع بين الخطابة والقضاء و التدريس و الفنون و كان يدرس بالمدرسة الشماعية و بمدرسة عنق الجمل ... و كان في قضائه شديدا في الحكم ..[1]

سافر من فاس إلى المشرق للحج فدخل مصر، و لقي من بها و أخذ عنهم كالقرافي وغيره وجاور مدة بالحرم الشريف بين مكة والمدينة، ثم سافر للقدس لرؤية بيت المقدس والصلاة بها، وجال في بلاد الشام، و كان في جامع بني أمية يأوي في سياحته لغيضة ملتفة فتأوي إليه السباع و الوحوش العادية، ثم إستقر بوهران بعد ذلك مثابرا على العلم والعمل و الصدق في الاحوال، و إنتفع به من إجتمع به ولما قرب أجله كان أكثر كلامه في مجالسه التبشير،بسعة رحمة الله وعفوه وأخذ عنه إبراهيم لتازي ✦ و توفي سيدي الهواري بوهران سنة 843 ثلاث و أربعين و ثمانمائة [2]

✦ هوارة : ذكر علماء الأنساب أنها من حمير و قيل من ولدوريغ بن يونس من البرانس و الاشهر أنهم يمانيون من ولد المسوار إبن السكاسك ، وقع المسور إلى البربر و صاهرهم و أنزلهم هوارة لأن أباهم (المسور) بعدما جال في البلاد و نزل في المغرب قال لقد تهورنا البلاد وقعنا فيها بقلة مبالاة (أنظر أبو عبد الله محمد الأنصاري : فهرست الرصاع ، تحقيق و تعليق محمد العثابي ، المكتبة العتيقة ، نهج جامع الزيتونة تونس ،بدون تاريخ ، ص 86) .

[1]– أبو عبد الله محمد الأنصاري : فهرست الرصاع..،ص86 .

✦ إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران : " هو الإمام العالم الناظم البليغ الولي الورع الزاهر الصالح الناصح العارف القطب صاحب الكرامات ...أخذ عن كبار علمائها و كبير محدثيها قاضي القضاة المالكية سيدي الشريف تقي الدين محمد بن احمد بن علي الحسني الفاسي قرأ عليه كثيرا من الحديث و الوثائق و أجازه و اخذ بالمدينة على جماعة منهم أمام الائمة أبو الفتح بن أبي بكر القرشي و غيره، و أخذ بتلمسان عن إبن مرزوق الحفيد و أجازه ثم قصد وهران لزيارة شيخ المشائخ الهواري ...قال إبن صعد التلمساني في النجم الثاقب كان سيدي إبراهيم التازي من الأولياء الزاهدين و عباد الله الناصحين...توفي يوم يوم الأحد تاسع شعبان ســـنة 866 ست و ستين و ثمانمائة رحمه الله " (ينظر إلى إبن مريم : البستان ...، ص 58 – 59 – 60)

2 – ابن مريم :المصدر السابق ، ص 228.

و قال فيه بن فرحون : " كان إماما عالما،حافظا،متفننا،في علمي الأصول و العربية وعلم الكلام و علم البيان ، فصيح اللسان ، صحيح النظر، قوي الحجة، عالما بالحديث له أهلية الترجيح بين الأقوال،لم يكن في بلده في وقته مثله شديدا على الولاية، صارما ،مهيبا موصوفا بالدين و الفقه والنزاهة، معظما عند الخاصة والعامة، سمع من أحمد البطرني، وتخرج عليه إبن عرفة [+] ،و نظراؤه و له شرح على المختصر الفقهي لإبن الحاجب، من أكمل الشروح وقد وقع عليه الإقبال، و قبل وفاته بثلاثة أيام توفي ولده و كلاهما مدفون بالجلاز [1]

و قد إجتمع على تعظيمه وتسليم التقديم له في الولاية، كل من عاصره من بلاد المغرب من الأولياء، ودليل ذلك سفر الشيخ سيدي الحسن بن مخلوف، لزيارته من تلمسان حافيا راجلا، من باب البلد إلى ان بلغه تأدبا معه .ومن كراماته، ما أخبر به الشيخ الولي سيدي سليمان بن عيسى، بحذاء داره بقلعة هوارة : قال كتبت للشيخ محمد الهواري كتابا فيه نحو السبعين سطرا أشكو إليه فيه بأمور و أسأله عن أمور، فلما ذهب رسولي بالكتاب بدالي، وقلت لعل الرسول لا يضبط جواب الشيخ فتبعت الرسول فسبقني إلى الشيخ، و أعطاه الكتاب و قال له هذا كتاب سيدي سليمان بن عيسى الذي بهوارة فقال له الشيخ أنت سقت الكتاب أم صاحب الكتاب، فتعجب

ولم يفهم كلام الشيخ فدخلت عليه بالفور، فوجدته يقول للرجل أنت سقت الكتاب أم صاحبه، والرجل يراجعه و يقول له يا سيدي هذا كتاب سيدي سليمان فلما سلمت على الشيخ، رآني الرجل و تعجب من مقالة الشيخ و من كونه تركني

[+]محمد بن عمر محمد بن عرفة الورغمي التونسي : ولد بتونس ليلة السابع و العشرين من رجب سنة 716 وإشتهر بالإجتهاد و المطالعة و ملازمة الشيوخ ...قرأ عن إبن عبد السلام القراءات العشر و الحديث و الفقه ... و أخذ عن السطي الفرائض و الفقه ... من تلاميذه السيد الشريف أبو الفضل السلاوي و الإمام إبن مرزوق الحفيذ و أبو عبد الله القلشاني وأخوه أبو العباس وولده القاضي أبو العباس ... و حول تأليفه يقول إبن عقاب كما نقله عنه القلصادي أن إبن عرفة كان إماما في العلوم صنف فيها كثيرا و الغالب على كتبه الإختصار و إشتغل آخر عمره بالفقه خصوصا من حين ولايته من حين ولايته الإفتاء ، كان معتنيا بالمدونة غاية ملازما لنظرها و من تآليفه مختصره الفقهي الذي بدأ تأليفه سنة 772 و أكمله 786 و تأليفه المنطقي ... توفي يوم التاسع عشر من جمادى الأول سنة 803 (أنظر إلى أبي عبد الله محمد الرصاع ، نفس المصدر السابق ، ص 78 – 79 – 80 – 81 – 83) .

[1]– محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ص 210.

بهوارة فسكت حينئذ الرجل، و بقي الكتاب مطروحا بين يدي الشيخ و لم يرفعه و لم يفك عنوانه، و لم يسألني عما فيه، ثم شرع الشيخ في جواب ما في الكتاب سطرا سطرا على الترتيب حتى أتى على آخره،و على جميع ما فيه من أوله إلى آخره، ثم على كل ما يحدث به الخاطر و لم أحتج إلى أن أتكلم بكلمة، فرجعت و قد قضيت العجب بما رأيت .[1]

و من كراماته أيضا ما حدث لصديق للولي الشيخ سيدي الحسن بن مخلوف، قال زرت الشيخ سيدي محمد الهواري بمدينة وهران، فسلمت عليه وجلست فسأله شخص عن مسألة في علم فقال له الشيخ، إنما يجيب عن هذه المسألة بن مرزوق، الذي ليس له ولد قال فتعجبت من قول الشيخ ليس عنده ولد، و أنا أعرف أن الشيخ سيدي محمد بن مرزوق عنده ولدان، فجئت إلى تلمسان وقدمت على الشيخ سيدي الحسن، وسلمت عليه و أردت أن أخبره بما قال الشيخ فقال لي لا تفكر شيئا، حتى تذكره للشيخ سيدي محمد بن مرزوق، فطلعت و كان وقت حر و قائلة [+] فجئت إلى مدرسة منشار الجلد، وقلت لا يمكن أن أذهب إلى الشيخ في هذا الوقت، لكن أدخل أتبرد في هذه المدرسة إلى وقت صلاة العصر،فبينما أنا كذلك و إذا الشيخ سيدي محمد بن مرزوق، قد جاذبني من ورائي و رفعني إلى جهة مجاز أئمة الجامع ثم قال لي أذكر ما سمعت من الشيخ سيدي محمد الهواري، فتعجبت من مكاشفة سيدي محمد بن مرزوق بما وقع و ذلك أول قدومي.

و لم أذكر لأحد شيئا فلما ذكرت للشيخ سيدي محمد بن مرزوق، ما قاله سيدي الهواري قال الحمد لله الذي أراحني منهما يعني من ولديه، و فهم من قول الشيخ أنه كوشف بعدم بقائهما و أنهما يموتان عن قريب فكان الأمر كذلك[2].

---

[1]- ابن مريم : المصدر السابق ، ص 229 - 230 .

[+] قائلة و يقال له القيلولة و هو الوقت الذي يتبع صلاة الظهر حتى صلاة العصر

[2]- نفسه ، ص 230 – 231 .

و لقد كان الشيخ كثير الكرامات،ولا يزال ضريحه مقصدا للعامة والخاصة بوهران،و صيت الشيخ الهواري ذائع في كل أنحاء الجزائر.

2. ضريحه

يقع ضريح سيدي الهواري في أعالي مدينة وهران ،و ضمن الحي الذي يحمل اسمه، وهو عبارة عن ضريح مستطيل الشكل يبلغ طوله 6,35م وعرضه 6,10م، (أنظر الشكل رقم 21) ويظهر الضريح بسيطا في مظهره الخارجي والداخلي أيضا، تظهر واجهته الأمامية، والتي يقع ضمنها المدخل مكسوة إلى نحو ارتفاع المتر ببلاطات خزفية حديثة التواجد، وهي عبارة عن مربعات تحتوي على زهريات متعددة الألوان، كما يحيط إفريز به نفس النوع من البلاطات بعقد المدخل. وتعلو مدخل الضريح شرعة بسيطة، وتوجد على يمين المدخل، بلاطة خزفية تحمل اسم الشيخ الولي الهواري (أنظر اللوحة رقم 36).

- ندخل إلى الضريح بواسطة باب خشبي، ذو مصراعين معقود بعقد نصف دائري يبلغ طوله1,72م وعرضه 1م نجد به درجا يبلغ عمقه 12سم، لنمر إلى قاعة الضريح التي تحتوي على أربعة حنيات جدارية، أولاها والمقابلة للمدخل، والتي يقع ضمنها ضريح الولي الهواري، يبلغ طولها2,45م وعرضها 0,86م . أما الحنية الجدارية الثانية والموجودة على يسار المدخل، فيبلغ طولها 2,43م وأيضا عرضها 0,86سم، ويوجد بها تابوت ضريح الشيخ إبراهيم بن محمد بن علي اللّنتي التازي والذي سبق الحديث عنه.أما الحنية الثالثة والمتواجدة على يمين المدخل، فيبلغ طولها 2,00م وعرضها 1,15م ويوجد ضمنها ممر يبلغ طوله 2م وعرضه 0,70 م، وكان الزوار يمرون منه إلى المسجد. وتحتوي الحنية الجدارية الرابعة والتي يقع ضمنها مدخل الضريح، على نفس مقاسات الحنية الثالثة. تظهر الحنيات الجدارية المعقودة بعقد نصف دائري، بلون أخضر داكن في حين تظهر الجدارن مطلية بالأبيض الناصع.

للضريح نافذتان أولها ضمن الحنية الجدارية الواقعة على يسار المدخل، وتظهر معقودة بعقد نصف دائري وبها أربع مربعات، تحتوي على سلسلة من المعينات الزجاجية الصغيرة المتعددة الألوان من الأخضر، والأبيض الشفاف، والأزرق السماوي،تعلوها بعض

المشربيات. وهذه النافذة تعمل على إدخال الضوء والهواء للضريح وحسب القائمين على الضريح فقد فتحت هذه الاخيرة في السنوات القليلة الماضية.

أما النافذة الثانية، فتعلو عقد المدخل وهي أصغر بكثير من النافذة الأولى، وتظهر بنفس الشكل الذي تظهر به النافذة الأولى، الا أن بها مستطيلا يبلغ العشر سنتيمترات طولا و7سم عرضا وهو مستطيل من الزجاج الأبيض الشفاف، يعمل أيضا على إدخال الضوء والهواء للضريح.

ويتم الانتقال من المربع إلى المضلع بواسطة أربعة مثلثات كروية، تقع أعلاها ثلاث زخارف جصية مسننة مطلية بالأخضر ويبلغ عددها إجمالا 12.

يظهر الإفريز الفاصل بين المربع والمضلع، مطليا بالأخضر الداكن، لننتقل إلى القبة المضلعة التي تعلو الضريح، للقبة ثمانية أضلاع، وتظهر في أعلى سقفها وضمن كل ضلع من أضلاعها، شمسيتان زجاجيتان مربعتان، شفافتان لإدخال الضوء للضريح، أما من أعلى قمتها، فتتدلى الثريا الرئيسية للضريح .

- من الخارج تظهر القبة هرمية الشكل، ذات أربعة أرداف مطلية بالأبيض (أنظر اللوحة رقم 37)
- لا حظنا تواجد عدة مصابيح ولوحات زيتية حديثة العهد، زينت بها الجدران وهي مجرد هدايا، قدّمت من طرف الزوار و القائمين على الضريح.

أما إذا عدنا إلى تابوت الولي الهواري، فهو مغطى برداء ذهبي به آيات قرآنية (أنظر اللوحة رقم 38)، وقد منعنا من إزالة الرداء المغطي للتابوت منعا باتا لاعتقاد القائمين على الضريح أن هذا هتك لحرمة الولي. ونفس الشيء بالنسبة لتابوت إبراهيم التازي .

- على ارتفاع نحو 1,20م يكسو الزليج جدران الضريح، ويظهر هذا الاخير على شكل معينات بالأبيض والأخضر، تعلوها زخارف مسننة من الزليج، وقد أخبرنا القائمون على الضريح أن هذا الزليج قد تم استعماله منذ ما يزيد عن 15 سنة من طرف بعض رجال الخير. كما علقت بجدران الضريح بعض الشموع.

- أما أرضيته ، فهي عبارة عن بلاطات خزفية ذات اللون الأبيض، وهي مغطاة بزرابي متعددة الألوان.

- خارج الضريح و في واجهته التي يقع ضمنها المدخل، نجد شرافات مسننة تحلي سقفه، وعددها 10.

- كما يوجد خارج قاعة الضريح وضمن إطاره، فناء صغير مستطيل الشكل، قيل لنا أنه يستعمل لاحتواء ضيوفه، عند كثرة عددهم أثناء أيام الزيارة.

- لاحظنا أن ضريح سيدي الهواري، يقع بحذاء مسجد في حالة مزرية،اذ لم يبقى منه سوى صومعة قديمة وبعض الأحجار المتهاوية،كما لاحظنا خلال دراستنا للضريح غياب أية زخرفة كتابية أو نباتية داخله أو خارجه .

الأضرحة الشعبية

حينما نتحدث عن الأضرحة الشعبية، نقصد بهذا المصطلح الأضرحة البسيطة معماريا ونحن لا نقصد بهذه التسمية الإنقاص من قيمة الأولياء التي تسكنها، كما أن الضريح الشعبي هو الضريح الذي لم ينشأه سلطان معين، وإنما أنشأه زوار الضريح إكراما وإجلالا للولي الصالح الذي يحبونه ويعظمونه، ولعل هذه الأضرحة، هي نتاج شعور عفوي للأوفياء بينما الأضرحة الأخرى، رسمية وهي من تأسيس ملوك وسلاطين.و لعل البعض منها مجرد جدران من الحجر الجاف، المبيض بالجير بأيدي النساء التي تزرن الولي كل جمعة وتسمى الحويطة (HAWITA) وأخرى مكشوفة (بدون سقف)، وهي عبارة عن مكان مسور (نطاق) دائري أو مستطيل مزين بشرافات في الأركان الأربعة، بتقنية بسيطة تعرف بالأحواش.

وأول ضريح سنتناوله بالدراسة هو ضريح سيدي الأخضر بن خلوف :

ضريح سيدي الاخضر بلخلوف

1. حياته :

يقول الشاعر نفسه عن نفسه: اسمه الأكحل حسب ما ورد في بعض قصائده، جعله الأخضر في قصائد أخرى بدلا من الأكحل للتفاؤل، ودعى نفسه بن خلوف أو ولد خلوف أو الخلوف في بعض قصائده وفي أخرى الخلوفي أو بن خلوف[1].

بن عبد الله بن عيسى الشريف الإدريسي المغراوي نسبه، قال عنه جامع ديوان شعره محمد بخوشة:" فهو شريف إدريسي ، أما مغراوة فإنها بلاد نشأته، وقد صرح التاريخ بأن مغراوة بطن من زناتة "[2].

وعن نشأته في جبال مغراوة قال بخوشة: نشأ سيدي الأخضر بن خلوف في ناحية من جبال مغراوة الجزائرية، في وسط كريم، مشهور بخصال العرب، عندئذ كان أول عصر الاحتلال التركي، ويمتاز زمانه بانحطاط السياسة الداخلية، مع وجود ثقافة عربية إسلامية ذات بال" . ويرجع انحطاط السياسة الداخلية حسب مؤلف الكتاب إلى الفوضى والقلاقل والاضطرابات التي عاصرت ملوك الطوائف في القرن التاسع للهجرة حيث قال: " في القرن التاسع للهجرة كان شمال إفريقيا تحت قلاقل واضطرابات، حتى صار مسرحا للفوضى إذ كل سلطنة من بني حفص وبني عبد الواد والسعديين حاربت أختها الشقيقة بإعانة الأجانب وهي متيقنة بأن العدو الواحد للأقطار الثلاثة هو الإسبان تحت رئاسة شارلكان سلطان المسيحية والنهب"[3].

لم نستطع تحديد مولد الشاعر بن خلوف بالتدقيق فقد ذكر جامع ديوانه أنه كان في أواخر القرن الثامن هجري حيث ورد هذا في بيت من قصيدته بعنوان " ابقوا بالسلامة" عندما قال:

---

[1]- محمد الحاج الغوثي بخوشة: ديوان الأخضر بن خلوف، شاعر الدين والوطن، تقديم وتنقيح الأستاذ جعلوك عبد الرزاق، لبن خلدون للنشر والتوزيع تلمسان، الجزائر ، بدون تاريخ ، ص 23.

[2]- محمد الحاج الغوثي بخوشة: نفسه، ص 23

[3]- محمد الحاج الغوثي بخوشة: المرجع نفسه، ص 23-24.

من قرن الثمانية إديت سنين أوزايع والإيام هاملة والجالب مجلوب[1]

وعاش القرن التاسع للهجرة كاملا حسب ما ذكره في بيت من نفس قصيدته " ابقوا بالسلامة " عندما قال:

بفضل النبي تميت القرن التاسع والفلك ينثني والحاسب محسوب[2]

وقد عمر الشيخ ابن خلوف ماناف عن مئة وخمسة وعشرين عاما أورد هذا في نفس قصيدته " إبقوا بالسلامة " في دورها الأخير حيث قال :

جوزت ميا وخمسة وعشرين حساب وتميت من ورا سني ستة إشهور[3]

في حين أكد القائم على الضريح وبعض المهتمين بحياة الولي لنا، أن الشيخ قد عاش 126 سنة وستة أشهر وبعض الأيام.

والمهم أن سيدي الأخضر بن خلوف مغراوي الأصل شريف التنسب[4]

ولقد عايش شاعرنا ولاية أحمد بن القاضي الذي حكم الجزائر، مدة سبع سنين و ذكرها في قصيدته " اختارك الواحد الأحد " حيث قال:

عندي شهادة بن القاضي نترك لرقاقتي نوارا[5]

حضر الشاعر بن خلوف موقعة مزغران التي دارت بين الإسبان والمسلمين، بقيادة الأمير حسن باشا نجل خير الدين وخصص قصيدة كاملة لهذه المعركة تحت عنوان" قصة مزغران" وفيها قال ذاكرا أمير الإسبان:

إحطاطوا بالأمير شنطاظوش بالشلية والقوس والبطاش[6]

وقد وصف الشاعر المعركة بكل وقائعها، ودقائقها، وأحداثها، وإحداثياتها، الجغرافية والبشرية التي ذهب بها ألوف الضحايا، حيث كان واحدا من المشاركين فيها وشاهد عيان أبلى بها بلاءا حسنا وكان فتا يافعا حسب قوله في قصيدته بعنوان " ابقوا بالسلامة " قال:

---

[1]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 03 البيت 01 ،ص 126

[2]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 03 البيت 02 ،ص 126

[3]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 12 البيت 02 ،ص 128.

[4]- محمد بخوشة : نفسه، ص 25.

[5]- قصيدة" اختارك الواحد الأحد" الدور 06 البيت 03، ص 35.

[6]- قصيدة رقم 30 "قصة مزغران" الدور 02 البيت 01، ص 119.

حسراه يا الدنيا كللـــي ما كـــانت عديت شبوب صغري في مزغران

سيفي مجرده وأنا نضرب في الأعدا والناس ضاجة من زجري بالخوف[1]

ولقد كان النصر حليف المسلمين في تلك الواقعة أي واقعة مزغران حسب ما عبر عليه الشاعر:

الأمير حسن يوم مزغـــران إخلف الثار من العدو تحقيق

رجع للبهجة عاصمة البلدان بغنايم شـــتى ونصـــر لبيـــق[2]

شعره:

عرف عن الشاعر بن خلوف المدح لا غير، بدأه بعد سن الأربعين، التي لم ينضم قبلها شيئا و قد أفنى حياته بالمديح، وتحاشى الغزل والرثاء، إلا على ما فاته من السنين التي فرط فيها في الفرائض أوشوقا إلى الرسول صلى الله عليه و سلم [3].

كما أخبرنا أهل القرية أنه كان يتحاشى كل أنواع ملذات الحياة، زهدا منه وحكمة وترفعا، وكان لا يجد لذة إلى في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، و سمي بذلك بالشاعر الزاهد، والولي الورع.

وأطلق على بن خلوف تسمية شاعر الرسول، والصحابة الكرام، وفي هذا يقول جامع ديوانه:" سيدي الأخضر بن خلوف شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، والناصر لشعائر الإسلام و تحرير الوطن، كثيرا ما كان يدلنا كلامه على غضبه اتجاه الكفار قاطبة، وخاصة اليهود[4].

ومع أن الشاعر كان يحب سماع المديح وآلات الطرب، الا أن ذلك كان يتم، في إطار ديني صحيح، إذا كان يحب آلة الدف والرباب، وحسب أهل قريته وأحفادهم فقد أكدو لنا أنهم سمعوا من أجدادهم، أن الشيخ ابن خلوف كان يجد لذة قصوى في الاستماع إلى

---

[1]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 05البيت 03+04 ، ص 127.

[2]- قصيدة "قصة مزغران" الدور 12 البيت 01+ 02، ص 123.

[3]- محمد الحاج الغوثي بخوشة: المرجع السابق، ص 26+27.

[4]- نفسه، ص 27.

مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشجع المواهب الشابة على المديح ويمقت كل مجون وكلام فاحش.

وبما أنه عمر طويلا، فقد أخذ الكفاية من تجارب الحياة، حتى" إنعكف ظهره وصار كقوس الرباب، باعتراف من الشاعر بنفسه بذلك، فقال في قصيدته " لولا انت" :

الحكمة في الشيب بان وإندمر شبابـــي به إشريت القوس قلت للشيخ حينا

زدت إعكاف الأرض معتكف كالرباب وإذا طال العمر قال تشري علينـــا[1]

وكانت آخر قصيدة كتبها ليودع أهله وأولاده" إبقاوا بالسلامة" قال:

الموت يا أولادي للخلفو قاصدة سفود نار انطفا في وسط الصوف

جوزت ميا وعشرين سنة معـــدة وخمسة تامة في أجلي موصوف [2]

لقد دفن حسب وصيته قرب النخلة، التي كان يحبها ، ويتمنى النوم إلى جانبها كما أكد لنا القائم على الضريح، وقد ورد ذلك في قصيدة " لله الحمد زاد فيا" :

النخلة مترلها حدايا تظلل في ظلها البعيد[3]

وكانت وفاته من خلال قصائده في بداية القرن العاشر هـــجري[4]

آله وأبناءه وخادمه ووصيته:

لم يفت الشاعر أن يذكر آله وأبناءه، وخادمه ووصيته،في قصائده فعن اسم جده الخلوف قال في قصيدته" إذا تحيرت من ذنوبي" :

إرحم جدي الخلوف وأبي وأولاده وإخواته وجابر[5]

وذكر اسم أبيه عبد الله ونسبه المغراوي إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال في قصيدته :

---

[1]- قصيدة "لولا أنت " الدور رقم 12 البيت 04+05 ، ص 31.

[2]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 12البيت 04+05 ،ص128.

[3] - قصيدة "لله الحمد زاد فيا" الدور 03 البيت 03،ص 50

[4] - محمد الحاج الغوثي بخوشة ،المرجع السابق، ص 28.

[5]- قصيدة "إذا تحيرت من ذنوبي" الدور 07 البيت 04، ص 118.

قصة مزغران

الله يرحم قايـــل الأبيات الأكحل وإسم أبوه عبد الله

المشهور اسمه من الفيات مغراوي وجده رسول الله[1]

كما ذكر أولاد وسماهم وأورثهم من ذكراه في قصيدته " إبقاوا بالسلامة" :

إنت يا محمد إهلى في خيمتي إنت كبير داري وإنت مولاها[2]

وقال لأبي القاسم:

وأنت يابا القاسم عمم بعمامتي تضحى لك هيبة لمن يراها[3]

وقال لأحمد

وإنت يا أحمد خذ إدي سبحتي بها إفتكرني وقتا تقراها[4]

وقال للحبيب أصغرهم:

وإنت الأحبيب ولدي نطفة من الكابدة خذ شملتي وبرانيس الصوف[5]

وقال عن ابنته حفصة موصي بها إخوتها:

إهلوا يا أولادي خيتكم هجالة حفصة بنت الأكحل مداح البشير[6]

ومن وصيته لأبنائه بالحفاظ على إرثه الفكري:

هذه وصيتي لا ناقص لا زايدة لا تفركتوا نظامي للي متلوف [7]

كما قال :

هذه وصيتي ديروها شد الرؤوس يوصيكم الخلوفي بعلم التبيين[8]

---

[1]- قصيدة قصة مزغران ، الدور 19 البيت 01+02 ، ص 123.

[2]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 09 البيت 01،ص128.

[3]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 09 البيت 02،ص128.

[4]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 09 البيت 03،ص128.

[5]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور 09 البيت04 ،ص128.

[6]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور10 البيت 01، ص128.

[7]- قصيدة "إبقوا بسلامة" الدور10البيت 04،ص128.

[8]- قصيدة " ابقوا بالسلامة ،الدور 11البيت 01،ص 128.

وللشاعر قصائد رائعة في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم وكانت آية في الجمال والصدق. رحمه الله.

2.**ضريحه:** يقع ضريح سيدي الأخضر بن خلوف ضمن القرية التي تحمل اسمه، قرية الأخضر بن خلوف، وهي تقع على بعد 50كلم شرق مستغانم. والضريح يعلو الجبل المطل على القرية وموقعه أشبه بموقع لالا ستي، ومع أنه لا يشرف على القرية إلا أنه يعتلي الجبل والطريق المؤدية إليه وعرة ملتوية.

تحف بضريح سيدي الأخضر بن خلوف كتلة غابية هائلة، وموقعه الطبيعي ممتاز. قبل الدخول إلى قاعة الضريح وضمن الصحن المحيط به نجد النخلة الرائعة و الغريبة الشكل والتي تنطلق من مربع نباتي على يسار المدخل وتلتوي النخلة لترتفع أمام الضريح تصل إلى السماء (أنظر اللوحةرقم 39)، وقد سألنا القائم على الضريح وبعض المختصين فقيل لنا أنها كانت موجودة قبل وفاة الولي وأنه تمنى هو نفسه أن يرقد إلى جانبها وينعم بظلها.

يظهر الباب المؤدي إلى الضريح مأطرا بالزليج، إلى نحو 2,60م في الارتفاع و 1,30، في العرض،و الزليج حديث العهد، وحديث الاستعمال في الضريح، أما الباب المؤدي إلى الضريح فمعقود بعقد نصف دائري، ومطلي باللون الأخضر الداكن، وكذا الباب الخشبي ذو المصراعين مطلي باللون الأخضر الفاتح نصعد إليه بدرج ارتفاعه 20سم، وقبل الدخول إلى الضريح نجد لوحة رخامة حديثة العهد بها الكتابة الآتية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا [1] أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ

ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ

[1] – المصحف الشريف، سورة الفتح الآية رقم 01.

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا

إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا

فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب

صدق الله العظيـــم[1]

قاعة الضريح مربعة الشكل يبلغ طول الضلع فيها 5,60 م أما ارتفاع الضريح فـــ4 أمتار (أنظر الشكل رقم22)، من الخارج قاعة الضريح محاطة بالزليج إلى نحو ارتفاع1,20م من الأسفل إلى الأعلى من الجهات الأربعة (أنظر اللوحة رقم39)،عند دخولنا إلى قاعة الضريح يقابلنا تابوت الولي بن خلوف والذي يتوسط قاعة الدفن والتابوت حديث الصنع مقفل حتى أننا لم نستطع رؤية شادهتي قبر الولي وقد أخبرنا القائم على الضريح أنهم اضطروا إلى وضع التابوت الخشبي وغلقه نظرا لأن بعض النسوة قد سرقن قطعة من الشاهدة اليمنى لقبر الولي .

والتابوت مغطى برداء أخضر عليه آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة مكتوبة بخط ذهبي (أنظر اللوحة رقم 40).

على يمين وعلى يسار المدخل نجد نافذتين معقودتين بعقد نصف دائري طول الواحدة منها 1,10م وعرضها 80سم أما عمقها فـــ60سم وهاتان النافذتان، هما الوحيدتان الموجودتان بالضريح والتي تعملان على إدخال الضوء والهواء، وعقدهما مطلي باللون الأخضر. من الخارج تظهر النافذتان بشباك حديث العهد، استعمله القائمون على الضريح لمنعه من السرقة والنهب.

توجد بالضريح ثلاث حنيات جدارية ذات مقاسات متساوية إذ يبلغ طولها 2,80م وعرضها 2م أما عمقها فـــ 40سم، وهي معقودة بعقد نصف دائري وبكل حنية نجد

[1]- المصحف الشريف، سورة الشرح من الآية 01 إلى 08.

فتحة جدارية على هيئة كوة تتوسط الحنية يبلغ طولها 70سم وعرضها 40سم وكذا عمقها 40سم، وهي مغلقة تستعمل لوضع الشموع بها ، ولها نفس المقاسات، وتجدر الإشارة إلى أن الكوتان الموجودتان مقابل ويسار المدخل محجوبتان عن الرؤية بواسطة رداءان طويلان لونهما أخضر وبهما كتابات قرآنية مذهبة، أما أرضية الكوات فتظهر بزليج حديث العهد غير الشمع من لونه الأصلي فأصبح لونه أخضر رمادي.

ويتم الإنتقال من المربع إلى المضلع بالضريح بواسطة أربعة حنايا ركنية ، وتظهر هذه الأخيرة قليلة الارتفاع مقارنة بوضعها المرتفع في الأضرحة الأخرى.

ويعلو هذه الحنايا الركنية إفريز مضلع يعد فاصلا بين المربع والمضلع، وهو مطلي باللون الأخضر الداكن وفوقه مباشرة تظهر القبة المضلعة ذات 8 أضلاع وهي مطلية باللون الأبيض من الداخل، وتتدلى من مركزها ثريا رائعة تنزل مباشرة فوق تابوت الولى. تظهرالقبة من الخارج مضلعة ذات 8 أضلاع مطلية باللون الأبيض وهي خالية من الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية من الداخل والخارج.

يكسو الزليج جداران قاعة الضريح إلى نحو ارتفاع 1,40م، والزليج حديث العهد وهو مستعمل في البنايات الحديثة،يحمل زخارف نباتية لونها أبيض فى حين تظهر زخارف أخرى باللون الأخظر الفاتح.

كما ان الأرضية تحتوي على بلاطات خزفية ذات اللون الأبيض البسيط وهي مغطات بزرابي كثيرة ذات اللون الأخضر.

زينت جدران الضريح بلوحات حديثة العهد،كما توجد بعض اللوحات التي تحتوي على بعض الأبيات الشعرية من ديوان الولي نفسه وقد وردت ضمن سياق الحديث عن الشخصية.

ولعل ما شد انتباهنا هذه اللوحة التي توجد على يمين المدخل تحتوي الكتابة على ما يلي :

- بسم الله الرحمن الرحيم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

– أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.الله يرحم سيدي الأخضر بن خلوف رتبة ولي الأولياء وشيخ بلد وشاعر مشوعر كفيل ضامن صديق وآف في آمين آمناء ومومن وفا بالوفا وموافات بأمانة وصدق وكيل آلارات ومكلف تسليم الصاحبة وحبيب رب العالمين والنبي العظيم وعباد الله الصالحين وسلطان سلاطين عباد القدر جيلالي خبر سعاد بوعلام مولى بغداد وجلال وجلالة وعزة وعظمة وجلالة ودولة عظيمة وبجلالة بعزيز وعزاز وأعزاء ومعتز وهيب ومهيب أعظم اكبر أكثر كبرى وجسيم الجسام عظيم العظام وعظما عظم ودعوتو مقبولة الله فسمواة وفي الأرض البناء المسجد والقرآن والملك وزواج وجنات جنا الفردوس.

Paradis : jardins Terestre أتبع جن Follet Badin

دوحول بلد برب وعباد الله

Sidi Ameur ElAain

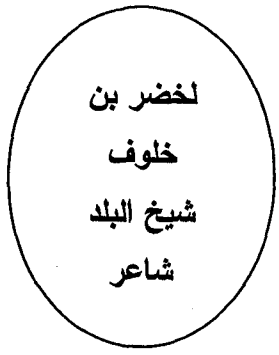

الصالحين

وسيد

عباد

القدر

1 Avril 2004 Avril MM iv

وقد تعذر علينا فهم بعض الكلمات في اللوحة لأنها تظهر غير مفهومة ومكتوبة بصيغة الشعر الملحون.

تظهر في واجهة الضريح وفوق سطحه حلية في أركانه الأربعة على شكل شرافات مسننة يعلوها قضيب حديدي به هلال ونجمة، كما يعلو القبة قضيب حديدي به هلال ونجمة.ويظهر عل يمين الضريح من الخارج بئر غير مستساغ الطعم (مالح)،

وضريح تعلوه قبة للمرحوم:

المرحوم بوفرمة الحاج

أحمد المزداد في عام 1859م

تفي يوم 1973/12/24

وفي عمره 114سنة

وقد لا حظنا غياب شواهد القبور ضمن قاعة الضريح مع وجودها خارج قاعة الدفن، أما ما يميز هذا الضريح هندسته الجميلة ونخلته العجيبة.

أضرحة قصر مغرار التحتاني

يقع مغرار التحتاني في منطقة الأطلس الصحراوي وبالضبط بجبال القصور يحده شمالا مغرار الفوقاني وتيوت ومن الجنوب البنود وواد الجديدة ولوليدات وبلاد البرد ومن الغرب الحدود المغربية ومن الشرق الكدوة[1] .

وتكثر ظاهرة الأضرحة في مغرار التحتاني مثلها مثل القصور المجاورة، فكما هو معروف عن المناطق النائية والتي كانت يوما من الأيام بعيدة عن حضارة المدينة، أنها أرضية خصبة لانتشار الفكر الصوفي، ويبين أبو القاسم سعد الله: " ففي المدن والأرياف، في الجبال الشاهقة والصحاري القاحلة عاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم ...مبتعدين عن صخب الدنيا مؤثرين العزلة والعبادة"[2].

وقد بدت العديد من الأضرحة مهمة للدراسة، ولكننا تعرضنا لأهمها معماريا وتاريخيا، كضريح سيدي الشيخ بجنوب القصر وهو يتوسط المقبرة، وضريح سيدي عبد القادر محمد، الذي يقع بالمقبرة أيضا وهذا ما يبين أن الشخصيات الدينية، غالبا ما تدفن بالقرب من المواقع التي اعتادت الاستقرار بها[3] .

كما يوجد ضريح سيدي إبراهيم وضريح سيدي علي بن عيسى وأخيرا ضريح سيدي عبد السلام الذي ينفرد عن الأضرحة الأخرى ببساطته.

ويلاحظ على أضرحة مغرار أنها بنيت بالجهة الغربية وذلك لخوف سكان القصر من الغارات التي كانت تشن عليهم."[4]

---

[1]- مباركي عبد المجيد: قصر مغرار التحتاني دراسة أثرية معمارية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، السنة الجامعية 1422هـ-2001م، ص 5.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16م- 20م) الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 262.

[3] - Gauvet (c.d.t) Les marabouts petits monuments et votifs du nord de l'Afrique in revue Africaines N) 64- 1923 opu Alger 1986 p291.

[4]- مباركي عبد المجيد: نفسه، ص 46.

الوصف المعماري لأضرحة مغرار التحتاني:

ضريح سيدي الشيخ:

تخطيط الضريح مربع الشكل (أنظر الشكل رقم 23)، بابه مفتوح في اتجاه القبلة بعرض 90 سم وبارتفاع 1,95م والملاحظ أن أبواب أضرحة قصر مغرار التحتاني غير معقودة بأي نوع من العقود، فأبوابها تشبه المساكن.

للضريح ثلاث فتحات مستطيلة طولها 35سم وعرضها 20سم وفتحة بجدار المدخل والأخريين بالجدار الغربي، والشرقي للضريح. وهذه الفتحات ذات تخطيط هرمي حيث يبلغ عرض كل فتحة من الأسفل 35سم، وعرضها من الأعلى 20 سم. ولا نعلم لما صممت هذه الفتحات بهذا الشكل؟

تعلو الضريح قبة تقريبا هرمية الشكل، أو كما يسميها المختصون القبة النصف كروية، ويحيط بالقبة من الزوايا الأربعة قبيبات صغيرة نصف كروية تختلف عن شكل القبة الوسطى وعلى هذه الزوايا الأربعة بنيت شرافات مدرجة[1].(أنظر الشكل رقم 24).

وهذا النموذج من الأضرحة بني تأثرا بأضرحة أولاد سيدي الشيخ، الذين كانوا على علاقة وطيدة بأهالي قصر مغرار التحتاني، مما يبين مدى ارتباط أهل القصر ليس فقط بالنسب والأصل، بل و حتى بالجوانب المعمارية لأجدادهم ...حيث يشبه هذا الضريح ضريح سيدي الحاج الدين بمدينة الأبيض سيدي الشيخ الذي يعد محاطا بأربعة قباب صغيرة والتي لا تحتوي عليها الأضرحة الأخرى[2] .

وقد أشار Rinn إلى أنه في منتصف القرن الثامن عشر أقام سيد الحاج الدين بن الحاج بوحفص قبابا على أضرحة موتاهم [3].

وإذا عدنا إلى ضريح سيد الشيخ ندخل إليه بدرجة ارتفاعها 20سم، يقابل الزائر مباشرة بعد الدخول تابوت أحد أحفاذ سيد الشيخ طوله 2,22م وعرضه 83سم. التابوت يغطي القبر الذي يبلغ ارتفاعه 80 سم و المبني من الحجر، وقد وضعت قطع من القماش

---

[1]- مباركي عبد المجيد: المرجع السابق، ص47-48.

[2] - Gauvet : opcit, p467.

[3] - Rinn : marabouts et khouans, BSGO 1884, p355.

الأخضر فوق التابوت المفتوح من الأعلى، وتقوم داخل الضريح أربعة أعمدة أسطوانية الشكل متناضرة وهي بذلك تشكل مربعا يحوي القبر وجعل هذا التصميم الضريح أشبه ببيت للصلاة وتحمل هذه الأعمدة عقودا نصف دائرية في نهايتها وفوق هذه العقود تقوم القبة المثمنة الشكل من الأسفل ليمتد هذا التثمين في الارتفاع بقياس 40سم لتصبح بذلك في الأعلى بالشكل الهرمي أو الأسطواني ذو المركز الطفيف[1].

وقد أشار Gauvet الى أن:" هذا النوع من القباب موجود غالبا بالمغرب حيث تكون القبة مثمنة الزوايا، محمولة على قسم أسطواني هو الآخر مثمن الزوايا"[2].

ضريح سيدي عبد القادر:

هذا الضريح موجود في المقبرة، وتخطيطه مربع الشكل ويشبه تخطيطه تخطيط سيدي الشيخ الذي ينحدر من أصله سيدي عبد القادر محمد. وقد أشار Gauvet إلى أن عددا من عائلة أولاد سيدي الشيخ في أي مكان دفنو فيه، لهم أضرحة مربعة وكذا رؤساء أو شيوخ الطريقة التيجانية[*][3].

مساحة هذا الضريح اكبر من الضريح الذي سبقه، بابه مفتوح في الجهة الشرقية للقصر، يبلغ ارتفاع الباب 2,05م وعرضه 1,10م وهو غير معقود بأي عقد على غرار الضريح الأول، به أيضا 3 فتحات يبلغ قياس كل واحدة منها 35سم عرضا و 48سم ارتفاعا وهي تعمل على إضاءة وتهوئة الضريح، وتغطيه قبة واحدة تتوسطه من الأعلى ولا تقوم القبة مباشرة على سقف الضريح، بل قامت على بناء مربع الشكل أصغر بقليل من مخطط الضريح وضمن هذا المربع تقوم القبة الأسطوانية، التي تنتهي بشكل مخروطي، ويوجد على سقف الضريح شرافات من الجهات الأربعة[4].(أنظر الشكل رقم25، 26)

---

[1]- مباركي عبد المجيد: المرجع السابق، ص 48-49.

[2] - Gauvet : opcit, p467

[*]- الطريقة التيجانية: نسبة لمؤسسها أحمد التيجاني المولود بعين ماضي سنة 1150. أنظر (لأبو القاسم سعد الله: نفس المرجع السابق، ص 517.)

[3] - Gauvet : Ibid, p468

[4]- مباركي عبد المجيد: نفسه، ص 50.

وقد لوحظ هذا النوع من الأضرحة في الجهة الوهرانية، فهي تحمل قبابا بأشكال أسطوانية ضيقة نسبيا عبارة عن برج، ينتهي بقبة صغيرة ويضيفGauvet :"...أما بسيدي تيفور فإن الدف المربع الذي يرتفع وسط السطح، فينتهي بجذوع تربطه قاعة مربعة السطح...وهذا الطراز من القباب وجد في آسيا، خاصة في الكنائس الأرمينية والروسية وأيضا في منارات مساجد مصر، سوريا وتركيا[1].

بعد الصعود على سلم به 5 درجات نصل إلى باب الضريح وعند الدخول تقابل الزائر الأعمدة على غرار الضريح السابق، ولعل الفرق الوحيد بينه وبين الضريح السابق هو عدد العقود التي تعلو الأعمدة حيث يبلغ عددها 12 عقدا نصف دائري، بينما عددها في الضريح السابق 4.وتنتهي الأعمدة في ارتفاعها بحمل القبة التي تكون بدايتها أسطوانية ونهايتها مخروطية، تمتد 6 عقود على طول الضريح و6 عقود بعرضه. في مؤخرة الضريح وعلى اليسار يوجد قبر يكاد لا يرى فهو غير مرتفع عن الأرض وبه شاهدان يبلغ ارتفاعهما 8سم، وهذا القبر هو لأحد أحفاد سيد عبد القادر محمد. ولعل ما يشد الانتباه بداخل هذا الضريح هو وجود سلم يقود الى الأسفل هذا السلم موجود بالجهة اليسرى للضريح، وهو يتوسط العمودين وتتجه درجاته من يسار الضريح إلى يمينه بعمق يصل إلى 2م، عند النزول إلى الأسفل يوجد فراغ يتسع لشخص أو شخصين على الأكثر يسمى الخلوة[*].

وقد تميز هذا الضريح عن بقية الأضرحة بهذه الخلوة لعظمة وقدسية سيدي عبد القادر محمد، فحفر المعماري هذه الخلوة لتمكين الزاهدين من الاختلاء والخشوع، ولعل التفسير الثاني هو أن الحفرة قد تواجدت قبل بناء الضريح وبني عليها الضريح لأنه يقع ضمن كتلة صخور وقد لاحظ مباركي عبد المجيد أن هذان الضريحان حديثا العهد، فقد تم إعادة

---

[1] - Gauvet : opcit,p469.

[*] – محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره وهذه حقيقة الخلوة . و معناها ...(كمال الدين عبد الرزاق القاشاني: نفس المصدر السابق، ص 52.

بنائهما بعدما كانا بسيطان[1] وأن البعض من عائلة أولاد سيدي الشيخ بنوا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي قبابا على قبور أجدادهم وآبائهم...فهو نوع حديث جدا.

وينبغي البحث عن النموذج الأصلي لهذه الأضرحة باتجاه المغرب الأقصى وفي فاس خاصة لأن " سي سليمان بوسماحة" أحد أجدادهم الأكثر شهرة مدفون بفاس[2].

ضريح الحاج بلقاسم:

وهو ضريح بسيط الهندسة، ينتمي حسب التصنيف الذي وضعه الدكتور أبو القاسم سعد الله و الذي بين فيه " أن أشكال الأضرحة في الجزائر و في شمال إفريقيا عامة 3 أنواع: هناك ضريح المرابط العادي، وضريح المرابط الولي الكبير، وضريح المرابط الكبير المشهور الذي ذاعت شهرته وتجاوزت قبيلته أومدينته[3].

الى صنف أضرحة المرابطين العاديين فهو خال من القبة، والحجر المنحوت هو المادة الأساسية المستعملة في بنائه ولا يتعدى ارتفاعه 2م، أما بابه فقصير يلزم الزائر على الإنحناء، ولا توجد أعمدة ولا عقود، وسقفه يشبه أسقف مساكن القصر حيث سقف ببعض جذوع النخيل يفصلها القرناف، وجريد النخيل، والعرعار لتكسوها بعد ذلك طبقة من الطين. يوجد قبر المتوفي بداخل الضريح ولا نرى سوى الشاهدين وكومة من تراب[4].

وقد صنف Gauvet هذا النوع من الاضرحة ضمن" الأضرحة ذات السقف، على نموذج سقف مساكن الأهالي". وقد ذكر أن هذا النوع من الأضرحة يتوزع على بلاد القبائل وجبال الأوراس والعمور، وتجهل هذه الأضرحة في تخطيطها نظرا لكونها تقع في أماكن لا تلفت انتباه المارة...وعادة ما يسمى من بداخلها بالمخفي أو الجماعة[5].

---

[1]- مباركي عبد المجيد: المرجع السابق، ص 52.

[2] - Gauvet : opcit, p467

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص269.

[4]- مباركي عبد المجيد: نفسه، ص 54.

[5] - Gauvet : ibid, p470

ضريح سيدي سليمان بلحاج:

يعد أكثر الأضرحة بساطة فهو كومة من الحاجرة، أو ما يسمى بالكركار (وهو عدد كبير من الحجارة المتراكمة، وفي بعض الاحيان يأمر المرابط قبل وفاته بوضع هذه الحجارة وكل من ساهم بوضع الحجارة له الثواب[1] ،وتخطيطه مربع، مفتوح بفتحة تمثل المدخل ويسمى عند أهل القصر بالمنطقة أو الحويطة[*][2].

أضرحة قصر تيوت

تقع تيوت في منطقة جبال القصور، التي تعد القسم الغربي من سلسلة الأطلس الصحراوي، يحدها من الشمال النعامة، ومن الجنوب مغرار، ومن الشرق عسلة، أما من الغرب فعين الصفراء، يقع القصرعلى الضفة اليمنى من وادي تيوت، ويبلغ عرضه 22كلم[3].

– بمنطقة تيوت تسمى الأضرحة التي تعلوها قبة أو المغطاة بسقف بالقبة أو الولي، أما الأضرحة التي هي عبارة عن سور لجدار غير مغطى فتسمى بالحويطة.

تحيط بقصر تيوت عشرة أضرحة ذات مخطط دائري حول القصر، بينما يوجد ضريحان في وسط القصر. تتمثل الأضرحة التي تحيط بالقصر في ضريح سيدي عيسى، ضريح سيدي أحمد بن يوسف، ضريح سيدي محمد الكبير، ضريح سيدي منصور وضريح سيدي الصافي وسيدي حدوش ولالة صفية، وسيدي عبد الله بن يحي، ومولاي عبد القادر أما الأضرحة التي تقع في وسط القصر فتتمثل في : ضريحي سيدي سليمان العنتري وسيدي سعيد[4].

والسؤال الذي يطرح : لماذا بنيت أضرحة تعلوها قباب، وأخرى بنيت بسقف بسيط بقصر تيوت؟ وحسب قوراري عيسى فضريحا سيدي عيسى وسيدي أحمد بن يوسف

---

[1] - Dangles (v) : Haouita Haouch M'kam, B.S.G.O. oran, mai 1908, p165

[*] – أماكن مغلقة وغير مغطاة.

[2] – مباركي عبد المجيد: نفس المرجع السابق، ص 55.

[3] – قوراري عيسى: قصر تيوت دراسة أثرية ومعمارية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، السنة الجامعية 1422هـ– 2002م، ص4.

[4] – قوراري عيسى: نفسه، ص76.

يتميزان عن الأضرحة الأخرى بوجود القبة التي تعلو سقف كل منها، وهاتان الشخصيتان لعبت دورا هاما في القصر، ومتميزة عن باقي المرابطين الآخرين، كما أن أحفادهم موجودون في القصر[1].

أ- **ضريح سيدي أحمد بن يوسف:** يظهر الضريح بمخطط مربع الشكل طول جدرانه 3,56م وارتفاعه 2م، يتوسط الجدار الخارجي في اتجاه الشمال باب عرضه 1.3م وارتفاعه 1.8م، يعلوه عقد نصف دائري. توجد فتحة مربعة الشكل في الجدار الجنوبي للضريح، وهي مقابلة للمدخل.تعلو الضريح قبة مثمنة الزوايا ، وهي نوع من المثمن أو المضلع وهو منتشر بكثرة في غرب الجزائر و المغرب الأقصى، وتونس .يحتوي الضريح من الداخل على حنيات جدارية، ويتوسطه قبر حفيد سيدي أحمد بن يوسف المليانى يعلوه تابوت يدل على مكان الدفن أو موضع القبر[2] .

وقد كان هذا الولي قطبا من أقطاب الطريقة الشاذلية، ويعد من خريجي مدرسة تلمسان الفكرية في أواخر القرن التاسع الهجري وهي مدرسة محمد بن يوسف السنوسي، وتوفي في سنة 931هـ ودفن بمليانة حيث ضريحه إلى اليوم[3].

وقد سادت الطريقة الشاذلية في القرن السادس عشر، و يقوم على رعايتها ويحمل اسمها البيت الجزولي..."[4].

ب- **ضريح سيدي عيسى:** ذو مخطط مربع الشكل يتوسط جدرانه الخارجية باب عرضه 1,2م وارتفاعه 1,8م معقود بعقد نصف دائري، على يمين المدخل نجد فتحة صغيرة ذات المخطط المربع، بالضريح حنيات جدارية على غرار الضريح السابق، أما منطقة الانتقال من المربع إلى المثمن فأوسع من الضريح السابق، يعلوها شكل مثمن الزوايا وهو عبارة عن شكل أسطواني مثمن الزوايا.

---

[1]- قوراري عيسى: المرجع السابق، ص78.

[2]- titus Burckardt : l'Art de Islam – Sindbad – Paris 1985,p140.

[3] - Cominardi : Au cœur des morts de Ksar de Chellala- Dahrania, tradition , modernité , H.T.M in revue d'architecture et d'urbanismeN2 Alger1995,p17.

[4]- عبد الفتاح مقلد الضيمي: موسوعة المغرب العربي، المجلد الثاني، مكتبة مدبولي، مصر 1988، ص 93.

توجد بجانب الضريح غرفة مستطيلة الشكل، تمثل ملحقة تابعة للضريح، تستعمل لاستقبال الزوار كما توجد في شال الضريح شجرة[1] .

ج- **ضريح لالة صفية:** يعتبر ضريح لالة صفية[*] من بين أقدم الأضرحة بقصر تيوت من الجانب الأثري، الضريح ذو مخطط مستطيل الشكل بني من الطوب ثم أعيد بناؤه بالحجارة، به فتحتان صغيرتان متناضرتان مستطيلتا الشكل، بني سقف الضريح على شكل مائل من جذوع النخيل وأشجار العرعار تكسوه طبقة من الطين على غرار مساكن القصر. بداخل الضريح أربعة قبور من بينها قبر لالة صفية بينما القبور الأخرى قبور أحفادها[2].

د- **ضريح سيدي سعيد:** يقع بجوار المسجد العتيق، بني وسط القصر، يبدو مخطط الضريح مستطيل الشكل، بني من الطوب والحجارة، يتوسط جدرانه باب يفتح على السلم الذي يؤدي إلى سطح المسجد، سقفه على نموذج مساكن الأهالي.

بالضريح ثلاث فتحات صغيرة و تؤدي إليه عشر درجات[3].

هـ- **ضريح سيدي عبد الله بن يحي:** ذو مخطط مستطيل الشكل، به باب فتح في اتجاه الشرق والضريح غير مغطى، وهو عبارة عن سور، و ما يلفت الانتباه في هذا الضريح هو أنه النوع الوحيد الموجود بقصر تيوت . و غالبا ما يكون على شكل دائري.

أما ضريح سيدي حدوش : الذي يقع في الشمال الشرقي من القصر، فمجرد قبر عادي[4]. لقد كان لتأثير الطريقة الشاذلية والقادرية أثرا بالغا على النمط المعماري، كما يلاحظ أن أضرحة سيدي بن عيسى وسيدي أحمد بن يوسف بتيوت تختلف في تخطيطها وهندستها المعمارية عن قباب مغرار التحتاني، رغم أن المنطقتين متجاورتين ويعرف

---

[1]- قوراري عيسى:المرجع السابق، ص82.

[*]- هي بنت سيد سليمان بن بوسماحة وهي أم سيدي يحي الذي دفن بسبدو وهي جدة أولاد نهار ويقال أنها ولدت بعد 1490م....(ينظر الى وثائق حول وعدة سيدي أحمد المجدوب بعسلة 1995، ص 02.)

[2]- قوراري عيسى: نفسه، ص84.

[3]- نفسه، ص85.

[4]- نفسه، ص86.

الاختلاف لتأثر منطقة تيوت بالطريقة القادرية (نسبة لعبد القادر الجيلاني) أما القباب ذات الشكل الأسطواني الخفيف، عند المركز و التي تنتهي سطوح أضرحتها بقبيبات جانبية، فتمثل الطريقة التيجانية[1].(أنظر اللوحة رقم 41)

أضرحة عين تموشنت (عين الأربعاء) نموذجا

تقع بلدية عين الأربعاء في الجهة الشرقية من ولاية عين تموشنت تحدها من الشمال سبخة وهران، ومن الجنوب بلدية سيدي بومدين، ومن الشرق بلدية وادي الصباح وتمزورة، ومن الغرب بلدية حمام بوحجر، تبعد عن وهران ب61كلم ، وعن مركز الولاية عين تموشنت ب30كلم ...يحدها شمالا سهل ملاتة وسفوح جبال تسالة جنوبا[2].

نجد بمنطقة عين الأربعاء أضرحة مغطاة بقباب والقبة تظهر بأنواع مختلفة:

أ-أضرحة ذات قباب هرمية أو قريبة من هذا الشكل ويمثل هذا النوع من القباب كل من ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، وضريح سيدي الفروي وضريح سيدي بلحضري، (أنظر الشكل رقم 42)، وضريح سيدي داود .

ب-أضرحة ذات قباب نصف كروية أو قريبة من ذلك مثل ضريح سيدي الصحجي، سيدي بن حليمة.

ت-ضريح ذو قبة مضلعة الشكل: ويمثله ضريح سيدي سعيد البجائي (أنظر الشكل رقم43).

ث-ضريح ذو قبة بيضاوية الشكل ويمثله ضريح سيدي مشحودة.

ج- ضريح ذو سقف جمالوني مغطى بالقرميد ويمثله ضريح سيدي بن عبو (أنظرالشكل رقم 44). وهكذا يمكن تقسيم أضرحة عين الأربعاء إنطلاقا من وجود القبة أو عدم وجودها إلى قسمين:

I. أضرحة ذات قباب مختلفة الأشكال ويبلغ عددها الإجمالي عشرة أضرحة هي:

1- ضريح سيدي الفروي 2- سيدي عبد القادر 3- سيدي سعيد

---

[1]- Gauvet : opcit, p470.

[2]- السراج خالد : المقدس ودلالته في المجتمع الجزائري الضريح بمنطقة عين تموشنت نموذجا، درساة فنية معمارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، السنة الجامعية 2001-2002، ص 59.

4- سيدي الوافي بلحضري 5- سيدي الصحبي 6- سيدي بن حليمة

7- سيدي مشحودة 8- سيدي الجيلالي 9- سيدي عبد القادرالجيلالني

10- سيدي داود .

II. الأضرحة غير المغطاة بقباب وعددها 14 ضريحا ويمكن تصنيفها إلى قسمين:

أضرحة مبنية بشكل حسن كضريح سيدي عبد الله وأخرى رديئة، البناء عبارة عن أحجار مرصوفة حويطة[1].

خصائص الأضرحة:

لم نجد اختلافات كثيرة في نظام بناء أضرحة ولاية عين تموشنت أكانت مغطاة أو مكشوفة، وقد يختلف ضريح عن آخر في حجمه أو في طول جدرانه، أو علو قبته، ولكنها في أغلبيتها مزينة بشرافات مسننة إلا أنها تخلو من أي بعد جمالي.

إن اختلاف أشكال هذه الأضرحة يرجع للتقاليد المعمارية،و المفاهيم الخاصة بكل منطقة، ولعل الزائر لا يقصد هذا المكان لإشباع رغبة جمالية، ولا لكون الضريح يتضمن هندسة معمارية خاصة تجعله متغايرا مع ما هو مألوف في عمائره الدينية أو الدنيوية(المساكن والمساجد)، وإنما الذي يدفع الزائر هو غاية نفعية بحتة[2] .

ولعل الملاحظة العامة على الأضرحة الشعبية إذا ما قارنا فيما بينها، أنها بسيطة في البناء إذا استثنينا ضريح الأخضر بن خلوف الذي يظهر بمسحة عصرية ويظهر جميلا، وأن القباب المختلفة المستعملة فيها وليدة المنطقة، تتحكم فيها التيارات الدينية والظروف البيئية، وأن الشرافات عامل مشترك فيها.

والشرافات تسمى أيضا عرائس السماء، وهي عناصر زخرفية، لازمت العمارة الإسلامية منذ فترتها المبكرة وهي تحمل دلالة فنية جمالية بالدرجة الأولى وفكرة إنشائية تشير

---

[1]- السراج خالد: المرجع السابق: ص 133-134.

[2]- نفسه: ص 135.

إلى النهاية العلوية للجدران في الدرجة المشرفة على الصحون، وقد استعملها الفنان المسلم كعنصر فني جمالي واستخدمه في التزيين والتنميق.[1].

[1]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية في امارة تلمسان الزيانية دراسة أثرية معمارية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الاثار الاسلامية، جامعة الجزائر، معهد اللآثار سنة 1999 ،ص 831.

الباب الثالث:

دراسة تحليلية لأضرحة الغرب الجزائري

◈ الفصل الأول

- الأبعاد الدينية والتاريخية
- العناصر المعمارية للأضرحة

◈ الفصل الثاني

- مقارنة من الناحية المعمارية

دراسة تحليلية لأضرحة الغرب الجزائري:

دراسة مقارنة بين الأضرحة السلطانية:

ان الهدف من وراء دراستنا لهذا الفصل، هو تبيين أوجه الشبه، وأوجه الإختلاف، بين الأضرحة السلطانية فيما بينها أولا، ثم أوجه الشبه والإختلاف بينها وبين الأضرحة الشعبية، ولعلنا لن نمر على المقارنة بين الأضرحة السلطانية فيما بينها قبل أن نتحدث عن الأبعاد التاريخية والدينية للمؤسسين :

1-الأبعاد التاريخية والدينية للمؤسسين:

لقد تم تأسيس أضرحة : سيدي ابراهيم المصمودي، وبن مرزوق الحفيد، والشيخ السنوسي، وضريح سيدي الحلوي من طرف سلاطين زيانين .

لقد أسس ضريح الحفيد بن مرزوق، أول المؤسسين للدولة الزيانية العريقة يغمراسن ابن زيان، الذي كان يعد شخصية عظيمة لحنكته وضلوعه بأمور الحكم والملك، والمستاثر دون الملوك بالخلال السنية.[1]

وقد دفن يغمراسن ضمن الضريح الذي أنشأه لدفن محمد بن مرزوق، ومع أن الدولة الزيانية في عهدها الأول تميزت بالبساطة لقرب عهدها بالعهد الموحدي، الذي غلب عليه الطابع الديني، الا أن يغمراسن كان حريصا على العمارة فقد إبتنى قصرا جديدا وهو ما يعرف بالمشور، كما أنه ابتنى الصومعتين بالجامعين الأعظمين من تاجرارت وآغادير.[2]

لقد كانت الدولة الزيانية في بداية عهدها بطيئة الحركة في مجال الفنون، ففي عهدي أبي حمو موسى الأول، وإبنه أبي تاشفين، عرفت الفنون تقدما بطيئا للغاية بتلمسان لأن الشعب كان لا يزال يحتفظ بخشونة الحياة البدوية.[3]

---

[1] -BARGES : complément de l'histoire, P 05.

[2]- أبو يحي زكرياء ابن خلدون: المصدر السابق، ص 207 .

[3] - William et Georges marçais: les Monuments…P 35-36.

أما ضريح سيدي إبراهيم المصمودي، فقد شيد من طرف السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي عرفت خلاله تلمسان تطورا ملحوظا، وقفزة هائلة في مجال الفنون، فقد كان لهذا السلطان الذي نشأ بغرناطة واستنشق من هوائها، حبه العميق للفنون والآداب، بالغ الأثر في إثراء التراث المعماري لمدينة تملسان، فزيادة عن أنه أعاد إلى تلمسان استقرارها وهيبتها، بعد الرحيل النهائي للمرينين من تلمسان، فقد أنشأ المدرسة اليعقوبية* إذ أنه بناها تمجيدا لروح والده (أبي يعقوب) كما دفن بها عميه[1]، ومع أن المدرسة اندثرت الا أنه بقي لنا المسجد والضريح الذي كان يحوي "آل زيان" والد ابو حمو موسى وعماه، وكان يسمى في الأول روضة بني زيان وعندما دفن فيه الولي سيدي ابراهيم المصمودي انتسب له الضريح والمسجد.

الضريح الثالث الذي أسس من طرف سلطان زياني هو ضريح سيدي الحلوي، وقد شيد من طرف السلطان "أبو زيان محمد بن عثمان حفيد يغمراسن" ،وفترة هذا السلطان الزياني من أصعب الفترات التي مرت بها مدينة تلمسان، فقد عاش والده حصار تلمسان من طرف "أبي يعقوب يوسف"، وقد توفي هذا الاخير وتلمسان وسكانها يعانون الأمرّين ثم تولى السلطة بعد أبيه و لم يكن حظه أوفر بكثير من حظ أبيه، فمع أنه شهد زوال الحصار عن مدينة تلمسان الا أن المرض لم يمهلة طويلا فمات تاركا الحكم لأخيه، "أبي حمو" من بعده[2]، ولعل الأسباب الواردة آنفا جعلت من ضريح الحلوي ضريحا بسيطا مجردا من كل تنميق وزخرفة.

أما آخر ضريح وهو للشيخ السنوسي، فقد أسس من طرف السلطان أبو عبد الله محمد الثالث المعروف بالثابتي المعروف نسبة إلى جده ثابت، وكان فطنا ذكيا حسن التدبير وضبط أمور مملكته"[3]، ولكن الضريح الذي دفن فيه السنوسي، يظهر بسيط، ولا يعود

---

* اليعقوبية: نسبة لوالد ابي حمو موسى الثاني ابي يعقوب، وقد كانت جزء من مجمع يحتوي على مسجد ومدرسة وضريح، ولكن المدرسة إندثرت و لم يبقى منها أي اثر (أنظر William et Georges Marçais : les monuments... P302.)

[1]- محمد عمرو الطمار:المرجع السابق، ص 178.

[2]- نفسه، ص 112.

[3]- نفسه، ص 216.

ذلك لفقر الدولة أو الى اضطرابات سياسية، وانما يرجع لطبيعة الولي نفسه، اذ كان يعرف بالتواضع الشديد، وبزهده الذي طغى على كل جوانب حياته إذ يقول السنوسي نفسه: "طفت بهذه العوالم كلها من العرش إلى الفرش، و لم ارى منها ما يسرني فلم آمل لشيء منها بالكلية".[1]

كما يواصل Berque : "هذا هو المعلم الذي يناسب السنوسي ان تواضعه كان سيترعج من الزخرفة المقبرية المبالغ فيها والتي تسلط على قبور العضماء".[2]

إذن فالضريح عكس شخصية صاحبه ببساطتها، وتواضعها، وترفعها، عن كل زينة الحياة الدنيا.

أما الضريح الذي سيرد الحديث عنه، فهو ضريح سيدي أبي مدين، والذي يترأس الأضرحة السلطانية التي ورد الحديث عنها في هذا السياق، وقد أسسه السلطان أبو الحسن المريني* ،وهو لا يعد الوحيد الذي ساهم في بناء ضريح سيدي أبي مدين، ولا كنه أحسنهم إبداعا وأوفرهم إثراء لهذا المعلم.

وقد عرف الفن مع الدولة المرينية، أوج العظمة والتقدم، وخير دليل على ذلك المخلفات الرائعة التي تركوها شاهدة على عظمتهم.[3]

ضريح سيدي الهواري بوهران، هو آخر ضريح سلطاني نتناوله بالدراسة، وقد أسسه محمد الباي الكبير، وهو محمد باي ابن عثمان باي رحمه الله، أنشأ عدة مبان في عهده وتدل على ذلك الكتابة الموجودة في مسجد عين البيضاء بمعسكر: أما بعد أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان السيد "محمد باي بن عثمان".

---

[1] - J.Berque, l'Algérie, terre d'art et d'histoire, P 206.

[2] - J. Berque : Ibid, P 206.

* أبو الحسن المريني، السلطان المريني الذي يمثل أعظم دولة حكمت المغرب الإسلامي في الفترة ما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة (13 و16م)، كان يجمع من إعتدال الخلق وجودة الإدراك وحسن الفهم، ولعل أهم إنجازاته بتلمسان جامع سيدي أبي مدين والمدرسة إلى جانبه وقصرا لراحته عدا ترميم الضريح، وقد سار ولده أبو عنان فارس على نهج أبيه (أنظر محمد ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح.... ص 125).

[3]- سيدي محمد الغوتي بسنوسي: المرجع السابق، ص 353-354.

كما نجد في كتابة أخرى: هذا بيان محبسات السلطان ابن السلطان السيد "محمد بـــاي بن سيد عثمان" رحمه الله على المجمع الأعظم الكائن في حومة سيدي علي بن محمد الذي أنشأه وشيده مع مدرسة الحايطة ودار الوضوء الغربية منه مع الجبانة المحايدة له أيضا، كما أمر "محمد باي" بعملية الترميم التي قام بها صرمشيق في تلمسان".[1]

2-مقارنة الأبعاد المعمارية والفنية بين الأضرحة السلطانية:

أردنا أن نبدأ بمقارنة الأضرحة السلطانية فيما بينها، ثم ننتقل لمقارنتها مـــع الأضـــرحة الشعبية،و قد ظهرت الأضرحة السلطانية بنوعين من المخططات :

2-1 المخططات :

أ-الأضرحة المغطاة بقبة:

مع أن معظم الأضرحة السلطانية التي تناولتها بالدراسة تعلوها قبة بإســـتثناء ضـــريح سيدي الحلوي، إلا أن مخطط ضريح سيدي الهواري يختلف عن هذه الأضرحة قليلا مـــن حيث المخطط، إذ أنه لا تسبقه قاعة أو صحن قبل الوصول إلى قاعة الضريح.

تحتوي أضرحة سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم المصمودي وابن مرزوق الحفيد على تقريبا نفس المخططات، صحن ضريح سيدي أبي مدين ذو مخطط قريب من المربع يبلـــغ طوله 5.40 م والمدخل المؤدي إلى الضريح يقع على يمين المدخل، في حين نجد قاعة الدفن ذات مخطط مربع الشكل طولها 6.50 م وعرضها 6.30 م بها ثـــلاث حنيـــات جداريـــة وتعلوها قبة، أما ضريح سيدي إبراهيم المصمودي فمسبوق بصحن مكشوف ذو مخطـــط مربع الشكل طول ضلعه 5.65 م أما مدخل قاعة الدفن فمقابل مباشرة لبـــاب المـــدخل الرئيسي، قاعة الدفن بهذا الضريح قريبة من المربع يبلغ طولها 8.30 م بها ثـــلاث حنيـــات جدارية وتعلوها قبة، أما ضريح الحفيد إبن مرزوق فمسبوق بصحن مستطيل الشكل طوله 2.62 م وعرضه 1.44 م وهذه القاعة غير مغطاة تتوسطها شجرتين هائلتين.

---

[1] - Dr leclerc : opcit : R Africaine n4, p 42-46.

أما مدخل الضريح فمقابل مباشرة للباب الرئيسي، قاعة الضريح يبلغ طولها 5.70 م وعرضها 5.10 م، وبالضريح 3 حنيات جدارية وتعلوه قبة.

والملاحظ أن هذه الأضرحة الثلاثة تتشابه كثيرا فيما بينها وتتشابه مع مخططات الأضرحة المملوكية، إذ أن الأضرحة في العصر الأيوبي أصبحت جزء من المساجد وواصلت على نفس المنوال في العصر المملوكي، أين نجد الضريح جزء من المسجد ومرافقه، وبما أن هذه الأضرحة الثلاثة (سيدي أبي مدين، سيدي إبراهيم المصمودي والحفيد إبن مرزوق) هي أجزاء من المساجد والمجمعات فقد ظهرت متشابهة في مخططاتها، فمثلا في مخطط مدرسة السلطان حسن الموسومة بسمة المدرسة الضريحية، نجد بها مباني خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة، يشتمل كل من هذه البنايات على صحن صغير وقاعة للدرس وغرف من عدة طبقات[1]. ولعل مجمع سيدي أبي مدين هو الأقرب إلى مخطط مدرسة السلطان حسن إذ أنه يحوي المدرسة بغرفها، ومن حسن الحظ أن هذا المجمع قد بقي شاهدا لم يختفي كما اختفت المدرسة اليعقوبية بسيدي إبراهيم المصمودي، والمدرسة التاشفينية* بالجامع الأعظم بتلمسان.

كما نجد نفس المجمع مع بعض الإختلاف في الأضرحة العثمانية، التي تعد وثيقة الصلة بالمساجد كضريح محمد الفاتح، وضريح زوجته كلبهار خاتون، الذان يتواجدان خلف محراب المسجد الذي ينتسب إلى محمد الفاتح بإستانبول".[2]

ومع أن ضريح السنوسي تعلوه قبة، الا أن الإختلاف بينه وبين الأضرحة الثلاثة السابقة ، ظاهر لأنه لا يعد جزء من مجمع معماري فهو موجود ضمن روضة مكشوفة، ضمن المقبرة العظمى بتلمسان، أما مخططه فقريب من المربع ، وتعلوه قبة، ضريح سيدي

---

[1]- ارنست كونل: المرجع السابق، ص 106.

* كانت المدرسة التاشفينية متواجدة بالقرب من ضريح الحفيد ابن مرزوق وكان بابه يدعى باب المدرسة التاشفينية ولكن بعد زوالها انتسب إلى الحفيد بن مرزوق (أنظر محمد رمضان شاوش: نفس المرجع السابق ص 213).

[2]- أوقطاي آسلان آبا: المرجع السابق، ص 227.

الهواري ليس به صحنا ولا روضة تسبقه، ويظهر مخططه قريبا من المربع ويبلغ طوله 6.35 م وعرضه 6.10 م وتعلوه قبة.

ولعل العامل المشترك بين هذه الأضرحة هي القبة، التي تعلو أسقفهم وكذا الحنيات الجدارية التي لا تخلو منها جدران أي ضريح.

ب-الأضرحة المغطاة بسقف هرمي:

مخطط ضريح سيدي الحلوي مستطيل الشكل، يبلغ طول الغرفة 7.30 م وعرضها 2.05 م وهو لا يحتوي على صحن، بل يتألف من غرفة الدفن فقط به 3 كوات جدارية وهو مغطى بسقف هرمي الشكل يكسوه قرميد بني.

كما تجدر الاشارة إلى أن ضريح السنوسي، وإن كان مغطى بقبة إلا أنه يظهر من الخارج بسقفي قرميدي هرمي الشكل، والقرميد لونه أخضر، وسقفه على غرار سقف ضريح سيدي أبي مدين.

2-2- العناصر المعمارية:

أ-المحاريب:

تطورت عمارة المساجد، و أضيفت اليها أجزاء من العمائر المسيحية، والمحراب قد يكون منقولا عن حنية في صدر الكنيسة متجهة في معظم الأحيان إلى الشرق أي إلى بيت المقدس[1]. وهو عبارة عن تجويفة مضلعة أو نصف دائرية يكتنفها عمودان يقف بها الإمام للصلاة بالجماعة ويدل على جهة القبلة،و قد تطور المحراب من التقاليد المسيحية وغير وجهته شطر المسجد الحرام وأصبح عنصرا معماريا أساسيا في عمارة المساجد. وقد لاحظنا وجوده في الأضرحة إما على شكل حنية جدارية مقابلة للضريح، وفي إتجاه القبلة كما في ضريح سيدي أبي مدين، وسيدي إبراهيم المصمودي وسيدي الهواري وسيدي السنوسي أو على هيئة محراب بسيط كما في ضريح سيدي الحلوي على يسار التابوت،

[1]- زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ص 21.

وأيضا محراب بسيط في ضريح إبن مرزوق الحفيد يوضح إتجاه القبلة، وهـــو في ســـيدي الحلوي عبارة عن حنية مضلعة يعلوها عقد حذوي يرتكز على عمودين صغيرين (أنظـــر الشكل رقم 18).

والمهم في حديثنا عن المحاريب، هو أنها موجودة في كل الأضرحة التي درسناها وهـــي جزء أساسي من الإطار المعماري للضريح مع أن هذا الأخير لا تقام الـــصلاة بـــه لا في المشرق ولا في المغرب.

كما يشير "ثروت عكاشة" إلى وجود المحاريب في الأضرحة بالقاهرة، مـــع العلـــم أن الصلاة لا تقام بها ومن الملاحظ أن هذه المقابر والمدافن لم تستخدم قط كمـــساجد، وإن إشتملت على محاريب، وحرص المصريون على إقامة صلاة الجنازة في مساجد خاصـــة او في زوايا مزودة بمحاريب تلحق باحدى المدارس القريبة من المقابر. وقد كان ذلك في عهد المماليك[1]، ولعل السبب في وجود المحاريب بداخل الأضرحة يعود إلى الرغبة في اتـــضرع إلى الله بالدعاء في إتجاه القبلة، والمحراب يمثل وجهة القبلة.

ب-العقود:

إستعملت في الأضرحة المدروسة (ضريح سيدي أبي مدين، ضريح ســـيدي إبـــراهيم المصمودي، ضريح سيدي الحلوي، ضريح سيدي السنوسي، ضريح بن مرزوق الحفيـــد، ضريح سيدي الهواري)، أنواع مختلفة من العقود كالعقد الحذوي، والعقد النصف الدائري والعقد المذبب، و قد انفرد ضريح سيدي أبي مدين بالعقد المخموس والعقد المفصص.

ت-النوافذ والفتحات:

استعملت النوافذ في الأضرحة للتهوئة والإضاءة، ونجدها في أضرحة سيدي أبي مـــدين وابراهيم المصمودي، وسيدي الهواري والسنوسي وبن مرزوق للإضاءة والتهوئة وتظهر في ضريح سيدي أبي مدين : على شكل شمسيات تنتهي بقوس مزدوجة ومزينة بتـــشبيكات هندسية على الجص، أما في مستوى أعلى فنوافذ أصغر حجما، معقودة بعقد نصف دائري

---

[1]- ثروة عكاشة: المرجع السابق، ص 138.

تدخل الضوء عن طريق قطع زجاجية ملونة تعمل على تخفيف الضوء، أما بضريح سيدي إبراهيم فتظهر على شكل شمسيات معقودة بعقود نصف دائريـــة، ومحـــلات بزخـــارف هندسية تقوم بإضاءة وتهوئة الضريح، وهي تدخل الهواء على عكس تلك الموجودة بسيدي أبي مدين فهي تدخل الضوء فقط، أما في ضريح ابن مرزوق فنجد النوافذ المعقودة بعقود نصف دائرية تعمل على إدخال الضوء والهواء، كما نجد نافذة كبيرة أغلب الظـــن انهـــا فتحت في السنوات الأخيرة لإدخال الضوء والهواء للضريح. بضريح سيدي الهواري نجـــد نافذتان معقودتان بعقد نصف دائري، واحدة أكبر من الأخرى وبهما أربعـــة مربعـــات يحتويان على سلسلة من المعينات الزجاجية الصغيرة متعددة الألوان من الأخضر والأبـــيض الشفاف، والأزرق السماوي، تعلوهما سلسلة من المشربيات، وهاتان النافذتان تعمـــلان على إدخال الضوء والهواء إلى الضريح، بضريح السنوسي تظهر النوافذ معقودة بعقد منحن كما توجد فتحات مستطيلة الشكل في أعلى النوافذ للتهوئة وإدخال الضوء.

في حين نلاحظ إنعدام النوافذ بضريح سيدي الحلوي، وبالتالي إنعدام الهواء والضوء لذا نلاحظ الحالة المزرية التي وصل إليها الضريح بفعل الرطوبة، كما أن حالة ضريح السنوسي غير مرضية تماما، إذ أن الضوء والهواء قليل، مما أثر سلبا على حالة الضريح من الـــداخل وجعل الرطوبة تقضي على الكثير من عناصره المعمارية.

ث-الأعمدة والتيجان:

إستعملت الأعمدة في ضريحي سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم المصمودي بالـــصحن وهي من المرمر، تعلو أعمدة ضريح سيدي أبي مدين تيجان من المرمر جلبت مـــن قـــصر النصر الذي شيده أبو الحسن بالمنصورة[1]، أما أعمدة ضريح سيدي إبراهيم المصمودي فمن المرمر لكنها لا تتوجها تيجان كما ان هذه الأعمدة قصيرة يبلغ قطرها 0.55 م وأغلـــب الظن أنها قد جلبت من آثار المنصورة، ولعل أعمدة ضريح سيدي أبي مدين أحسن حـــال من الأعمدة الموجودة بضريح سيدي إبراهيم إذ أن بهذا الأخير قد تجرد إثنان منـــها مـــن

[1] -William et Georges Marçais : les Monuments P 263.

المرمر وأصبحت فقط من الحجر وذلك لأن الصحن مكشوف. بضريح سيدي الحلـــوي يوجد عمودان بسيطان بالمحراب.

وقد لاحظنا غياب الأعمدة بضريحي سيدي الهواري وسيدي ابن مرزوق أما بـــضريح السنوسي فنجد أعمدة وتيجانا بدون زخرفة ضمن زخرفة القبة.

ج-التيجان:

ان التيجان المستعملة في صحن ضريح أبي مدين قد جلبت من قصر النصر، الذي بناه أبوالحسن المريني بالمنصورة[1]، ولابد من الاشارة إلى أن المرينين قد استعملوا نوع التيجـــان الزيانية في المنصورة ونجد إثنان منها بصحن ضريح سيدي أبي مدين وهي علـــى شـــكل تيجان يحمل جزءها السفلي زينة عبارة عن تعرج أين نجد الزخرفـــة النباتيـــة غـــصينات وزهيرات لم نشاهدها من قبل في المعالم الدينية".[2]

كما نجد تيجان كرنثية بمدخل ضريح سيدي أبي مدين تعلو عمودان خشبيان ولا نجد أثرا للتيجان بأضرحة سيدي الحلوي وسيدي الهواري وسيدي إبراهيم المصمودي وسيدي بن مرزوق.

ح-السقوف:

تظهر أسقف الأضرحة مختلفة فمنها ما تعلوها قبة ظاهرة من الخارج ومنها ما تعلوهـــا قبة يغطيها القرميد من الخارج، ومنها ما هو غير مقبب.

ينتمي ضريح سيدي أبي مدين إلى الطراز المريني، وقد اختلفت القبات المرينية نفـــسها من حيث الشكل والحجم، ومن حيث مناطق انتقالها، من التربيع إلى الإستدارة وما لحـــق بها من زينة وزخرفة، كما غطيت بعضها من الخارج بهيكل مبني مربع الشكل غالبـــا مـــا يعلوه سقف منحدر هرمي من القرميد يخفي المظهر الخارجي للقبة.[3]

---

[1] - William et Georges Marçais : les Monuments…p 234.

[2] - Rachid Bourouiba : Apports de l'Algérie a l'architecture religieuse Arabo-Islamique, office des publications universitaires-Alger, 1986, p 108.

[3] - عبد العزيز لعرج: المباني المرينية ....الجزء الثاني، ص 584.

تظهر قبة ضريح سيدي أبي مدين مقسمة إلى 12 لوحة بواسطة 24 عقدا نصف دائري وينتهي تنظيم التشبيكات الهندسية بنجمة ذات 24 رأسا، أما من الخارج فتظهر مغطاة بسقف ذو أربعة أرداف مغطى بقرميد أخضر شفاف (أي هرمي الشكل مغطى بقرميد).

"وهذا الأسلوب مميز في تغطية قباب المباني المتنوعة في المغرب والأندلس تماشيا مع المحيط الطبيعي والظروف المناخية".[1]

وقبة ضريح سيدي أبي مدين مضلعة ونجد التضليعات في طاقيات* القباب المرينية في تلمسان على نوعين من القباب: القبة الجصية في ضريح سيدي أبي مدين والخشبية في المدرسة، وقد جمعت طاقية قبة الضريح بين طاقيات القباب ذات الأضلاع المتقاطعة والأضلاع الرأسية المتفرعة من القمة إلى الأسفل وهذا الجمع بين النظامين ساد كثيرا القباب المرينية في مدنهم بالمغرب الأقصى وخاصة في فاس".[2]

بينما تظهر قبة ضريح سيدي ابراهيم المصمودي ذات ثمانية أضلاع أي مثمنة الشكل وهي النموذج الوحيد الذي بقي لدينا بعد استقرار الزيانيين من جديد بعد رحيل المرينيين النهائي إلا أنها اليوم في حالة تبعث على الحسرة إذ إختفت كل معالمها بفعل الرطوبة وإنعدام العناية، أما من الخارج فهي مزينة بصف من الشرافات ذات السبعة فصوص.

في ضريح بن مرزوق الخطيب نجد القبة المضلعة (ذات 8 أضلاع) وترتكز على أسطوان مربع، كما تظهر القبة من الخارج مضلعة ذات 8 أرداف، وتخلو هذه القبة من أية زخرفة من الداخل والخارج فهي مطلية بالون الأبيض من الداخل والخارج.

بضريح السنوسي نجد القبة التي تعلو الضريح نصف كروية، تحتوي على 12 ردفا يغطيها من الخارج سقف هرمي، ينتهي بقضيب معدني تعلوه تفاحة وهلال نحاسيان على غرار قبة ضريح سيدي أبي مدين.

---

[1]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية...، ص 588.

* طاقية: الطاقية هي قشرة القبة، وتكون على هيئة نصف كروية أو كروية ذات مقطع جانبي (أنظر عبد العزيز لعرج: نفس المرجع السابق، ص 584).

[2] - maslow,: les mosquées de Fès et du nord du Maroc, les éditions d'art et d'histoire, paris 1937, P 42.

وقد أورد الأستاذ بوقلي حسن تفاصيل زخرفة قبة السنوسي، التي تعذر علينا رأيتـــها وقراءتها نظرا للون الأحمر الداكن الذي دهنت به كل الزخرفة، وهذا نتاج عمليات الترميم الخاطئة التي تعرض لها الضريح.

"وزينت القبة في نصفها الأسفل ببوائك صماء، عددها يساوي عدد الأضـــلاع (12) رفعت أقواس هذه البوائك على أعمدة جصية بتيجان خالية من الزخارف، أما الفواصـــل الموجودة بين الأقواس والمتمثلة في الطبلة والبنيقة فهي مزدانة بتوريق جصي خفيف، وأنيق وأما حنية العقود فجاءت مفصصة".[1] تحتل مركز القبة محارة ذات 16 باتلات.

آخر الأضرحة السلطانية المقببة، ضريح سيدي الهواري، الذي تعلوه قبة ذات الثمانيـــة أضلاع، كل ضلع من أضلاعها تزينه شمسيتان شفافتان، مربعتان لإدخال الضوء ، أما من الخارج فتظهر القبة هرمية الشكل، ذات أربعة أرداف مطلية بالأبيض.

لا تحمل قبة ضريح سيدي الهواري المطلية بالأبيض من الداخل والخارج أيـــة زخرفـــة كتابية أو هندسية.

وكل هذه القباب تشترك في وجود الثريا التي تتوسط مركز القبة، من الداخل وتتـــدلى مزينة الضريح وكذا تشترك في منطقة الإنتقال من المربع الى المضلع، فباســـتثناء ضـــريح سيدي الهواري، يتم الإنتقال من المربع إلى المضلع بواسطة أنصاف أقبية متقاطعة في حـــين يتم الانتقال في سيدي الهواري، بمثلثات كروية. كما تشترك هذه القباب في عنصر معماري أساسي ألا وهي منطقة الانتقال :

[1]- جمال الدين بوقلي حسن: المرجع السابق، ص 25.

د-منطقة الانتقال و قد تكون :

1-منطقة إنتقال عادية شبه مسطحة، على هيئة مثلث قاعدته في الأعلى ناتج عن قطع الزوايا ،بخط يمتد على ربع ضلع التربيع[1]، وقد استخدم هذا النوع في قبة ضريح سيدي الهواري.

2-منطقة انتقال غائرة عبارة عن حنايا ركنية على هيئة نصف قبو متقاطع، استخدم كطريقة حل للإنتقال من التربيع إلى الشكل الثماني، الذي اتخذ قاعدة لرقبة القبة المستديرة التي قامت عليها طاقيتها مباشرة، وقد استخدم هذا النوع من الحنايا الركنية في قبة ضريح سيدي أبي مدين، كما استعملت هذه الطريقة بكثرة في المباني المغربية، وخصوصا في الأضرحة والحمامات والمساكن".[2] و الواقع ان الحنايا الركنية كعنصر معماري ليست وليدة الفترة الاسلامية، و لكنها ذات اصول قديمة استفاد فيها المسلمون، من التجارب المعمارية للشعوب القديمة و خاصة شعوب المشرق، التي تداولت حضارتها على وادي الرافدين وبلاد الساسان فأول مظهر للحنايا الركنية ظهر في القصور الساسانية، في سيوة في أوائل القرن 5 م.[3]

وقد وجدنا نفس هذه الحنايا الركنية التي على هيئة نصف قبو متقاطع في أضرحة سيدي السنوسي، وسيدي إبراهيم المصمودي وأخيرا بن مرزوق الحفيد.

ويظهر سقف سيدي الحلوي هرميا بسيطا، يكسوة قرميد بني من الخارج وقد تآكل من الداخل بفعل الرطوبة.

ر-المداخل:

ان التكوين المعماري للمداخل المعمارية، في بروزها عن الواجهات وجدرانها سواء كانت رئيسية او جانبية، كانت قد تجلت بصورة واضحة في المباني الموحدية في المساجد

---

[1]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية...، ص 588.

[2]- عبد العزيز لعرج: المرجع نفسه، ص 530.

[3]- حسين مؤنس: المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص 141.

ومداخل المدن كجامع تنمل والكتبية وحسان بالربـــاط، ولاشـــك ان مـــداخل المبـــاني الأندلسية وخاصة مداخل مؤخر جامع قرطبة كان لها اثر على الموحدين أنفسهم ولكـــن تأثير افريقية ليس مستبعدا عن ذلك، فإن مدخل جامع المهدية الفاطمي المنسوب لعبيد الله، فضلا عن انه محوري مع المحراب، فهو يبدوا أقرب في تخطيطه ومظهـــره مـــن المـــداخل الموحدية التي تعد مصدرا للمداخل المرينية.[1]

أ- المداخل الخارجية:

لقد صدرنا حديثنا عن مداخل الأضرحة السلطانية، بهذه المقدمة الخاصـــة بالمـــداخل وخاصة منها الموحدية والمرينية، لأن مدخل ضريح سيدي ابي مدين الـــذي أســـسه ابـــو الحسن المريني يعد أحسن مداخل الأضرحة على الإطلاق، ويظهر معقودا بعقد حذوي به كسوة من البلاطات الخزفية متعددة الألوان والأشكال، كما نلاحظ به الشرعة التي تغطيه وتضفي عليه بهاء وجمالا، اما مدخل ضريح سيدي إبراهيم المصمودي فهو أيضا معقـــود بعقد حذوي ولكنه أبسط من المدخل الأول يعلوه إطار للباب.

مدخل ضريح السنوسي، بسيط جدا فهو معقود بعقد حذوي، وهو خال تمامـــا مـــن الزخارف، وقليل الإرتفاع، به باب حديدي ومصراعين، لونه أخضر ولا يوجد به مدخل ثان. ضريح سيدي الهواري، يظهر بمدخل أفضل من ذلك إذ نجده مكسو إلى نحـــو المتـــر بالبلاطات الخزفية، المتكونة من مربعات تحتلها زهريات دائرية، متعددة الألـــوان، كمـــا يحيط إفريز به نفس النوع من البلاطات بعقد المدخل، وتعلو شرعة بسيطة محززة، مكسوة بقرميد أخضر أعلى المدخل. تتواجد على يسار مدخل الضريح بلاطة خزفية تحمل العبارة التالية "الإمام سيدي الهواري".

أما على يمين المدخل فنجد بلاطة خزفية مربعة الشكل، صغيرة الحجم بها تاريخ ميلاد ووفاة الولي. باب المدخل الخشبي ذو مصراعين، وهو معقود بعقد نـــصف دائـــري وبـــه

[1] - Lézine, A : Mahdiya, société tunisienne de diffusion, tunis 1968, p 22-25.

مسامير نحاسية، متوسطة الحجم أضفت عليه جمالا ورونقا، ولكن ضريح سيدي الهواري به مدخل خارجي فقط نمر من خلاله إلى الضريح مباشرة.

مدخل ضريح ابن مرزوق الحفيد، باب بسيط معقود بعقد حذوي، وهو باب خشبي ذو مصراعين وقد لاحظنا تواجد نفس المسامير النحاسية المزخرفة للباب، التي سبق الحديث عنها بباب ضريح سيدي الهواري، و هذا المدخل لا يحمل زخرفة من أي نوع. مدخل ضريح سيدي الحلوي مدخل خارجي بسيط معقود بعقد حذوي، إلا أن هذا الضريح أيضا لا يحتوي سوى على مدخل واحد فقط.

ب-مداخل قاعات الدفن:

يظهر مدخل قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين عبارة عن إطار به كتابة أثرية تشير إلى المرمم وتاريخ الترميم وبه بعض الزخرفة النباتية البسيطة، ومحارتين تحتل شوكتي الإطار السفلية، بضريح سيدي إبراهيم المصمودي تكسو الإطار العلوي منه بلاطات خزفية متعددة الألوان والأشكال ونلاحظ غياب الكتابة الأثرية، ويشترك مدخلا قاعتي الدفن بضريح سيدي أبي مدين وضريح سيدي إبراهيم، في كونهما يحملان زخارف نباتية وإن كانت قليلة في مدخل ضريح سيدي أبي مدين وكذلك في كونهما يرجعان للعهد التركي كما سبق وأن أشرنا.

في حين يظهر المدخل الداخلي لضريح الشيخ إبن مرزوق، بسيطا يعلوه سقف حديدي حديث العهد يستعمل في المساكن البسيطة بتلمسان، ولا يحمل أية زخرفة كتابية أو هندسية.

س-موقع التوابيت في الأضرحة:

يتوسط التابوت قاعتا ضريحي سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم المصمودي، فهو يقابل مباشرة مداخل قاعة الدفن، في حين لا نجد تابوتا فوق شاهدتي ضريح سيدي إبراهيم المصمودي، و تعلو التوابيت الخشبية كلا من أضرحة سيدي أبي مدين، سيدي الحلوي، السنوسي، أما في ضريح بن مرزوق فلا وجود للتابوت بتاتا، فشواهد قبره موضوعة ضمن

نافذة خشبية زجاجية ضمن الحنية الجدارية، وهذا النوع فريد من نوعه في ما يخص الأضرحة التي زرناها ودرسناها. والتوابيت تظهر بالخشب الحديث الصنع، وتغطى برداءات ذات اللون الأخضر المزركش.

بسيدي الهواري يتمركز التابوت، ضمن الحنية الجدارية المقابلة للمدخل وهو لا يتوسط قاعة الضريح وهو أيضا محلى برداء أخضر مذهب.

ش-الألوان المستعملة في الأضرحة:

الألوان صفة طبيعية في الأشياء والكائنات وعناصر الكون، ومرتبطة بالنور والظل. والألوان تحمل في ذاتها الكامنة، روح الجمال ومظهره، مما يجعل كثيرا من الأشياء والمخلوقات الجامدة والحية ومظاهر الطبيعة وعناصرها ،تستمد جمالها من ألوانها".[1]

وللألوان مظهر وبيئة تشاهد بالبصر، ودلالة رمزية تخضع لطبيعة المجتمع وثقافته وبيئته وعصره علما أن نظرة المجتمعات والأفراد للألوان تختلف، وتفسيرهم لها وإحساسهم بها يتباين من مجتمع لآخر ومن فرد لآخر، فالون الأبيض والأحمر والأصفر والأسود ليس لها نفس الدلالة والمعنى... فالأحمر قد يرمز للغضب، ولكنه يحمل معنى الإثارة عند البعض الآخر، والأبيض يعني النبل والبراءة...[2]

وهناك ألوان أساسية تتولد عنها ألوان ثانوية ،عن طريق المزج والتركيب بنسب مختلفة تزداد وتنقص... ويحدث ذلك بفعل خصائص اللون نفسه، الذي يتكون من عدة عناصر أهمها:

طبيعة اللون نفس: من أحمر وأبيض وما إلى ذلك.

قيمته: وهي حركته بين الفاتح والغامق في اللون الواحد.

قوته: وهي مقدار إشراقه ودرجة سطوعه.

---

[1]- الألفي أبو صالح: الفن الإسلامي، أصوله فلسفته مدارسه، دار المعارف المصرية، القاهرة 1974ص102

[2]- علي شلق: الفن والجمال، المؤسسة الجامعية للدرسات والتوزيع، بيروت، لبنان 1402-1982م، ص 41.

وينتج عن قيمة اللون وقوته، مستويات من التأثير والإحساس به تختص بالفنان قبل المشاهد، وذلك من حيث برودتها ودفئها وحرارتها، وهي عوامل تكسب العمل الفني العمق والصلابة، كما تكسبه الجمال والقبول أو الرفض والنفور عند المشاهد".[1]

وقد استخدمت الألوان في الفن الإسلامي منذ العصر الأموي، ولكنها تطورت تطورا كبيرا في أنواعها ودرجاتها وكثافتها...[2] اما في الاضرحة فقد استعمل اللون الابيض في الجدران و الزخارف الجصية كضريح سيدي ابي مدين و سيدي ابراهيم، في حين ظهر الزليج متعدد الالوان، و لعل اللون الطاغي على الاضرحة هو اللون الاخضر، الذي طليت به جدران ضريح السنوسي وبابه، و بضريح سيدي الهواري طليت حنياته الجدارية، أيضا

بالون الأخضر الداكن، وأخيرا باب ضريح سيدي الحلوي، في حين غاب اللون الأخضر الداكن أو الفاتح بجدران أضرحة سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم، وابن مرزوق الحفيد. ولعل التفسير الوحيد والمنطقي لإستعمال هذان اللونان هو أن اللون الأبيض يرمز للطهارة والنقاء واللون الأخضر يرمز للون الجنة ولون أهل الجنة.

2-3 العناصر الزخرفية في الأضرحة:

لقد تعددت الزخارف وعناصرها، في الاضرحة على أساس الزخارف الرئيسية، المعروفة في الفن الإسلامي مثل الزخارف الهندسية، والنباتية، والكتابية... وهي الموضوعات التي ميزت الفن الإسلامي بطابعة الخاص وشخصية المتميزة عن بقية الفنون الأخرى.

أ-الزخرفة النباتية:

تعد الزخارف النباتية في الفن الإسلامي من أبرز المظاهر والصور التي توضح إبتعاد الفنان المسلم عن تمثيل الطبيعة"[3]، وقد إستعمل الزيانيون الزخرفة النباتية بشكل ملحوظ

---

[1]- الألفي أبو صالح: الموجز في تاريخ الفن العام، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1973م، ص 26.

[2]- صبحي الشاروني: الفنون الزخرفية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة 1982، ص 32.

[3] - Terrasse H ; L'art Hispono-mauresque des origines au XIIIème siècle, vandest, paris, p 456.

وثري عن المرينين، فقد استعملو زخارفهم النباتية المراوح النخيلية البسيطة وهي عبارة عن مراوح قصيرة ذات الحاشية العريضة والمراوح التي على شكل علامة استفهام أو حرف S بالغة اللاتينية ويظهر هذا النوع من المراوح ضمن الزخرفة التي توجد بجدران ضريح سيدي إبراهيم المصمودي".[1]

وعلى عكس الزيانين، فضل المرينيون استعمال المراوح المزدوجة، وقد لعبت هذه المراوح دورا هاما في زخارف ضريح سيدي أبي مدين، وقليلا ما تقوم الزخارف النباتية بمعزل عن الزخارف الهندسية أو الكتابية أو هما معا في ملأ المسطحات وتزيينها وتمتزج بهما وتختلط".[2]

وقد استعملت الزخرفة النباتية عند الزيانيين، رفقة الزخارف الكتابية أو الهندسية إلا أننا لم نجد زخرفة نباتية مستعملة لوحدها.

كما يعد الأرابسك العنصر أو النموذج المركزي للزخرفة، حيث تظهر ساق متوسطة تتخللها خطوط مقوسة متشابكة، تستعمل الأرابسك خاصة في تزيين الأطر واللوحات الضيقة والمرتفعة[3]، نجدها بجدران قاعة الدفن بضريح سيدي إبراهيم المصمودي أين نجد زخارف نباتية وهي عبارة عن مراوح نخيلية بنوعيها البسيط وعلى شكل علامة الإستفهام، مع صيغ كتابية كالعز لله، والملك لله، والشكر لله، في إطار هندسي بديع فوق الجص كما تظهر ضمن إطار باب قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين أين تحيط بالكتابة الأثرية سيقان رفيعة وزهيرات صغيرة.

والتكرار الذي لاحظناه بضريح سيدي إبراهيم ليس ظاهرة خاصة فهو ظاهرة عامة عميقة وشاملة في الفن الاسلامي عمارة، وفنونا وصناعات، وقد مست جميع أنواع الزخرفة من هندسية ونباتية وكتابية.[4]

---

[1] - rachid bourouiba L'art religieux..., p 203.

[2]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية....، ص 863.

[3]- Henry Martin : l'art musulman, Flammarion 26, rue racine, 26 paris, p 20.

[4]- زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية، منشورات اتحاد أساتذة الرسم، القاهرة 1956م، ص 04.

ونحن لا نعني بالتكرار ذلك الجامد الممل، بل نقصد ذلك التكرار الجميل المنسجم وهو ناتج عن فكرة وتصور وإحساس، ويخضع لقواعد هندسية وتنضيمية في توزيع خطوطه وأشكاله وترتيبها.[1]

نجد نوعا آخر من الزخارف النباتية المشتركة مع الزخارف الهندسية، في ضريح سيدي ابراهيم المصمودي ضمن الزخرفة الجدارية الجصية، يتمثل في النجمة ذات 12 رأسا بها مراوح نخيلية متشابكة (أنظر اللوحة رقم24).

كما لا تفوتنا الإشارة الى المحارتين التي تعلو شوكتي الحنايا الجدارية أين نجد النجمة ذات ثمانية رؤوس بها زخارف الأرابسك.

وقبل مواصلة الحديث عن الزخرفة النباتية بالأضرحة لابد أن نشير إلى أهمية المحارة، في العمارة الإسلامية إذ تعتبر المحارة أحد العناصر الأساسية، في البنية الزخرفية للفن الإسلامي وفي الزخارف المعمارية بالعمائر الدينية، المدنية، والعسكرية، وقد لازم هذا العنصر العمارة والفنون... ولقد تعددت مجالات استخدام هذا العنصر وعلى جميع المواد... واحتل أماكن مختلفة في المبنى من الداخل والخارج... كواجهة المحاريب والواجهات الخارجية، وغيرها فهو محفور عادة في الجص، أو الحجر، أو الرخام، أو الخشب، أو المعادن، ورصع تجويف الحنايا الركنية في الأضرحة...[2]

وهناك من يرى أن هذا العنصر يحمل دلالات رمزية وينسبون له وظيفة سحرية، ويشير إلى أن وضعها في أعلى عقد الأبواب أو في أركانه في مواجهة المشاهد، الذي يرتاد هاته المباني دليل على القوة الخفية للمكان إذ هي تحمي، ويدل وجودها في مكان على أنها واقية له من السوء والشرور، وناشرة للخير والسعادة.[3]

---

[1]- أبو صالح الألفي: الفن الإسلامي، ص 105.

[2]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية...، ص 835.

[3] -Serge Bonne: une ésthétique negative, essai sur quelques aspects de l'Art musulman, paris 1968—1978 p 304.

لكننا نتساءل هل هذه الدلالة الرمزية بهذا المعنى، لها وجود في النفس الباطنة للمسلم، إذ ليست هناك ما يثبت ذلك.? ,ومهما تعددت التفاسير حول رمز المحارة تبقى هذه الأخيرة عنصرا أساسيا في عمارة الأضرحة.

كما وجدنا ضمن البلاطات الخزفية، لمدخل قاعة دفن سيدي إبراهيم المصمودي، زخارف وهي عبارة عن دائرة تحتل مركز المربع، وتتفرع منها مراوح نخيلية عبارة عن مراوح منقسمة الى قسمين تنجم عنها مروحة بسيطة (أنظر الشكل رقم 11)

بضريح سيدي أبي مدين يظهر هذا النوع من الزخارف ضمن البلاطات الخزفية، التي تكسو المدخل وتظهر أيضا هذه الزخرفة في سقف الشرعة، وهي عبارة عن نجمة ذات الثمانية رؤوس ناجمة عن تقاطع مربعين ،تحتل هذه النجمة المركز وتحيط بها تشبيكة من المراوح النخيلية (أنظر اللوحة رقم 12)، كما تظهر ضمن البلاطات الخزفية للصحن وهي عبارة عن دائرة تحتل مركزها 8 زهيرات مقفلة، وتحيط بها أشكال هندسية مختلفة أو دائرة تنطلق منها تفريعات نباتية، وهي عبارة عن وريقة منبسطة تتناوب مع زهرتين مقفلتين (أنظر الشكل رقم 06) كما تظهر بلاطات أخرى بالون الأزرق التركوازي الذي يتدرج من الفاتح الى الداكن. ويتكون التصميم العام من عنصر مركزي، عبارة عن مربع متداخل غير منتظم تشع منه أوراق خماسية الفصوص وأوراق على هيئة أوراق الأكانتس، مرسومة بأسلوب محور وحفظت هذه العناصر بالون الأبيض، على أرضية كوبالتية دقيقة[1]، وبضريح سيدي أبي مدين نجد أخيرا المحارتين التي تحتل شوكتي الإطار السفلي لباب مدخل قاعة الدفن.

بضريح سيدي الحلوي تظهر النجمتان التي تحتل شوكتي المحراب، بشكل النجمة ذات 8 رؤوس مركزها زهرة ذات الثمانية باتلات (أنظر الشكل رقم 20).

بضريح السنوسي نجد الفواصل الموجودة بين الأقواس والمتمثلة في الطبلة والبنيقة مزدانة بتوريق جصي خفيف وأنيق، وتحتل مركز القبة محارة ذات 16 باتلات.

---

[1]-عبد العزيز لعرج : المباني المرينية... ,ص 153

و أخيرا بضريح ابن مرزوق، نجد مراوح نخيلية بسيطة تحتل شوكتي شاهدتي القبر ، أما بالجدران والمدخل فلا نجد أثرا للزخرفة النباتية، كما نجد المحارة ذات 8 باتلات، ضمن مربع صغير فوق شاهدتي قبر الحفيد ابن مرزوق. في حين تظهر بعض المراوح النخيلية ضمن الخزانة الموجودة بالضريح و هي تحتل اعلى الاطار الخشبي.

ب-الزخرفة الهندسية:

إتخذت الزخارف الهندسية في ظل الحضارة الإسلامية، أهمية خاصة وشخصية فنية فريدة عبرت عن مضامين روحية، مبعثها الإحساس والخيال، وجسدها الخطوط والأشكال، إذ ينفرد العربي بخياله الهندسي، الذي ينصب على الكتلة فيقسمها ويجزؤها ويحولها إلى خطوط، ومنحنيات تتكرر وتتعاقب... حتى لا يكاد الناظر إليها يحدد بدايتها أو نهايتها..."[1]

وقد تحكمت في الزخرفة الهندسية قواعد هندسية، وقوانين رياضية، لعبت فيها الطرق الحسابية من جمع، وطرح، وقسمة، وضرب، دورا أساسيا، في إكسابها صفة التناسق العام والتوازن بين الأجزاء والدقة والإحكام، وهي الصفات التي تطبع الأعمال الفنية الخالدة بالطابع الجمالي.[2]

ولقد وجدنا الزخرفة الهندسية ضمن معينات من الزليج، على شكل النجمة ذات 8 رؤوس وكذا النجمات ذات 12 رأسا، بضريح سيدي إبراهيم المصمودي، ونلاحظ بهذا الضريح المعينات المفصصة التي تحلي جدران قاعة الدفن، والتي تحمل زخرفة هندسية بالتناوب مع زخرفة كتابية. ونفس المعينات موجودة بجدران ضريح سيدي أبي مدين، ولعل هذه المعينات التي تحلي الجدران هو ما يعرف في العمارة بالأطباق النجمية، والأطباق النجمية هي نوع من الزخارف الهندسية، يرجع الفضل في إبتكارها إلى الفنان المسلم والتي تعرف في المصطلح بالأطباق النجمية أو "Star pattern" أو "Décoration en étoile"

---

[1]- أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1961، ص 45.

[2]- ريتشارد اتنكهاوزن، الفنون الزخرفية، التصوير في تراث الإسلام، ط2، ص 78-73.

وتختلف الأطباق النجمية بعضها عن بعض من حيث حجمها، ولكنها تتشابه في قيامها على نجمة مركزية متعددة الرؤوس، ويكبر الطبق النجمي أو يصغر تبعا لتلك الرؤوس وعددها.[1]

كما نجد بضريح سيدي أبي مدين النجمة ذات 24 رأسا، تكون القبة ، كما نجد المربعات على شكل مربع الشطرنج في البلاط الأرضي للصحن.

أما بضريح سيدي الحلوي فتظهر النجمة ذات الثمانية رؤوس، الناجمة عن تقاطع مربعين.

بضريح السنوسي نجد الزخرفة النهدسية ضمن البلاطات الخزفية، المربعة الشكل الموجودة بأرضية الضريح، كما نجد الزخرفة الهندسية فوق التابوت وهي عبارة عن 7 معينات تكون شكل المحارة.

في ضريح ابن مرزوق، لاحظنا غياب الزخرفة الهندسية إذا إستثنينا النجمة في شوكتي شاهدتي القبر، وبعض الحليات الهندسية ضمن الخزانة الحديثة العهد بالضريح.

بضريح سيدي الهواري، نجد الزخرفة الهندسية ضمن البلاطات الخزفية الموجودة خارج وداخل الضريح، بالخارج يوجد النوع المربع الشكل به زهيرات دائرية متعددة الألوان، وهو حديث الصنع، وكذا بالداخل توجد بلاطات عبارة عن معينات بيضاء كبيرة تتناوب مع معينات بالون الأخضر الداكن أصغر حجما، وهي أيضا حديثة العهد ركبت في السنوات الأخيرة. ولاحظنا غياب الزخرفة الهندسية ضمن جدران الضريح.

---

[1]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية...، ص 789.

ت-الزخرفة الكتابية:

لعبت الزخرفة الكتابية دورا هاما في الفن الإسلامي، و لم تتح لها هاته المكانة الرفيعة إلا لما تمتاز به طبيعة هاته الكتابة وأشكال حروفها، من الحيوية، والحركة، بفضل ما فيها من الموافقة والمرونة والمطاوعة".[1]

وقد إحتلت الزخرفة الكتابية، مكانة هامة جدا في فن بني عبد الواد، على غرار الفنان المسلم، كما احتلت الزخارف الكتابية مكانة رائدة في المنشآت المرينية، في تلمسان الزيانية وفي تلمسان المرينية .واعتمد الفنان المريني في زخارفه الكتابية على الخطين الكوفي والنسخي.[2]

والخط الكوفي: خط هندسي يعطي الإحساس بالقوة والثبات، المؤديان إلى السكون والإستقرار.[3]

أما الخط النسخي: فخط منحني طياش، ويتميز بالحرية والإنطلاق والإحساس بالمطلق ويسميه البعض بالخط اللين أو التحرير المخفف.[4]

وتظهر الزخرفة الكتابية بضريح سيدي أبي مدين بنوعين:

1-الكتابة التذكارية:

توجد بباب قاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين، والتي تبين تاريخ ترميم الضريح .

كما لاحظنا كتابة تذكارية ضمن مدخل ضريح سيدي الهواري، وبها اسم الولي وتاريخ وفاته ولكن هذه الكتابة حديثة العهد جدا.

2-الأشرطة الكتابية والعبارات الدينية:

---

[1]-حسن الباشا: "الخط الفن العربي الأصيل"، في حلقة بحث الخط العربي، (م، أ، ر، ق، آ، ع، إ) دار المعارف بمصر، القاهرة 1986، ص 23.

[2]- عبد العزيز لعرج: المباني المرينية...، ص 837.

[3]- أبو صالح الألفي: الخط العربي كفن تشكيلي ووظيفته في الفنون الإسلامية الأخرى/في حلقة بحث الخط العربي، ص 49.

[4]- إبراهيم جمعة: دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة 1969، ص 52.

يتجلى الشريط القرآني المحيط بغرفة الدفن، والذي يحمل الآيات من 100-106، من سورة الأنبياء بخط مغربي، في حين تظهر العبارة الدينية التي تحلي جدران قاعة الدفن، والتي تحتل مركز المعينات المزخرفة بخط كوفي، و العبارة هي له الملك وهي معكوسة في المعيانات الموازية للمعينات التي تظهر فيها.

أما بقاعة الدفن بضريح سيدي ابراهيم، فتظهر على شكل شريط قرآني يحيط بأطر الحنايا الجدارية لقاعة الضريح وأيضا عبارات دينية... أما الشريط الكتابي فيحمل الآيات القرانية رقم 109-117 من سورة المائدة وهو مكتوب بالخط النسخي.

و العبارات أو الصيغ الدينية التالية: الحمد لله، العز لله، الشكر لله، الملك لله، مكتوبة أيضا بالخط النسخي المغربي.

بضريح سيدي الحلوي، لا نجد سوى كلمتين بجامة إطار المحراب وهي: يم، الله ولا نستطيع أن ننسب لها خطا من الخطوط نظرا لقلتها.

بضريح السنوسي، لا نجد هذا النوع من الكتابة ولا العبارات الدينية، ولا نشاهد الكتابة إلا على شواهد القبور التي تعاني الرطوبة والإنمحاء.

أيضا بضريح الحفيد بن مرزوق، لا نجد كتابة إلا تلك الموجودة بشواهد قبره، وتلك الموجودة فوق الإطار الخشبي الذي يعلو الشواهد وهي: أهلا وسهلا بكم، يازائرين يا، ضيوف الكرام.

وأيضا ذلك الشريط الكتابي الذي يعلو الخزانة الموجودة بالضريح وهو: ولا غالب إلا الله.

بسم الله الرحمن الرحيم (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا) [1]

[1] سورة الفتح الاية 29

2-4 مواد البناء:

أ- البلاطات الخزفية :

توجد البلاطات الخزفية في ضريح سيدي ابراهيم المصمودي، ضمن مدخل قاعة الدفن إذ نرى زخرفة نباتية وهي عبارة عن مراوح نخيلية، بسيطة أو مزدوجة وبألوان مختلفة كالأخضر، والأصفر، والوردي، والأبيض الشفاف، وضمن هذه البلاطات الخزفية تندمج الزخرفة النباتية رفقة الزخرفة الهندسية، وهي عبارة عن دوائر بسيطة ويرجع الدارسون هذه البلاطات الخزفية الملونة إلى العهد التركي.

أما بضريح سيدي أبي مدين فتظهر البلاطات الخزفية بأشكال متعددة، فمنها النباتية المشتركة مع الهندسية، ومنها الهندسية فقط، وترجع أيضا حسب الدارسين إلى العهد التركي أما بضريح سيدي الحلوي فلا أثر للبلاطات الخزفية.

بضريحي بن مرزوق، و السنوسي لا نجد أثرا للبلاطات الخزفية.

في ضريح سيدي الهواري نجد بلاطات خزفية، بها أشكال هندسية حديثة الصنع ولونها أبيض.

ب-الزليج:

يوجد الزليج بضريح سيدي ابراهيم المصمودي، في قاعة الدفن بالجدران وهو مكون من مجموعة من الزخارف الهندسية، وهي عبارة عن معينات متعددة الألوان (أبيض وأخضر داكن، وأصفر فاتح وداكن، وبني)، ونجده بأرضية ضريح السنوسي ويرجعه الدارسون إلى العهد التركي، كما نجده بأرضية ضريح بن مرزوق، وقد اختفت معا لمه العامة، و لم يستعمل الزليج في ضريحي سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي.

ت-الرخام والمرمر:

إستعمل في عقود وتيجان سيدي أبي مدين، كما نجده في أعمدة ضريح سيدي إبراهيم المصمودي وهو منعدم في ضريح سيدي الحلوي، السنوسي، وابن مرزوق، ولا نجده إلا في مدخل ضريح سيدي الهواري ضمن إطار صغير يحمل كتابة.

ث-الجص:

يظهر الجص بضريح سيدي ابي مدين ضمن الإطار الخارجي لباب قاعة الدفن، وهو يحمل كتابة أثرية تدل على التاريخ وصاحب الترميم، كما توجد محارتين في أسفل جامات الإطار الكتابي وهي تحتل شوكتي الإطار من الأسفل على اليمين وعلى الشمال، كما نجد الجص ضمن الحنايا الجدارية الموجودة بقاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين، فهو على شكل كتابة جصية ضمن جامات الأطر الثلاثة لكل حنية جدارية، وهو أيضا موجود بالشمسيات الموجودة بداخل هذه الحنايا وهو على شكل شبكة هندسية، أما الحنية فبها تشبيكات جصية، كما يحيط بالجدران الأربعة لضريح سيدي أبي مدين شريط كتابي مكتوب بالجص، و تحمل جدران قاعة الدفن أيضا تكسية جصية، وهي عبارة عن معينات مفصصة تحتلها زخرفة كتابية جصية وأخيرا يظهر الجص مزينا قبة سيدي أبي مدين بمختلف الأشكال.

كما إستعمل الجص بضريح سيدي ابراهيم المصمودي بثراء، إذ أننا نجده ضمن الحينات الجدارية وفي أطرها يحمل شريطا كتابيا، كما يظهر ضمن الزخارف الجدارية على شكل أطباق نجمية تحتوي في وسطها على زخرفة كتابية، أو نباتية، متناوبة فيما بينها (أنظر الشكل رقم 19) كما يعلو هذه الزخارف الجدارية شريط يحمل زخارف هندسية من الجص صعب تحديد نوعها لإحتلالها أعلى الجدران ولخفوت الضوء، وأما القبة فلم نستطع رأية تكسيتها الجصية التي قد زالت بفعل الرطوبة.

بضريح سيدي الحلوي نجد الجص ضمن إطار المحراب، وهو بقية شريط كتابي بقي منه كلمتين فقط وإختفت الكتابات الأخرى التي كانت تحيط بإطار المحراب، ويظهر أيضا على شكل نجمتان تحتلان شوكتي المحراب العلوية.

نجد الجص أيضا ضمن الحليات التي تزين قبة ضريح السنوسي، وهي حليات هندسية عبارة عن أعمدة وتيجان جصية. كما نجد المحارة التي تحتوي على 16 باتلات، ولكن طلاء القبة بالون الأحمر، الداكن نقص من جمال التحلية وحجبها تقريبا عن الأعين.وقد غاب الجص عن ضريحي سيدي الهواري وبن مرزوق.

ج-الخشب:

يظهر الخشب بمدخل ضريح سيدي أبي مدين في عمودان خشبيان بدنهما ذو قنوات، كما نجد الخشب بقاعة الدفن بضريح سيدي أبي مدين، على شكل الواح خشبية إرتفاعها المترين تقوم بتقسيم قاعة الدفن عرضيا إلى قسمين، وبتعرض الضريح إلى الحرق إختفت هذه الأخيرة تماما، كما تظهر بصحن ضريح سيدي أبي مدين قبة خشبية تغطي الصحن المكشوف في الأصل.لا يظهر الخشب بضريح سيدي ابراهيم المصمودي، أما بضريح سيدي الحلوي، فهو يظهر ضمن هيكل التابوت الخشبي كما يظهر الخشب في السقف ويسمى "بالخشبة".

ويظهر بضريح السنوسي ضمن التابوت الخشبي الذي يعلو شاهدتي القبر، أما بضريح سيدي ابن مرزوق فيظهر ضمن الباب الموجود في المدخل وهو باب خشبي ذو مصراعين، ويظهر أيضا ضمن الخزانة التي توجد بها شواهد قبر بن مرزوق، وضمن الخزانة الموجودة في الضريح.

كما يوجد بضريح سيدي الهواري، ضمن باب المدخل الخشبي، وموجود ضمن تابوتي الهواري والتازي.

مقارنة بين الأضرحة السلطانية و الأضرحة الشعبية

ان الغاية المرجوة من وراء المقارنة هو تبيين القواسم المشتركة والمختلفة بين الأضرحة السلطانية والأضرحة الشعبية، ولا يمكننا في هذه المقارنة أن نتكلم عن الأبعاد التاريخية والدينية للمؤسسين لأننا نجهل مؤسسي الأضرحة الشعبية فهذه الأخيرة كانت نتاجا لحب والتفاف الشعب حول ولي من الأولياء، وسنمر مباشرة إلى مقارنة الأبعاد المعمارية والفنية بين الأضرحة السلطانية والأضرحة الشعبية.

– من ناحية المخططات:

تظهر الأضرحة السلطانية كضريح سيدي أبي مدين، وضريح سيدي ابراهيم المصمودي، وضريح بن مرزوق الحفيد، مسبوقة بصحن كما يظهر المخطط قريبا من المربع وهذه الأضرحة أجزاء من المساجد ومرافقها، لذا ظهرت متشابهة في مخططاتها، أما ضريحي سيدي السنوسي وسيد الهواري فيظهران بمخطط مربع في الأول وقريب من المربع في الثاني، وهما غير مسبوقان بصحن فضريح السنوسي جزء من المقبرة الكبرى لتلمسان، وإذا ما قارنا بين هذا الضريح والأضرحة الموجودة بقصري مغرار التحتاني بتيوت، التي بنيت ضمن المقبرة كضريح سيد الشيخ وسيدي عبد القادر محمد نجد تشابها من حيث المخططات فهذان الضريحان بهما مخططات مربعة الشكل، ولعل هذا عاملا مشتركا بين الأضرحة السلطانية والشعبية.

أما الأضرحة المغطاة بسقف: فنجد بتلمسان ضريح سيدي الحلوي الذي يظهر مستطيل الشكل و عبارة عن غرفة واحدة مغطاة بسقف هرمي، ضمن الأضرحة الشعبية نجد ضريح الحاج بلقاسم بقصر مغرار التحتاني، وضريح لا لا صفية وضريح سيدي سعيد بقصر تيوت وأضرحة عين الأربعاء كضريح سيدي عبد الله.

وإن كان شكل السقف يختلف من هرمي إلى بسيط إلا أن هذه الأضرحة تشترك في كون سقفها يستعمل في أسقف المنازل سواء بتلمسان أو مغرارالتحتاني، تيوت وعين الأربعاء.

-العناصر المعمارية:

أ- المحاريب:

ظهرت المحاريب على هيئة حنيات جدارية في الأضرحة السلطانية كضريح سيدي أبي مدين وسيدي ابراهيم المصمودي، والسنوسي، وأخيرا ضريح سيدي الهواري، أما بالضريحين الآخرين فقد ظهر، المحراب في ضريح سيدي بن مرزوق بسيطا يوضح اتجاه القبلة وكذا بضريح الحلوي ظهر عبارة عن حنية مضلعة يعلوها عقد حذوي يرتكز على عمودين صغيرين. وحسب ما درسناه في الأضرحة الشعبية وجدنا الحنيات الجدارية ضممن مخطط ضريح الأخضر بن خلوف وعادة ما تقوم إحدى الحنيات بوضيفة المحراب كما ظهرت الحنيات الجدارية ضمن ضريحي أحمد بن يوسف وضريح سيدي عيسى بمنطقة تيوت وغابت عن الأضرحة البسيطة الأخرى، كما لم يشر مباركي عبد المجيد البتة إلى وجود المحراب ضمن الإطار المعماري لأضرحة منطقة مغرار الحتاني، ولم نعلم شيئا عنها بمنطقة عين الأربعاء بولاية عين تموشنت.

ولعل الملاحظة الهامة التي نلاحظها بعد الدراسة، هي أن الأضرحة المقببة عادة ما تحتوي على محاريب مجسدة أو على هيئة حنيات جدارية في حين نادرا مايحتوي الضريح ذو السقف العادي على المحراب وكأن المعماري يولي الأضرحة المقببة أهمية خاصة حسب شخصية الولي الذي يسكنها.

ب-العقود:

استعملت العقود في الأضرحة السلطانية بثراء إذ نجدها في ضريح سيدي أبي مدين أكثر ثراء و جمالا من كل الأضرحة الأخرى، فقد استعملت في هذا الأخير العقود النصف الدائرية و العقد الحذوي و العقد المخموس و العقد المفصص الذان لم نجدهما في أي ضريح آخر إما سلطاني أو شعبي. أما في الأضرحة السلطانية الأخرى فقد استعملت العقود النصف دائرية و العقود الحذوية. أما بالأضرحة الشعبية فقد وجدنا العقود النصف دائرية بمداخل أضرحة منطقة تيوت و بضريحي سيدي الشيخ و سيدي عبد القادر محمد بمنطقة مغرار التحتاني نجد العقود النصف الدائرية تعلو الأعمدة الموجودة بالضريحين. و كذا

بضريح سيدي الأخضر بلخلوف نجد المدخل و النوافذ والحنايا الجدارية معقودة بعقد نصف دائري في حين لم نعلم شيئا عن أضرحة عين تموشنت و المهم أن العقود الأخرى قد غابت عن معظم الأضرحة الشعبية.

ت-النوافذ و الفتحات:

لم تغب الفتحات و النوافذ عن معظم الأضرحة سواء كانت سلطانية أو شعبية فقد وجدت في الأضرحة السلطانية أكثر جمالا و رونقا كما هو الحال بضريح سيدي أبي مدين أين وجدناها على شكل شمسيات مزينة بتشبيكات هندسية رائعة أو نوافذ تدخل الضوء من خلال قطع زجاجية ملونة وكذا بضريح سيدي ابراهيم ظهرت جميلة و محلات على هيئة شمسيات وقد غاب هذا النوع من الشمسيات عن ضريح سيدي بن مرزوق، والسنوسي، و ان ظهرت بسيطة بضريح سيدي الهواري، ظهرت مزينة بلمشربيات و قد غابت النوافذ عن ضريح سيدي الحلوي، و مع أنها لم تغب عن الأضرحة الشعبية نجدها بسيطة بضريح الأخضر بن خلوف و كذا بأضرحة منطقة تيوت و مغرار التحتاني. ولم نجد نوافذ بأضرحة عين الأربعاء.

ث- الأعمدة و التيجان:

ظهرت الأعمدة والتيجان ضمن ضريحين سلطانين هما ضريح سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم المصمودي، و ظهرت أيضا بشكل أبسط بضريح سيدي السنوسي،في حين غابت عن بقية الأضرحة الأخرى الشعبية، أو السلطانية، باستثناء العمودان البسيطان الموجودان بمحراب سيدي الحلوي الذي لا نجد به الأعمدة و التيجان.

ح- السقوف:

ظهرت السقوف ضمن الأضرحة السلطانية بثلاث أنواع:

1- أضرحة تعلوها قبة ظاهرة – كضريح سيدي ابراهيم المصمودي – بن مرزوق – سيدي الهواري.

2- أضرحة تعلوها قبة و لكشف مغطات بقرميد أخضر هرمي ذي أربعة أرداف كما هو الحال بضريحي سيدي أبي مدين و ضريح السنوسي...

3- أضرحة يعلوها سقف هرمي بسيط يكسوه قرميد بني بسيط – ضريح سيدي الحلوي .

* **أنواع القباب:** – طهرت قبة أبي مدين مقسمة إلى 12 لوحة بواسطة 24 رأسا، و هي مضلعة و هي تعكس الطراز المدني.

– قبة سيدي ابراهيم المصمودي ذات 8 أضلاع أي مثمنة الشكل، أما من الخارج فهي مزينة بصف من الشرافات ذات السبعة فصوص.

– قبة بن مرزوق الحفيد: مضلعة (ذات 8 أضلاع) و هي تظهر مضلعة من الخارج ذات 8 أرداف.

– قبة السنوسي نصف كروية تحتوي على 12 ردفا يغطيها نفس نوع السقف الذي يغطي قبة سيدي ابن مدين.

– قبة سيدي الهواري ذات 8 أضلاع أما من الخارج فتظهر هرمية الشكل ذات 4 أرداف.

أما سيدي الحلوي فبه سقف بسيط.

– كما ظهرت الأضرحة الشعبية بنوعين من الأسقف.

أ– الأضرحة المقببة:

كضريح سيدي الأخضر بن خلوف، الذي تعلوه قبة مضلعة ذات 8 أضلع و هي مضلعة من الداخل و الخارج ذات 8 أرداف.

– أضرحة مغرار التحتاني، ظهرت بها القبة القريبة من الهرمية الشكل أو النصف كروية، تحيط بالقبة من الخارج أربعة قبيبات صغيرة نصف كروية، و هنا بهذا الضريح نجد هذا النوع فريد من نوعه في ضريح سيد الشيخ، أما بضريح سيدي عبد القادر محمد فتنجد القبة أسطوانية تنتهي بشكل مخروطي.

- .بمنطقة تيوت، وجدنا الأضرحة مغطات بقبة مثمنة كما في ضريح سيدي أحمد بن يوسف و كذا بضريح سيدي عيسى ظهرت القبة مثمنة يعلوها شكل مثمن الزوايا و هو عبارة عن شكل أسطواني مثمن الزوايا.

.بمنطقة عين الأربعاء بعين تموشنت، وجدنا الأضرحة المقببة .بمختلف الأنواع أضرحة:

- بقباب هرمية الشكل كضريح سيدي عبد القادر الجيلاني وضريح سيد الفروي وضريح سيدي بلحضري وضريح سيدي داود.
- أضرحة ذات قبة نصف كروية مثل ضريح سيدي الصحبي، سيدي بن حليمة.
- أضرحة ذات قبة مضلعة كضريح سيدي سعيد البجائي.

ب- الأضرحة ذات السقف البسيط :

- .بمنطقة مغرار التحتاني نجد ضريح الحاج بلقاسم وسقفه يشبه أسقف مساكن القصر، حيث سقف ببعض جذوع النخل ثم كسي بطبقة من الطين.
- .بمنطقة تيوت نجد هذا النوع من الأسقف بضريح لا لا صفية وضريح سيدي السعيد.
- .بمنطقة عين الأربعاء وجدنا هذا النوع من الأسقف بضريح سيدي عبد الله.

والملاحظ أن الأضرحة السلطانية والشعبية اشتركت في أنواع القباب التي تعلوها، فنجد القبة المضلعة ذات 8 أضلاع موجودة في كلا النوعين، وكذا القبة النصف دائرية، ولعل قبة سيدي الهواري تقترب أكثر من نوع الأضرحة الموجودة .بمغرار التحتاني ومنطقة عين الأربعاء .

ونلاحظ أنه بالرغم من بعد المسافات إلا أن الأضرحة في الغرب تشترك في العناصر المعمارية، وقد غطت القباب أضرحة الأولياء الأكثر شهرة وأهمية في حين بقيت الأسقف العادية تغطي الأضرحة البسيطة والعادية، ولن نتم الحديث عن الأسقف دون الحديث عن الحنايا الركنية الموجودة في كل الأضرحة السلطانية التي درسناها باستثناء ضريح سيدي

الحلوي، أما بالأضرحة الشعبية فنلاحظها بضريح الاخضر بن خلوف على شكل حنيات جدارية وكذا بأضرحة منطقة تيوت مثمنة الشكل في حين تغيب عن أضرحة مغرار، وأما بمنطقة عين الأربعاء فلا شك أنها تظهر حسب نوعية القبة.

المداخل: وجدنا ضمن الأضرحة السلطانية المداخل الخارجية والداخلية، وكلا النوعين من المداخل تظهر به عقود إما حذوية أو نصف دائرية، كما نجد عناصر معمارية مختلفة كالبلاطات الخزفية المتعددة الألوان والأشكال، ولعل أحسن مداخل الأضرحة السلطانية مدخل ضريح سيدي أبي مدين الخارجي والداخلي، ومدخل سيدي ابراهيم الداخلي، وكذا مدخل ضريح سيدي الهواري، في حين تظهر مداخل سيدي بن مرزوق، والسنوسي والحلوي، بسيطة بالرغم من العقود التي تحلي مداخلهم، وقد لاحظنا وجود لوحة تذكارية بمدخل سيد الهواري ووجدنا المدخل الجميل الوحيد بالأضرحة الشعبية ألا وهو مدخل ضريح سيد الأخضر بن خلوف وبه إطار رخامي يحمل آيات قرآنية وبه زليج يحليه، في حين تظهر مداخل أضرحة منطقة مغرار التحتاني عادية وغير معقودة بعقود فهي أشبه بمداخل بيوت القصر، أما بمنطقة تيوت فنجد المداخل معقودة بعقود نصف دائرية فقط أما بمنطقة عين الأربعاء فالأبواب لا تخضع لمقاييس جمالية ولا فنية إنما هي قطعة من ألواح خشبية ركبت، بعضها على بعض لسد الضريح ليس إلا وقد عوضت النسوة البابين في ضريح سيدي السعيد البجائي وسيد سبع بإزار أو حائك[1].

موقع التوابيت: وجدت التوابيت إما تتوسط قاعات الدفن كما هو الحال بضريح سيدي إبراهيم المصمودي ، سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي، وإما ضمن غرفة الضريح كما في ضريح السنوسي، وإما ضمن الحنيات الجدارية للضريح كما هو الشأن بالنسبة لسيدي بن مرزوق و سيدي الهواري، وان كان بن مرزوق حالة خاصة ليس به تابوت وشاهدتا القبر موضوعة ضمن خزانة خشبية ، في حين غاب التابوت عن شاهدتي قبر سيدي ابراهيم المصمودي الذي يتوسط قبره قاعة الضريح.

---

[1] – السراج خالد، المرجع السابق، ص150.

بالأضرحة الشعبية وجدنا تابوت الولي سيدي الأخضر بن خلوف، يتوسط قاعة الدفن بأضرحة مغرار التحتاني، نجد تابوت الولي مباشرة بعد الدخول إلى ضريح سيد الشيخ التابوت مفتوح من الأعلى يمكنك من رؤية القبر وهذا النوع نادر من التوابيت التي لاحظناها في الأضرحة، بضريح سيدي عبد القدر محمد نجد القبر لا يكاد يرى فهو بسيط وليس به تابوت، أما بضريح الحاج بلقاسم فلا نجد سوى القبر أيضا وهو بسيط ولا أثر للتابوت.

بمنطقة تيوت، نجد تابوت قبر أحد أحفاد سيدي أحمد بن يوسف يتوسط الضريح، أما بضريح لالا صفية فالقبر موجود بداخل الضريح ولا يغطيه تابوت، كما تحتوي أغلب أضرحة عين الأربعاء على توابيت في داخلها باستثناء بعض الأضرحة البسيطة كحويطة سيدي بوعزة أو ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني ولعل ما يميز هذه التوابيت هو قلة ارتفاعها إذ لا تتجاوز 35 سم و أحسن تابوت هو ذلك الموجود بضريح سيد عبد الله وهو مزخرف ببلاط أخضر عادي.

الألوان المستعملة في الأضرحة: غلب على الأضرحة السلطانية اللون الأبيض الذي أحبه المعماري المسلم وهو عند الإمام ابن سيرين يحيل إلى معاني الجلالة والعظمة والتوبة والأخلاق الطيبة[1] واللون الأخضر ظهر قليلا بلمسات طفيفة فشاهدنا جدران سيد أبي مدين وسيدي ابراهيم المصمودي والحفيد بن مرزوق وسيدي الحلوي بيضاء أما بضريح السنوسي، فتظهر الجدران بلون أخضر بارد وخفيف في حين استعمل اللون الأخضر لتزيين حنيات وإفريز ضريح سيدي الهواري المطلي باللون الأبيض.

وعلى غرار ذلك ظهر اللون الأبيض بجدران قاعة ضريح سيدي الأخضر بن خلوف ولم يزين اللون الأخضر سوى إفريز القبة وباب المدخل وعقد النافذتين وعقد المدخل. ولم نعلم شيئا حول استعمال الألوان بأضرحة مغرار التحتاني وتيوت أما بمنطقة عين الأربعاء فقد استعمل اللون الأخضر لتزيين القبة أو المدخل في حين غلب اللون الأبيض على الأضرحة.

---

[1] - Shaker Laibi : Soufisme et Art visuel,iconographie du sacré,ed, l'harmaton , Paris, 1988, p188.

العناصر الزخرفية في الأضرحة: غلبت على الأضرحة السلطانية المهمة العناصر الزخرفية المختلفة كالزخرفة النباتية، الهندسية والكتابية، في حين غابت عن الأضرحة السلطانية الأخرى، وقد سبق الحديث عن هذا بالتفصيل. أما بالأضرحة الشعبية فقد لاحظنا غياب الزخارف النباتية الهندسية والكتابية بمعظمها. لقد جاءت مجردة و لم نلاحظ بها سوى الشرافات التي تعد عاملا مشتركا بينها ظهرت بضريح سيدي الأخضر بن خلوف في الأربعة أركان للسقف، وفي أضرحة مغرار التحتاني وتيوت وأضرحة عين الأربعاء.

وسنشير إلى بعض الزخارف الكتابية الموجودة على أبواب مداخل اضرحة عين الأربعاء كأسماء الجلالة وإسم الرسول صلى الله عليه وسلم عدا ذلك فإن جميع الأضرحة تخلو من النقوش الخطية فلم تنقش عليها لا أسماء الأولياء ولا تاريخ وفاتهم ولا آيات من القرآن الكريم، ولعل ذلك راجع لتفشي الأمية بشكل مفرط في المجتمع. والمعروف عن سكان منطقة عين الأربعاء أنهم بدو بالإضافة إلى أنهم كانوا يعيشون في دواوير صغيرة منعزلة كلية عن الحضارة[1].

أما الزخرفة الهندسية فنجدها شبه منعدمة باستثناء بعض المداخل التي تحمل نجمة وهلال مرسوما بالجير أو الدهان وهو خال من كل مسحة جمالية.

مواد البناء: ظهرت ببعض الأضرحة السلطانية مواد هامة كالبلاطات الخزفية و الزيلج والمرمر الرخام والجص وغابت عن بعض الأضرحة السلطانية الأخرى في حين وجدنا الزليج و الرخام ضمن ضريح سيدي الأخضر بن خلوف الذي يظهر على رأس الأضرحة الشعبية أما المواد المستعملة في أضرحة مغرار التحتاني وتيوت فهي الطين والطين المعجون والحجر المنحوت والتراب، أما منطقة عين الأربعاء فنجد اللبنات الإسمنتية أو الحجارة العادية والأسمنت و الطين وغاب الآجر والبلاط الخزفي والجص أو الفسيفساء الخزفية أو الخشب ويعود السبب لغلاء هذه المواد أو لندرتها[2].

---

[1] - السراج خالد، المرجع السابق، ص152.

[2] - نفسه، ص153.

الخشب: استعمل الخشب بثراء متفاوت في الأضرحة السلطانية ولعل أثراها ضريح سيدي أبي مدين، كما استعمل في الأضرحة الشعبية ضمن أبواب المداخل والتوابيت.

وقد لاحظنا الخلوة العجيبة الموجودة بضريح سيدي عبد القادر محمد بمغرار التحتاني وهي نموذج فريد من نوعه لا يوجد في أي ضريح آخر درسناه.

ولعل المهم في المقارنة التي أجريناها بين الأضرحة السلطانية والأضرحة الشعبية أننا ميزنا بين طرازين معماريين متشابهين ومختلفين في نفس الوقت وقد تعرضنا لدراسة الأضرحة المقببة لأنها الوحيدة التي تظهر طرازا معماريا مهما، ولم نتكلم عن المقام وعن المزار وعن الكركور وأيضا المغارات التي كانت مكانا معتادا لدفن الصالحين كسيدي أبو يحي بن عبد الله بميلة[1].

والمهم في حديثنا هو الإشارة إلى أن الطابع المعماري للضريح يرجع إلى العادات الفنية والهندسية في البناء لكل منطقة كما أن هناك علاقة دائمة بين العمارة الدينية والعمارة المدنية للشعوب القديمة مع الشكل وتموقع الضريح، كما أن للعادات وطرق التفكير والأذواق المعمارية تأثيرا بالغا على العمائر.

وقد بين Marçais أن بعض القباب البسيطة كانت لأولياء صالحين كان لهم صيت ذائع لكن عمليات الترميم المتعاقبة على القباب جعلت منها معالم لا تظهر أثرا معماريا مهما[2].

وهذا ما جعل بعض الأضرحة السلطانية كضريح سيد السنوسي وابن مرزوق الحفيد والهواري تتأثر بالغ الأثر بهذا النوع من الترميمات إذ مسحت عنها البصمة الأصلية وجعلت منها حقل تجارب لعدة ترميمات خاطئة. أما حال الأضرحة الشعبية فأسوأ إذا ما استثنينا ضريح سيدي الأخضر بن خلوف الذي يظهر وكأنه حديث البناء فالنماذج الأخرى من الأضرحة التي درسناها نجدها بسيطة تأثرت هي أيضا بالغ الأثر من الترميمات

---

1 - Gauvet :opcit p278-279.
2 -William et George Marçais : des monuments..., p336.

الخاطئة، ومع أن الأضرحة قد ظهرت بقباب مختلفة الأنواع والأشكال إلا أنها تبقى مرآة عاكسة بصدق للكثير من العناصر الهندسية المحلية التي تتحكم في عمارتها أشد التحكم.

في غرب الجزائر تأخذ الأضرحة طابعا نصف كروي مع بعض التعديلات فهي عادة ترتكز على قاعدة مكعبة وبواسطة عقود وزوايا أو مثلثات كروية ...وهذا مثال قبة سيدي الهواري التي تلاحظ منطقة الانتقال فيها من المربع إلى المضلع بواسطة المثلثات الكروية ....في بعض القباب المتعددة الزوايا والمضلعة القاعدة نجد أربع حنايا ركنية على هيئة نصف دائرية تشق عقد القبة الصغيرة وتضيء الداخل ومن أمثلة هذه القبة قبة سيدي يعقوب بالبليدة...بتلمسان يشير Marçais إلى وجود الغرف الجنائزية ذات الجدران المخرمة بواسطة شرافات ومسبوقة بباحة رباعية الأعمدة مزودة بمحراب. ووجود المحراب عادة بالرغم من عدم إقامة الصلاة فيه كضريح سيد عبد الله بن منصور.

وعادة ما نجد القباب النصف كروية أو المتعددة الزوايا والمضلعة القاعدة مغطاة بسقف من القرميد ففي تلمسان تظهر هذه المعالم الجنائزية الكثيرة حسنة البناء والهندسة ومن بين هذه الأضرحة سيدي الدوادي، سيدي وهاب[1].

كما ظهرت بالغرب الجزائري الأضرحة على شكل بيت يعلوه قرميد وهي عادة مبان من الحجر يعلوها قرميد بسيط وتكون مطلية بالجير وأغلب الظن ان الفلاحين البربر كانوا يدفنون موتاهم وصلاحهم في هذا النوع من الأضرحة[2].

ومن هذه الأمثلة نجد ضريح سيدي لحسن بتلمسان وغير بعيد عنه مسجد يحمل اسمه وضريح سيد الحلوي الذي يشرف على المسجد الذي يحمل اسمه.

الأضرحة ذات القبة المكسوة بالقرميد: وقد عرف هذا النوع في المغرب الأقصى وهو شكل إسباني وهي العمارة الإسلامية المستوردة إلى شمال إفريقيا ... ظهرت في المغرب الأقصى أولا في المساجد والقصور وأخيرا في الأضرحة ....ثم ظهرت في المنطقة الغربية من الجزائر ونجدها بكثرة في تلمسان وفي حلة رائعة.

---

1 - Gauvet : opcit p265-296-302-303-304.
2 - Rinn : opcit, p356.

وقد تحدث عنها Marçais ويذكر من بينها القبة الجنائزية لضريح سيدي أبي مدين وبضريح الشيخ السنوسي، سيدي محمد بن علي، فقبابهم مكسوة من الخارج بالقرميد ذي الأربعة أرداف [1].

وظهرت نماذج أخرى مختلفة منها نموذج الضريح ذو القبة النصف دائرية مدببة ونجده بضواحي الشلف ومعسكر ومشرية والأضرحة ذات القباب الأسطوانية بمركز طفيف بنواحي وهران وباتجاه الشرق...بمغرار التحتاني.

بتيوت نجد الأضرحة التي تعلوها قباب مثمنة الزوايا، كما توجد أضرحة بسيطة بأسقف تشبه مساكن الأهالي[2].

وقد أوردنا في بحثنا نماذج عن الأضرحة السلطانية ونماذج عن الأضرحة الشعبية حتى نتمكن من دراسة أوجه الاختلاف والتشابه في العناصر المعمارية وكذا الأبعاد المختلفة التي أثرت على ظهور الضريح آية في الجمال وتحفة معمارية أو ضريحا بسيطا يرمي المؤسس من ورائه الى غاية روحية أكثر مكنها معمارية.

ولن نختم هذا الفصل دون الحديث عن أن الاضرحة في المشرق الاسلامي تحوي قبور السلاطين و الامراء المؤسسين للمجمع بينما اضرحة المغرب كانت تحوي قبور العلماء و الاولياء و الصالحين.

ان النواة الأولى للمجمع في أغلب الأحيان يكون هو المدرسة في المشرق بينما في المغرب فهو الضريح.[3]

---

[1] - Gauvet : opcit, p321.

[2] - قوراري عيسى، المرجع السابق، ص85.

[3] معروف بلحاج:المجمع المعماري بالعباد،دراسة اثرية مقارنة، حولية المؤرخ ،المركز الوطني للدراسات و البحث. ص 151-152

الخاتمة:

لا تزال الأضرحة تستهوي الكثير من الزوار على اختلاف مستوياتهم، ومناهجهم، في كل الغرب الجزائري وهي في ذلك تستحوذ على كل التقدير والاحترام.و من خلال الدراسة الّتي قمنا بها للنماذج المختلفة لأضرحة الغرب الجزائري، استطعنا الوصول الى النتائج الآتية:

- لقد أدّت الخلفية التاريخية، و الدينية، دورا أساسيا في صقل شخصية المؤسسين، وهذا من خلال الفنون التي خلفتها إذ نلاحظ أن مؤسسي الأضرحة السلطانية المختلفة قد تأثروا ببيئات مختلفة، وانعكست على الأضرحة إما ثراء وتنميقا، وامّا زهدا وبساطة، لقد كان يغمراسن ابن زيان مؤسس الدولة الزيانية يحب الفنون ويشجع العمارة، ولكنه كان لا يزال متشبعا بالبيئة البدوية والتيارات الدينية، نظرا لقرب عهده بالعهد الموحدي، لذلك نجد أن ضريح سيدي بن مرزوق بسيط في عناصره المعمارية، حتى وإن بدى مقببا.و ضريح سيدي الحلوي الذي أسسه سلطان زياني آخر هو أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن، بدا أكثر الأضرحة السلطانية بساطة لأن تلمسان عاشت في عهد هذا الأخير الكثير من الصراعات، كماأن الفن كان لا يزال يخطو خطوات بطيئة. وقد أبرز ضريح سيدي الحلوي دلائل روحية، ورمزية، أكثر منها معمارية. الضريح الثالث الذي ينتمي إلى الفترة الزيانية هو ضريح السنوسي،الذي شيده الثابتي، الذي عرف بتذوقه للفنون، بدا بسيطا على الرغم من أنه مقبب، لأن السنوسي بطبيعته كان زاهدا في الدنيا، محبا للبسطة ومقدساتها، فعكس ضريحه أفكاره وشخصيته، فالولي كان يكره كل زينة الدنيا الزائلة. و لم تظهر قوة الفن الزياني إلّا مع السلطان أبو حمو موسى الثاني، مؤسس ضريح سيدي ابراهيم المصمودي الذي شيّد بعد الرحيل النهائي للمرينيين من تلمسان، و اعادة جلوس أبي حمو موسى الثاني على ملك أجداده، و الذي بدى نسخة مصغرة عن ضريح سيدي أبي مدين، فهو يشبهه في المخطط، و العناصر المعمارية، كما برزت من خلاله بعض العناصر المعمارية الهامة، التي عرفت تطورا ملحوظا في الفن الزياني . و لعل هذا الضريح السلطاني هو الأحسن في سلسلة الأضرحة الزيانية.

مسك ختام الأضرحة السلطانية بتلمسان، هو ضريح سيدي أبي مدين الذي تعددت به بصمات المرممين، و كانت أحسنها بصمة أبي الحسن المريني، الذي جعل منه تحفة معمارية لا نظير لها، فكما أكد Brosslard أن هذا الضريح هو الأروع من نوعه الموجود في الجزائر، فمع أن ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي مشهور، و جدير بالزيارة إلا أنه يظهر فقير معماريا، وينتمي الى مرحلة ضعف، فكل مقارنة بين الضريحين تكاد تكون غير ممكنة، ونفس الشيء يقال دون تعسف على المعالم المختلفة لمدينة قسنطينة، والتي تخلد أولياءها، فضريح سيدي أبي مدين،يأتي في الريادة من الناحية المعمارية، والزخرفية،ضمن الأضرحة السلطانية في الجزائر دون منافس.

آخر ضريح سلطاني هو ضريح سيدي الهواري بوهران، والذي أسسه الباي محمد الكبير باي وهران، يظهر بسيطا من الناحية المعمارية، مع أن هذا المؤسس كان يشجع العمارة ويحرص عليها.

أما الأضرحة الشعبية، فلم نتعرض لمؤسسيها لأننا نجهلهم فهي نتاج تعود عفوي لبعض الزوار.

أما النتائج التي تتعلق بالجانب المعماري الفني فهي كالآتي:

- ان معظم الأضرحة السلطانية التي درسناها تعلوها قبة، باستثناء ضريح سيدي الحلوي الذي يظهر سقفه بسيط، وهذا الضريح من أنواع الأضرحة التي تبنى عند بوابات المدن بغرض الحماية فهو الحارس المعنوي لباب الزاوية.
- يمكن تقسيم الأضرحة السلطانية إلى قسمين: أضرحة تعولها قبة، وهي تعدّ جزء من المساجد، وكانت تشكل جزءا من المجمعات المعمارية، و يتعلق الأمر بضريح سيدي أبي مدين وسيدي ابراهيم، وضريح الحفيد بن مرزوق، وقد قسمنا هذه الأضرحة حتى نبين أنها برزت معماريا، في إطار لائق وظهرت بمظهر رائع كضريحي سيدي أبي مدين، وسيدي ابراهيم المصموي، أما ضريح بن مرزوق، فظهر أبسط منهما معماريا، مع أنه يعد روضة ملكية على غرار سابقيه .

- أما الأضرحة التي تبنى في تموقع عادي كضريح السنوسي، الذي يقع ضمن المقبرة الكبرى بتلمسان وضريح سيدي الهواري، فظهرا بسيطين من حيث العناصر المعمارية بالمقارنة مع الأضرحة الأخرى.
- ان ظهور القبة فوق أسقف الأضرحة السلطانية، أضفى عليها طابعا جماليا خاصا مما يبرز مدى الاحترام الذي، يكنه كل مؤسس لهذا الولي الذي سكن الضريح.
- الأضرحة الشعبية، ظهر بعدها مقببا، والآخر بسقف عادي، ولعل أحسن هذه الأضرحة، ضريح سيدي الأخضر بن خلوف، الذي يظهر راقيا من الناحية المعمارية وذلك اكراما للولي المشهور الذي يسكنه،و ظهرت أضرحة مغرار التحتاني، وتيوت،متأثرة بلاتجاهات المذهبية، والقناعات التاريخية، لكل منطقة ومع أن البعض منها ظهر مقببا إلا أنه خلا من أية زخرفة بشتى أنواعها وذلك لطبيعة البيئة الصحراوية وندرة المواد فيها.

أما منطقة عين الأربعاء، فظهرت بها الأضرحة سواء كانت مقببة، أو بسقف عادي، أفقر من الناحية المعمارية والزخرفية،وذلك لبساطة سكانها، وعدم استعمالهم لأي تنميق في بنائها.

- ان الميزة الهامة في الأضرحة الشعبية، هي أن بعضها ظهر بمظهر الحويطة، أو الكركار، أو الحوش، وهو بذلك رمزي أكثر،و قد كان نتاج دوافع روحية بحتة، فالوازع الديني، كان يطغى على الوازع المعماري و الزخرفي.

لقد تأثرت عمارة بعض الأضرحة السلطانية، والتي تظهر ضمن مجمعات، بعمارة الأضرحة في المشرق، فضريح سيدي ابراهيم كان مندمجا ضمن مرافق أخرى كالمدرسة، على غرار الضريح عند الأيوبيين، و الى جانب ضريح سيدي أبي مدين، بني المسجد والمدرسة، ضمن مجمع معماري، وكان بذلك أبو الحسن المريني، أول من بنى المرافق بجانب المسجد، (كالمدرسة وهي تتفق تماما مع الخانقاه في المشرق)، في المغرب في حين كان المماليك، أول من أدمج تصميم المدرسة والضريح، ضمن المسجد.

لقد كان الأيوبيون، أول من بنى قبة أو ضريح اكراما لرجل تقى، وعلم، من أعلام الإسلام ألا وهو الإمام" الشافعي"، كما شيد السلاجقة، بعدهم ضريحا مستقلا بذاته للإمام الغزالي، حجة الإسلام سنة(1111هـ) وسار على منوالهم سلاطين المغرب، إذ أنهم بنوا أضرحة اما مستقلة، أو مندمجة، للعلماء، والأولياء، وكذا السلاطين على أن هذا النوع الأخير قليل بتلمسان، عدا روضة بني زيان وضريح يغمراسن، المندمج ضمن الجامع الأعظم إلى جانب الإمام ابن مرزوق.

تعددت أنواع وأشكال القباب بالأضرحة السلطانية، فمن القبة التي تعكس الفن المريني بصدق، وهي قبة سيدي أبي مدين التي ترتكز على 12 لوحة مزينة بأربع وعشرين عقدا نصف دائريا،وتنطلق منها سلسلة التشبيكات الهندسية، التي تنتهي بنجمة ذات أربعا وعشرين رأسا، أما من الخارج فتتميز القبة بسقف ذو أربع أرداف مغطى بالقرميد.

ولعل أقرب القباب لقبة ضريح سيدي أبي مدين، هي قبة السنوسي التي تحتوي على اثنا عشرة ردفا من الداخل، كما يغطيها من الخارج سقف هرمي ذو الأربعة أرداف، على غرار قبة ضريح سيدي أبي مدين مع أن المؤسسين أحدهما، زياني والآخر مريني إلا أن التشابه بدى واضحا.

- في حين ظهرت قبة سيدي ابراهيم، وسيدي ابن مرزوق، وسيدي الهواري، مثمنة الشكل ذات الثمانية أضلاع، ومع أن قبة ضريح سيدي إبراهيم، هي النموذج الوحيد المتبقي لنا بعد استقرار الزيانين بتلمسان، ورحيل المرينيين النهائي منها إلا أنها تظهر بمظهر بسيط.
- ولعل العامل المشترك بين هذه القباب هو منطقة الانتقال، التي تظهر فيها جميعا متشابهة باستثناء ضريح سيدي الهواري، فبكل الأضرحة تظهر منطقة الانتقال عبارة عن حنايا ركنية. في حين تظهر منطقة الانتقال بضريح سيدي الهواري، عبارة عن مثلثات كروية .

ظهرت القباب بالأضرحة الشعبية مختلفة الأشكال فمنها:

- القبة المضلعة (ذات الثمانية أضلاع) بضريح سيدي الأخضر بن خلوف .

- القباب القريبة من الهرمية (أو النصف كروية)، وتحيط بها أربعة قبيبات صغيرة كما هو الحال في ضريح سيد الشيخ بمغرار التحتاني، وهذا النوع من القباب بني تأثرا بأضرحة أولاد سيد الشيخ، الذين كانوا على علاقة وطيدة بأهل مغرار التحتاني.ولن نبرح منطقة مغرار التحتاني، دون الإشارة إلى قبة ضريح سيدي عبد القادر محمد، التي تظهر أسطوانية تنتهي بشكل مخروطي، ولوحظ هذا النوع من الأضرحة في الجهة الوهرانية، فهي تحمل قبابا بأشكال أسطوانية ضيقة نسبيا عبارة عن برج ينتهي بقبة.

- وهذا الطراز من القباب وجد في آسيا خاصة في الكنائس الأرمينية والروسية وأيضا في منارات مساجد مصر،و سوريا وتركيا.

- قباب مثمنة الأضلاع كقبة سيدي أحمد بن يوسف بمنطقة تيوت .

- قباب مختلفة الأشكال منها النصف كروية، القبة المضلعة ، القبة البيضوية،القباب الهرمية وهي موجودة بمنطقة عين الأربعاء بعين تموشنت.

وقد اختلفت فيها منطقة الانتقال فهي تظهر على شكل حنايا ركنية، بسيدي الأخضر بن خلوف، وبمنطقة تيوت.

ولعل العامل المشترك بين هذه الأضرحة الشعبية، والضريح السلطاني سيدي الهواري، هي الشرافات التي تزين هذه الأضرحة من الخارج.

وكما ظهر السقف العادي البسيط بالضريح السلطاني، سيدي الحلوي، ظهر هذا النوع من الأسقف بأضرحة مغرار التحتاني، كضريح الحاج بلقاسم، وضريح لّالّا صفية، وسيدي السعيد، بمنطقة تيوت وضريح سيدي بن عبو، بمنطقة عين الأربعاء.

لقد كانت العناصر المعمارية متقاربة في الأضرحة السلطانية، مع بعض الثراء أو النقص فقد وجدنا في جميعها محاريب، اما على هيئة محراب ظاهر، أو على شكل دخلة جدارية تأخذ محل المحراب، العقود باختلاف أنواعها، والنوافذ والفتحات باستثنائها في ضريح سيدي الحلوي.أما الزخارف الكتابية، والهندسية، والنباتية، فقد بقيت حكرا على أضرحة سيدي أبي مدين ، سيدي ابراهيم المصمودي في حين ظهرت قليلة في ضريح ابن مرزوق ومنعدمة بضريح السنوسي والهواري.

بالأضرحة الشعبية، وجدنا المحراب ضمن الحنيات الجدرانية لضريح سيدي الاخضر بن خلوف،وفي بعض أضرحة تيوت، وغابت عن أضرحة مغرار التحتاني، وعين الأربعاء .

كما وجدت النوافذ والفتحات بضريح الأخضر بن خلوف، ومنطقة مغرار التحتاني، وتيوت، في حين غابت تماما عن أضرحة منطقة عين الأربعاء.

أما الزخرفة الهندسية والكتابية والنباتية فقد كانت غائبة تماما في الأضرحة الشعبية.

ظهر ضريح سيدي الحلوي السلطاني، بكوات جدارية على غرار الضريح الشعبي سيدي الأخضر بن خلوف.

أخذ الضريح السلطاني نسبة الشخصية التي تسكنه، أي المدفون به، في حين وجدنا بالأضرحة الشعبية بمنطقة مغرار التحتاني، في ضريح سيدي عبد القادر محمد، غير مدفون به سوى أحد أحفاد سيدي عبد القادر محمد، وعلى غرار ذلك نجد بمنطقة تيوت، بضريح سيدي أحمد بن يوسف، قبر أحد أحفاده، فأحمد بن يوسف مدفون بمليانة، وهذه الظاهرة غير موجودة بالأضرحة السلطانية.

إنّ المقارنة التي قمنا بها بين النماذج المختارة جعلتنا نصنّف حسب الذوق الجمالي و المعماري،ضريح سيد أبي مدين على رأس الأضرحة السلطانية، وضريح سيدي الأخضر بن خلوف، على رأس الأضرحة الشعبية.

والحق أن الأضرحة السلطانية الرسمية، قد ظهرت ثرية من حيث العناصر المعمارية الموجودة بها، مقارنة بالأضرحة الشعبية،التي تظهر أفقر معماريا، وهي بذلك أضرحة رمزية أكثر لا تجلب الزائر معماريا، بقدر ما تجلبه روحيا ومعنويا.

وخلاصة القول أن هذه الأضرحة المدروسة بالغرب الجزائري، تلعب دورا هاما في عكس مختلف البيئات،باختلاف اعتقاداتها،واتجاهاتها، وعاداتها، وتقاليدها المعمارية، كما أنها تبين مدى تعلق شعب كل منطقة بأولياءه، ومدى تقديسه لهم ومحاولة حفظ أسمائهم في ذاكرته الشعبية.

قائمة المصادر و المراجع

I. المصادر العربية :

1- القرآن الكريم : برواية ورش.

2- ابن تيمية :(تقي الدين) – ت: 728هـ/1327م " الجواب الباهر في زوار المقابر " تحقيق الشيخ سليمان بن عبد الرحمان الصنيع، والشيخ عبد الرحمان يحي اليمامى، الطبعة الرابعة- 1401هـ/1980م.

3- ابن خلدون أبو يحي زكرياء: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية 1400-1980.

4- ابن خلدون عبد الرحمن:

- المقدمة: دار الجيل بيروت

- كتاب العبر:دار الكتاب اللبناني بيروت 1966،ج6.

5- أبي داود :كتاب البيوع،باب الرهن (قرص مضغوط).

6- ابن الأثير "علي بن أحمد بن أبي الكرم":" الكامل في التاريخ"، دار صادر، بيروت، لبنان، الجزء 3.

7- الألباني (ناصر الدين): تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، القاهرة 1377هـ/1957م.

8- الأنصاري (أبو عبد الله محمد) : فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة(دار الكتاب الوطنية بتونس).

9- الباروني (سليمان): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، بدون تاريخ، ج2.

10- البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)، تأريخ: 256هـ/869م، صحيح البخاري، المجلد الأول، ج2، (بيروت بدون تاريخ).

11- البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب نشره دي سلان Deslane بعنوان Description de l'Afrique Septentrionale ، الجزائر 1911.

12- الحفناوي (أبو القاسم محمد) ، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية الجزائر، (1325هـ/1907م) ، ج1.

13- ابن أبي الزرع (علي بن محمد الفاسي) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشره Tornberg أبسال 1843.

14- الزمخشري : تفسير الكشاف، تحقيق محمد مرسي عامر، ط 2 في ستة أجزاء، دار المصحف، القاهرة 1397 هـ /1977م ، ج 5.

15- السلاوي: الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء (بدون تاريخ).

16- السنوسي: العقيدة الوسطى، ط1، مطبعة التقدم الوطنية، تونس، بدون تاريخ.

17- نور الدين الشطنوفي : " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار" مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

18- الشوكاني (محمد بن علي) تأريخ : 125هـ/1834م نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخيار، ج3، بولاق، 1297هت/1879م.

19- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد إبراهيم، المطبوعات الجميلة، الجزائر 1986.

20- الصنعاني: (محمد بن إسماعيل): سبل الإسلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام صححه وعلق عليه: عبد العزيز الخولي- القاهرة بدون تاريخ ، ج2.

21- الغزالي (أبو حامد): إحياء علوم الدين، الجزء 1، طبعة مصر ، 1302هـ.

22- الغماري (أحمد الصديق): إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد والقباب على القبور، مطبعة دار التأليف بمصر- (بدون تاريخ).

23- زين الدين أبي الفضل:" المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار في تخرج ما في الأحياء من أخبار ، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

24- الفيومي (أحمد بن محمد بن علي)، ت: 770هـ/ 1368م المصباح المنير، ج1.
25- القاشاني (كمال الدين عبد الرزاق):" إصلاحات الصوفية"، تحقيق وتعليق الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر ، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.
26- بن ينصارن الماجري المغربي (أبو العباس أحمد):" المنهاج الواضح في ذكر المناقب"، الشيخ أبي محمد صالح ، الطبعة الأولى 1933، المطبعة المصرية ، محمد بن محمد عبد اللطيف
27- المراكشي (محي الدين عبد الواحد بن علي): كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي، القاهرة، 1958.
28- المقري (أحمد بن محمد):"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، دار صادر، بيروت المجلد السابع.
29- ابن المنظور: (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) 711هـ/ 1311هـ لسان العرب، سلسلة تراثنا- طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، ج 17.
30- ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والاندلس، ترجمة الدكتور سيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، 1958.
31- زروق (أبو العباس أحمد بن محمد) :" قواعد التصوف"، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة 1983.
32- ابن سعد:(محمد بن سعد كاتب الواقدي)"الطبقات الكبرى"- القاهرة 1358هـ/1939م.
33- ابن سيده المرسي (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف) : 458هـ/ 1065م المخصص- الطبعة الأولى. بولاق 1318هـ/ 1900م ، ج6.
34- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن ابن عبد الله) فتوح مصر والمغرب، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة، 1961، وطبعة Albert Gateau ,conquête de l'Afrique du nord et l'Espagne ,Alger,1947

35- بن عجيبة الحسني (أحمد بن احمد):" كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، مطبعة الجمالية بحارة الروم، مصر 1986 .

36- ابن عذارى (أبو العباس أحمد): البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان جزان، ليدن 1948-1951 وطبعة صادر جزان- بيروت 1950، ج1.

37- ابن فرحون : "الديباج المذهب"، مطبعة السعادة القاهرة، 1909، وبهامشه نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي.

38- ابن قدامة (موفق الدين أبي محمد) ت: 620هـ/1223م المغني والشرح الكبير ج2، بيروت 1972م.

39- مخلوف (محمد بن محمد): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

40- ابن مرزوق (محمد): " المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية (SNED) النصوص والدراسات التاريخية،5 ،الجزائر1401-1981.

41- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف المليتي المديوني) :" البستان في ذكر،الأولياء والعلماء بتلمسان"،المطبعة،الثعالبية الجزائر،سنة (1326هـ،1908م).

42- مسلم (الإمام أبي الحسن مسلم النيسابوري) (261هـ-847م) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم - ج3- بيروت بدون تاريخ.

43- بن ميمون الجزائري (محمد) : " التحفة المرضية في الدولة البكداشية"، مطبعة الجزائر، 1981.

II. المراجع العربية:

1- أوقطاي آصلان أبا: (فنون الترك وعمائرهم)، ترجمة أحمد موسى عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، الطبعة العربية الأولى مطبعة رانكل باسطنبول 1987.

2- أبي صالح الألفي: الخط العربي كفن تشكيلي ووظيفته في الفنون الإسلامية الأخرى في حلقة بحث الخط العربي.
الفن الإسلامي، أصوله فلسفته مدارسه، دار المعارف المصرية القاهرة 1974.

3- ريتشارد اتنكهاوزن، الفنون الزخرفية- التصوير في تراث الإسلام، ط2.

4- حسن الباشا: الخط الفن العربي الأصيل، في حلقة بحث الخط العربي (م، أ، ر، آ، ع، إ) دار المعارف بمصر، القاهرة 1986.

5- عبد الحميد بن أشنهو : دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش الجزائر 1334-1972.

6- محمد بن الحاج الغوثي بخوشة:ديوان سيدي الأخضر بن خلوف شاعر الدين والوطن، سلسلة في الشعر الملحون، نشر ابن خلدون، تلمسان (الجزائر).

7- رشيد بوروبية: الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة إبراهيم شبوح التاريخ و الحضارة 2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر(SNED) 1973 – 1399.

8- رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، سبتمبر 1986.

9- عبد المالك بن عبد القادر بن علي: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا، القسم الأول، مطبعة دار الجزائر (دمشق) بدون تاريخ.

10- عبد الرحمن الجلالي: تاريخ الجزائر العام، الجزء 2 ، 1375-1955، الجزائر 1375هـ-1955م.

11- محمد حمزة إسماعيل الحداد: - القباب في العمارة المصرية الإسلامية القبة (منشأها وتطورها) حتى نهاية العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى 1993م- 1412هـ.

12- الدكتور زكي محمد حسن: "كنوز الفاطميين"، دار الرائد العربي، بيروت 1401-1981.

13- د. حسن إبراهيم والأستاذ طه: "عبيد الله المهدي"، إمام الشيعة الإسماعيلية القاهرة، 1947.

14- عبد الحميد حميدو:" السعادة الأبدية لأبي مدين شعيب فخر الديار التلمسانية" طبع المطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة 1354هـ-1935م.

15- إبراهيم جمعة: دراسة في تطور للكاتبات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة 1969.

16- سامح كمال الدين: تطور القبة في العمارة الإسلامية، مجلد كلية الآداب مج 12، ج1،ما يو 1950.

17- سيد عبد العزيز سالم: "المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية "، دار النهضة العربية- بيروت، 1981.

18- سرور جمال الدين:" مصر في عصر الدولة الفاطمية"، القاهرة 1970.

19- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16م- 20م) الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر(6) والتوزيع، الجزائر 1981.

20- سعد زغلول عبد الحميد:" تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال" (ليبيا تونس والجزائر والمغرب)،منشأة المعارف بالإسكندرية1995، ج1.

21- سيد أحمد سقال:" الولي الصالح أبي مدين"، منشورات سقال 10، نهج إدريس، تلمسان، 1993.

22- عبد القادر أحمد اليوسف: " علاقات بين الشرق و الغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر"، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت 1969.

23- (ـــــــــــ ـــــــــــ):" الفن الإسلامي"، ترجمة الدكتور أحمد موسى، دار صادر ، بيروت، 1966.

24- أحمد فكري: "مساجد القاهرة ومدارسها ": المدخل، دار المعارف بمصر القاهرة 1961.

25- فييت: "القاهرة مدينة الفن و التجارة"- ترجمة العبادي.

26- صبحي الشاروني: "الفنون الزخرفية"، دار الطباعة الحديث، القاهرة 1982.

27- فريد الشافعي: "العامرة العربية في مصر الإسلامية"، المجلد الأول- عصر الولاة 1980.

28- محمد بن رمضان شاوش: "باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان"، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، 1985.

29- علي عبد المنعم شعيب:" المختصر في تاريخ مصر"(من أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني)، دار ابن زيدون للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

30- عكاشة الشايف:" الحضارة العربية الإسلامية بين التطور والتخلف"، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عنون، الجزائر، 04- 1994.

31- عبد الفتاح مقلد الضيمي: موسوعة المغرب العربي، المجلد الثاني، مكتبة مدبولي، مصر 1988.

32- محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 3 شارع زيروت يوسف الجزائر 1985.

33- أحمد بن مختار العبادي: نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور الوسطى فصلة من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي.
34- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية (الأضرحة والمقابر)، دار المعارف، القاهرة، 1981.
35- شاكر الهادي عضب : الفن المعماري والهندسة التشكيلية العامة في المساجد الإسلامية والمراقد المقدسة بغداد 1977 م.
36- ارنست كونل: الفن الإسلامي ترجمة أحمد موسى،دار صادر بيروت، 1966.
37- عبد العزيز محمود لعرج:" الزليج في العمارة الإسلامية في العصر التركي" المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، الجزائر، 1990.
38- سعاد ماهر:" مشهد الإمام علي في النجف"، القاهرة 1968.
39- أحمد توفيق المدني:"حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792" الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
40- عبد العزيز مرزوق:" الحياة الفنية في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح التركي"، تاريخ الحضارة المصري(العصر اليوناني و الروماني والعصر الإسلامي) المجلد الثاني.
41- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن 16 إلى 19 م، المجلد الأول، العصر الحديث للنشر و التوزيع.
42- (ـــــ ـــــ): "المساجد"، عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، 1981.

الرسائل الجامعية

1- بلحاج معروف : العامرة الدينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب من خلال بعض النماذج، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه، قسم علم الآثار تلمسان 1432هـ/مارس 2002.

2- عبد العزيز لعرج: "المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية"، دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، معهد الآثار سنة 1999.

3- سيدي محمد الغوتي بسنوسي: الزخرفة في مساجد تلمسان، رسالة جامعية مقدمة للحصول على درجة الماجستير، جامعة تلمسان(في الثقافة الشعبية) 1410هـ 1990م.

4- جمال الدين بوكلي حسن: ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية و في الواقع، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، معهد الثقافة الشعبية، سنة 1997.

5- محمد حمزة إسماعيل الحداد: "قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك"، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ، 1986.

6- خالد السراج : المقدس ودلالته في المجتمع الجزائري الضريح بمنطقة عين تموشنت نموذجا، دراسة فنية معمارية، رسالة ماجستير مقدمة لنيل درجة الماجستير، السنة الجامعية 2001.

7- عيسى قوراري: قصر تيوت دراسة أثرية ومعمارية، رسالة ماجستير، السنة الجامعية 1422هـ- 2002م.

8- عبد المجيد مباركي: قصر مغرار التحتاني دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير،تلمسان 1422هـ- 2001م قسم الثقافة الشعبية.

9- سيدي محمد النقادي:" التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية " رسالة لنيل درجة الماجستير معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، سنة 1991.

المجلات و الدوريات العربية

1- بلحاج معروف : المجمع المعماري في العباد، دراسة أثارية مقارنة "حولية مؤرخ" المركز الوطني لدراسات والبحث في الحركة الوطنية.

2- زكي محمد حسن :"الفنون الإسلامية"، منشورات اتحاد أساتذة الرسم، القاهرة 1956 .

3- جمال الدين شيال: " بحث عن مصر في العصر الفاطمي"، في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، ج6.

4- سعد زعلول عبد الحميد : فترة حاسمة من تاريخ المغرب، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية، المجلد الأول، بن غازي،1985.

المراجع بالفرنسية

1- L'Abbé BARGES : Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan roi de Tlemcen, ouvrage du cheikh Mohammed Abdal- djalil Al –Tenessy, Ernest le roux , 28 bonaparte,1887.

2- L'Abbé BARGES : Vie de Célèbre Marabout cidi – boumedin, autrement dit sidi – bomedien, Paris, Larousse librairie.

3- Ammar Dhina : Cités musulmanes d'orient et d'occident, entreprise nationale du livre- Alger, N°4 édition : 1351/83 Alger 1986.

4- A.Lezine : Mehdiya, Société tunisienne de diffusion, Tunis 1968.

5- George et William Marçais : Les monuments arabes de Mascara, in R. AN°4.Office des publications Universitaire, Alger 1859/60.

6- George Marçais : L'art musulman, presses universitaire de France 108, boulevard saint – Germain Paris 1962.

7- H. Terrasse, L'Art Hispano-Mauresque des origines au XIII eme siecle, vandest, Paris.

8- H. Terrasse, La mosquée dal quarawiyin a fes, archéologie méditerranéenne 3, clincksick, paris 1968.

9- Henry Martin : l'art Musulman, Flammarion 26, Rue Racine, 26 Paris 1926.

10-Henri stierling : Architecture de l'islam de l'atlantique au Gange, office du livre, Fribourg (Suisse) 1979.

11-J.Berque, L'Algérie terre d'art et d'histoire.

12-Laibi Shaker: Soufisme et Art visuel, iconographie du sacré, ed, l'harmaton, Paris, 1988.

13-Maslow : Les mosquées de Fès et du nord du Maroc, les éditions d'Art et d'histoire, Paris 1937.

14-Rachid Bourouiba : L'art religieux musulman en Algérie, société national d'édition et de diffusion, 2eme édition, Alger 1983.

15-Rachid Bourouiba : Apports de L'Algérie à l'architecture religieuse Arabo- Islamique, office des publications universitaires- Alger, 1986.

16-Rinn : marabouts et khouans, B.S.G.O 1884.

17-Serge Bonne : Une esthétique négative, essai sur quelques aspects de l'Art musulman, Paris 1968-1978.

18-TiTus Burckardt : l'Art de Islam – Sindbad – Paris 1985.

19-V. Dangles : Haouita Haouch M'kam, B.S.G.O. Oran, mai 1908.

المجلات و الدوريات الأجنبية:

1- ch Brosselard : « Inscription Arabes de Tlemcen », In R. Africaine, t4 office des publications universitaires, Alger 1859-60.

2- Cominardi : « Au cœur des morts de Ksar de Chellala- Dahrania, tradition, modernité », H.T.M in revue d'architecture et d'urbanismeN2 Alger 1995.

3- Gauvet (c.d.t) « Les marabouts petits monuments et votifs du nord de l'Afrique » in revue Africaines N) 64- 1923 opu Alger 1986.

4- Leclerc : « Inscription Arabes de Mascara », In R. Africaine N4 office des publications universitaires, Alger 1859-60.

5- Le site Tlemcen.

الملاحق

- الخرائط
- الأشكال
- اللوحات

أولا : الخرائط

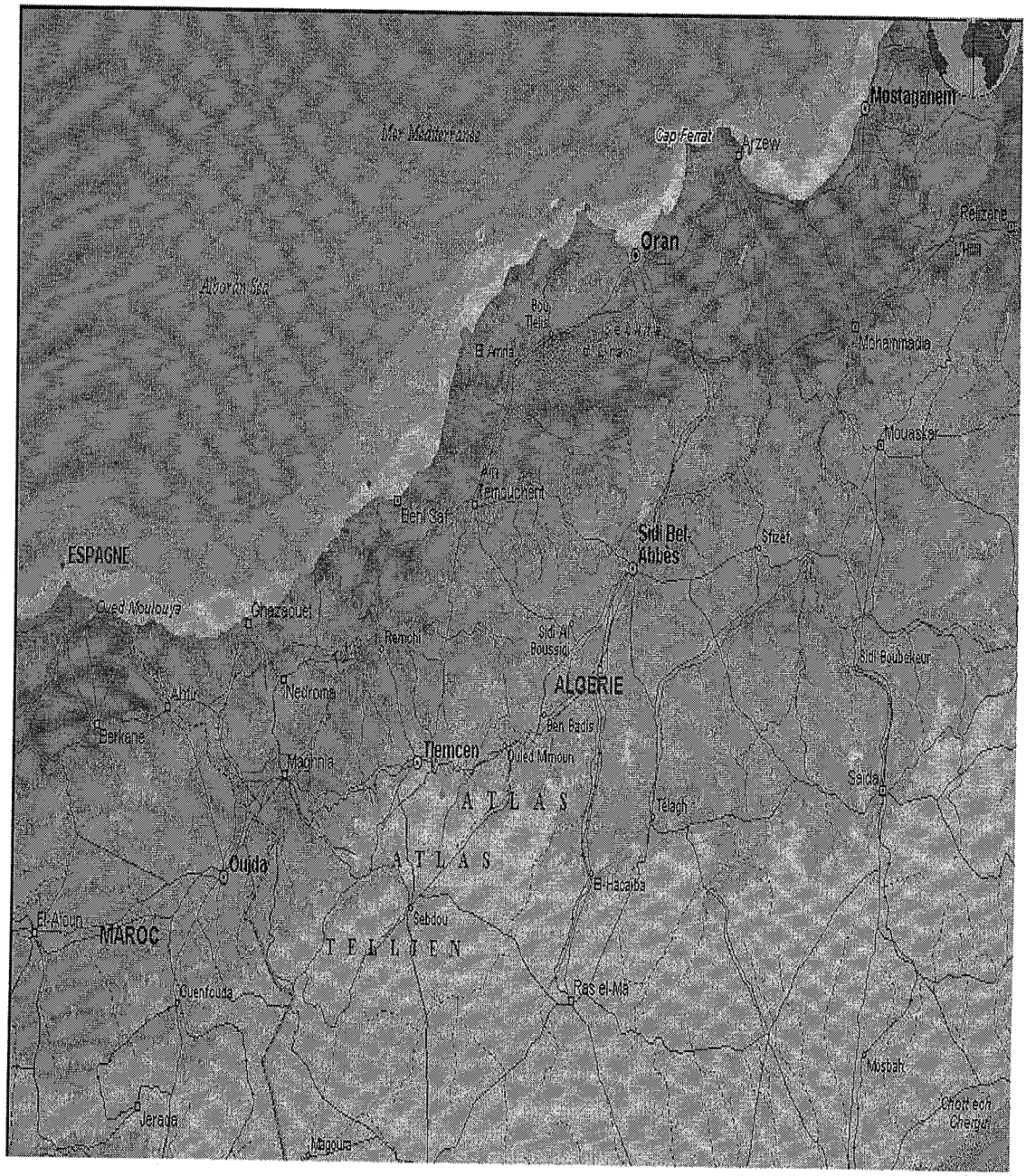

الخريطة رقم1 : جزء من خريطة الغرب الجزائري

الأطلس : Encarta 99

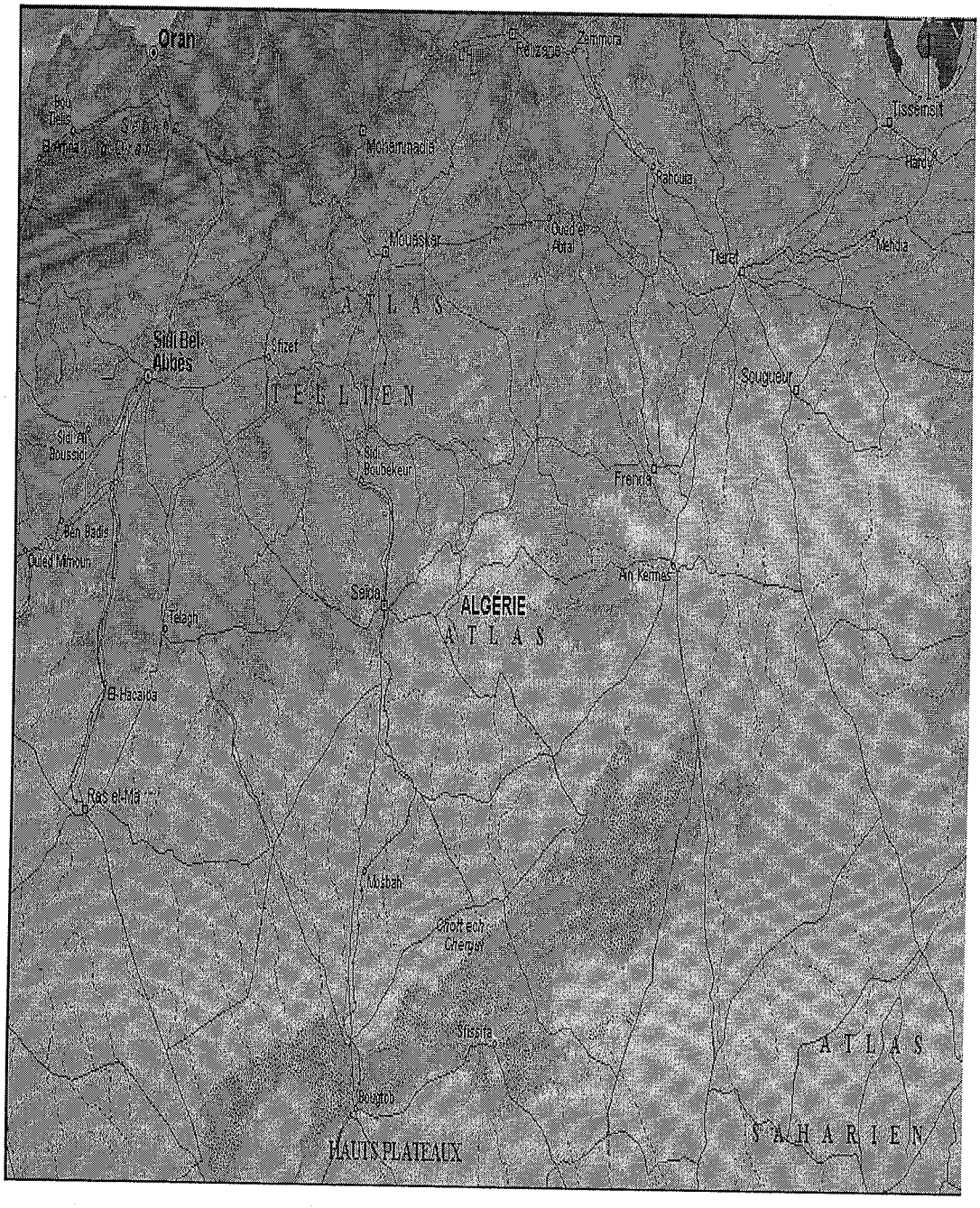

الخريطة رقم2 : جزء من خريطة الغرب الجزائري

الأطلس :Encarta 99

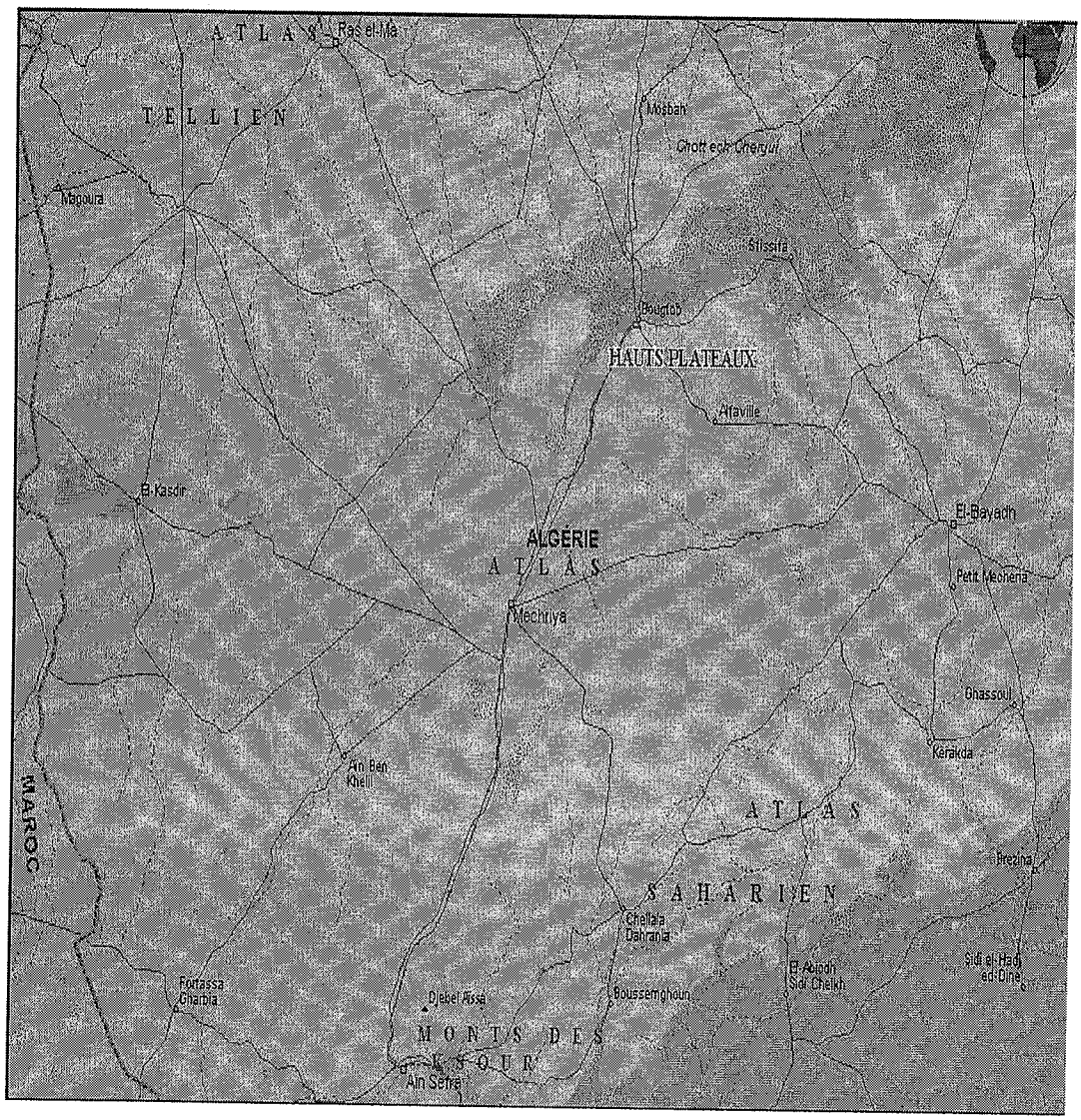

الخريطة رقم3 : جزء من خريطة الغرب الجزائري

الأطلس :Encarta 99

ثانيا : الأشكال

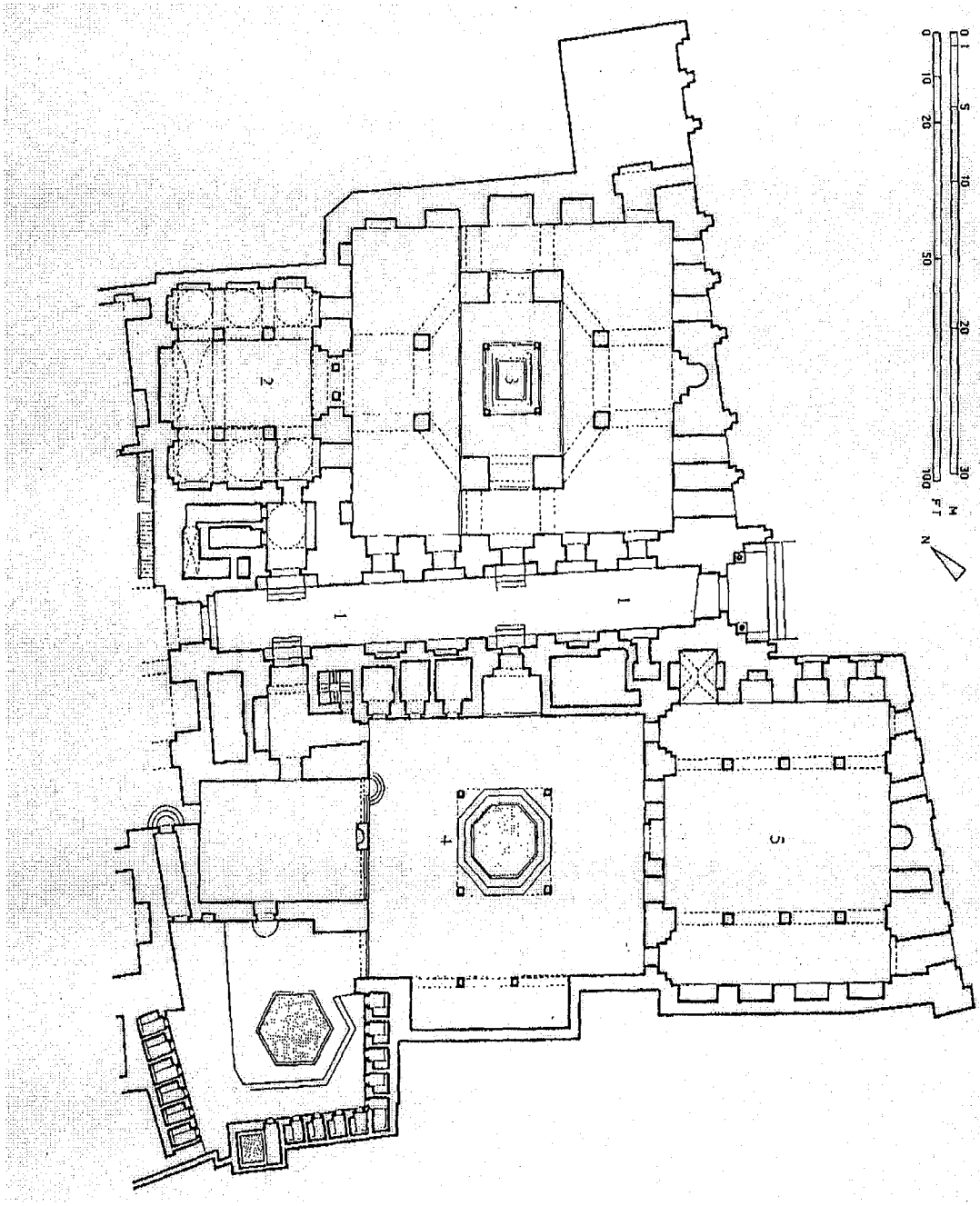

(الشكل رقم **01**): مخطط مجمع قلاوون بالقاهرة

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam..., P164)

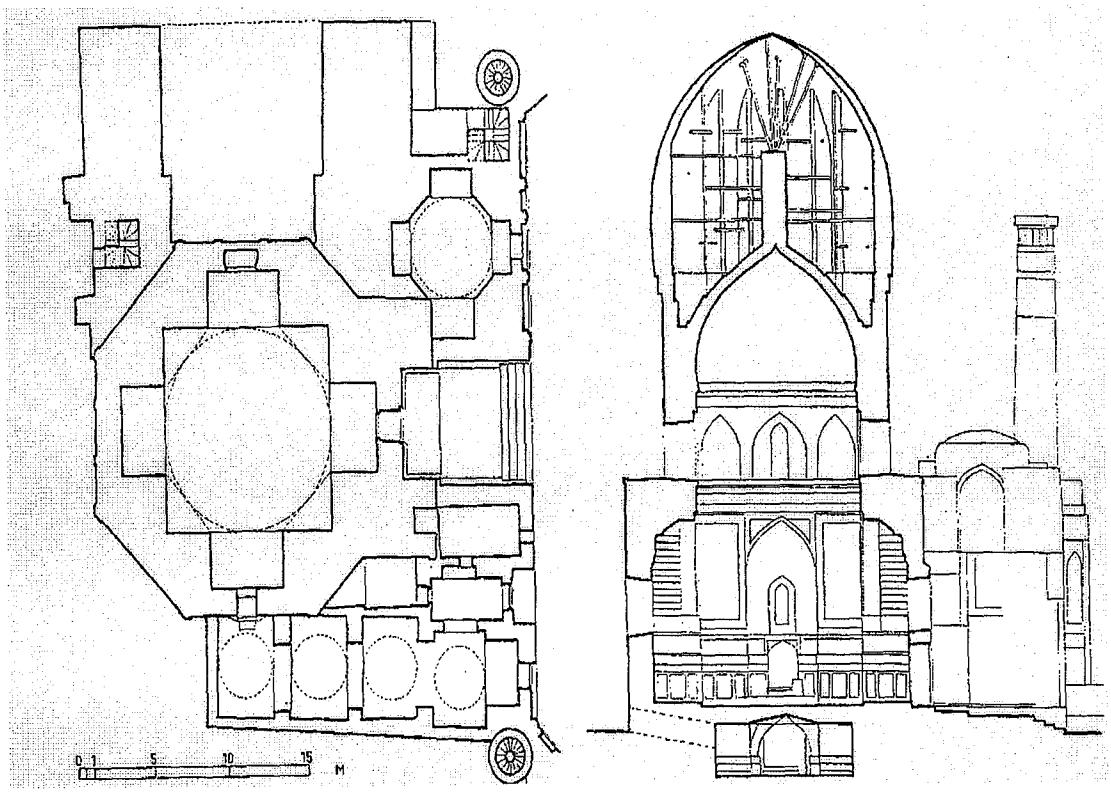

(الشكل رقم 02): مخطط ضريح غورامير بسمرقند
(Henri Stierling : Opcit…, P107)

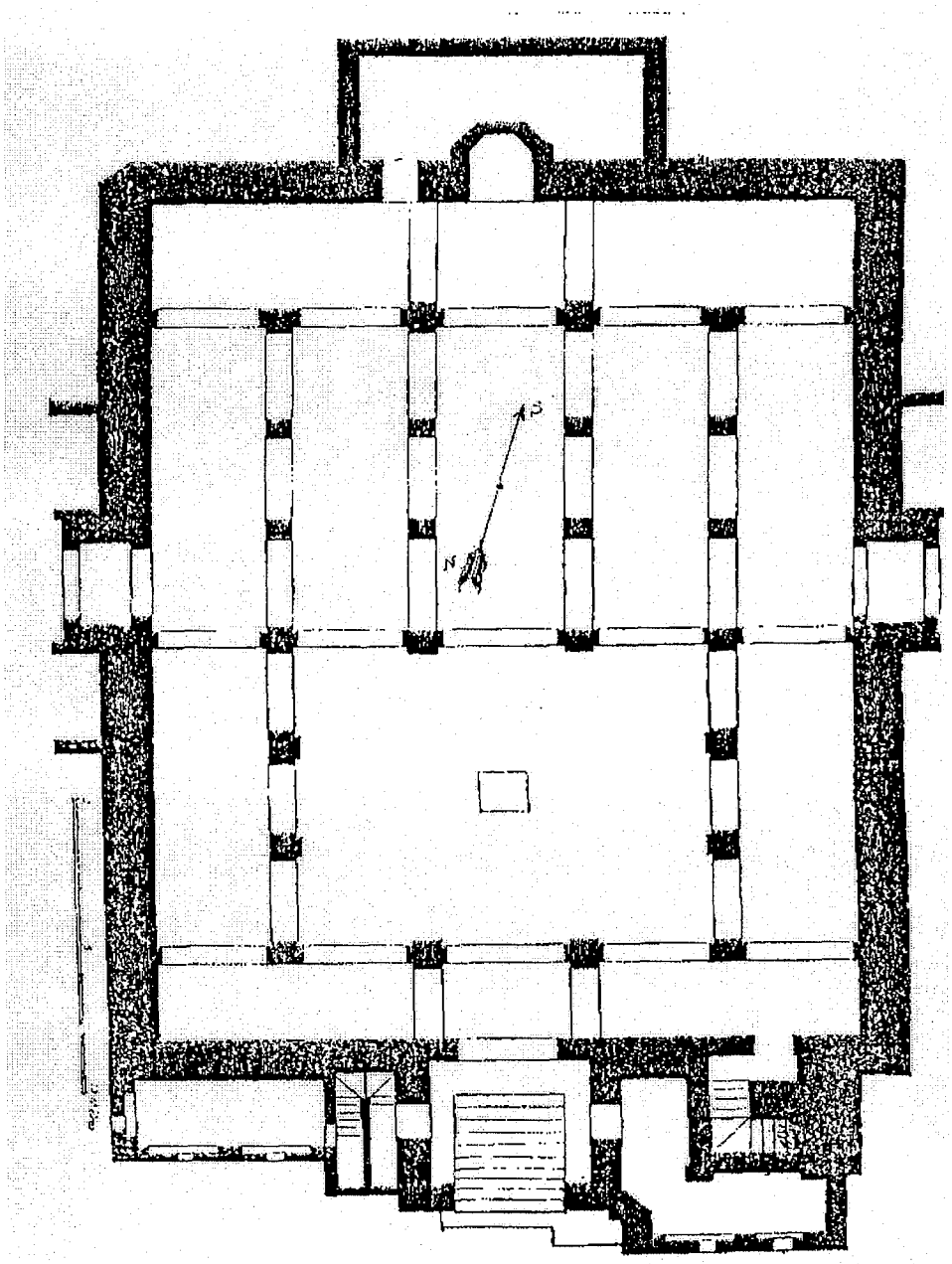

(الشكل رقم **03**): مخطط مسجد سيدي أبي مدين

(William et Georges Marçais : Les monuments…, P244)

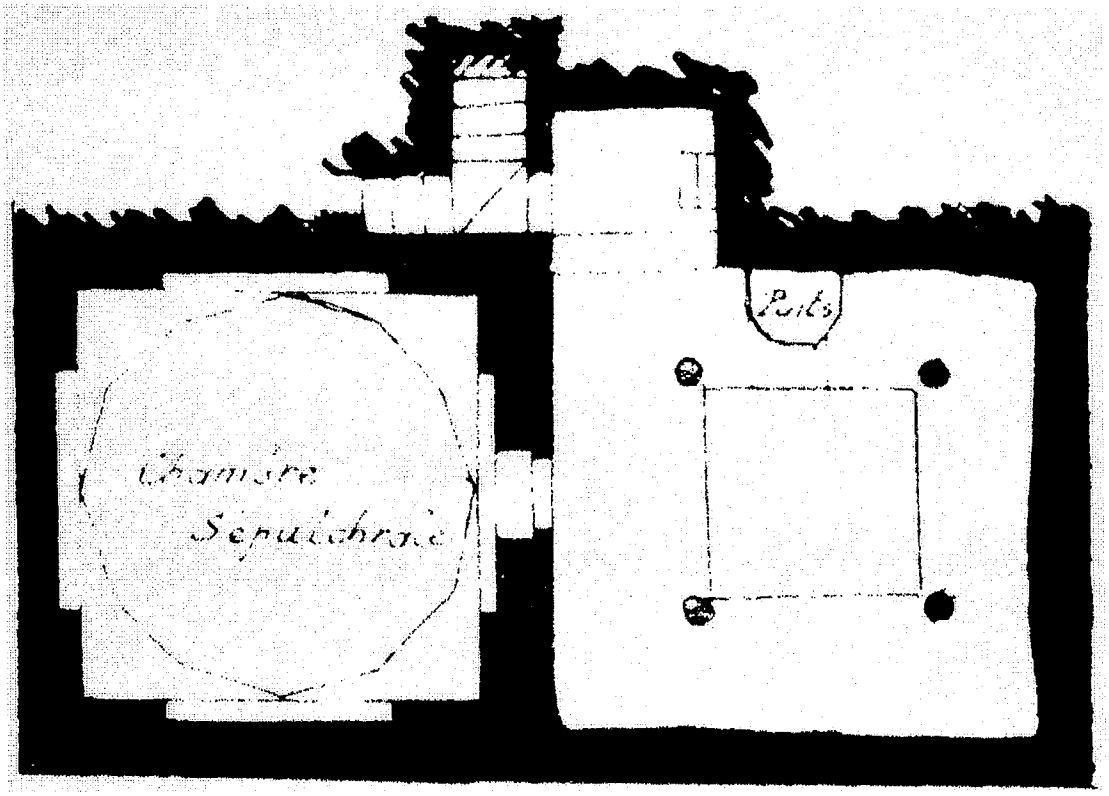

(الشكل رقم **04**): مخطط ضريح سيدي أبي مدين

(William et Georges Marçais : Les monuments…, P231)

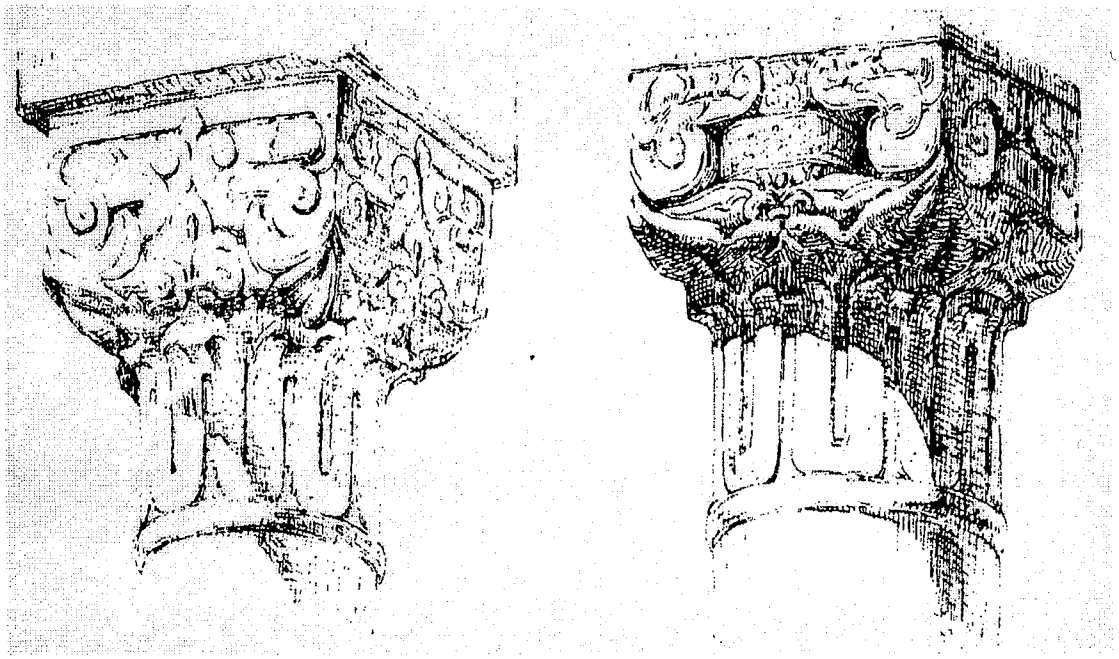

(الشكل رقم **05**): نماذج لتيجان من المرمر في صحن ضريح سيدي أبي مدين
(William et Georges Marçais : Les monuments…, P235-238)

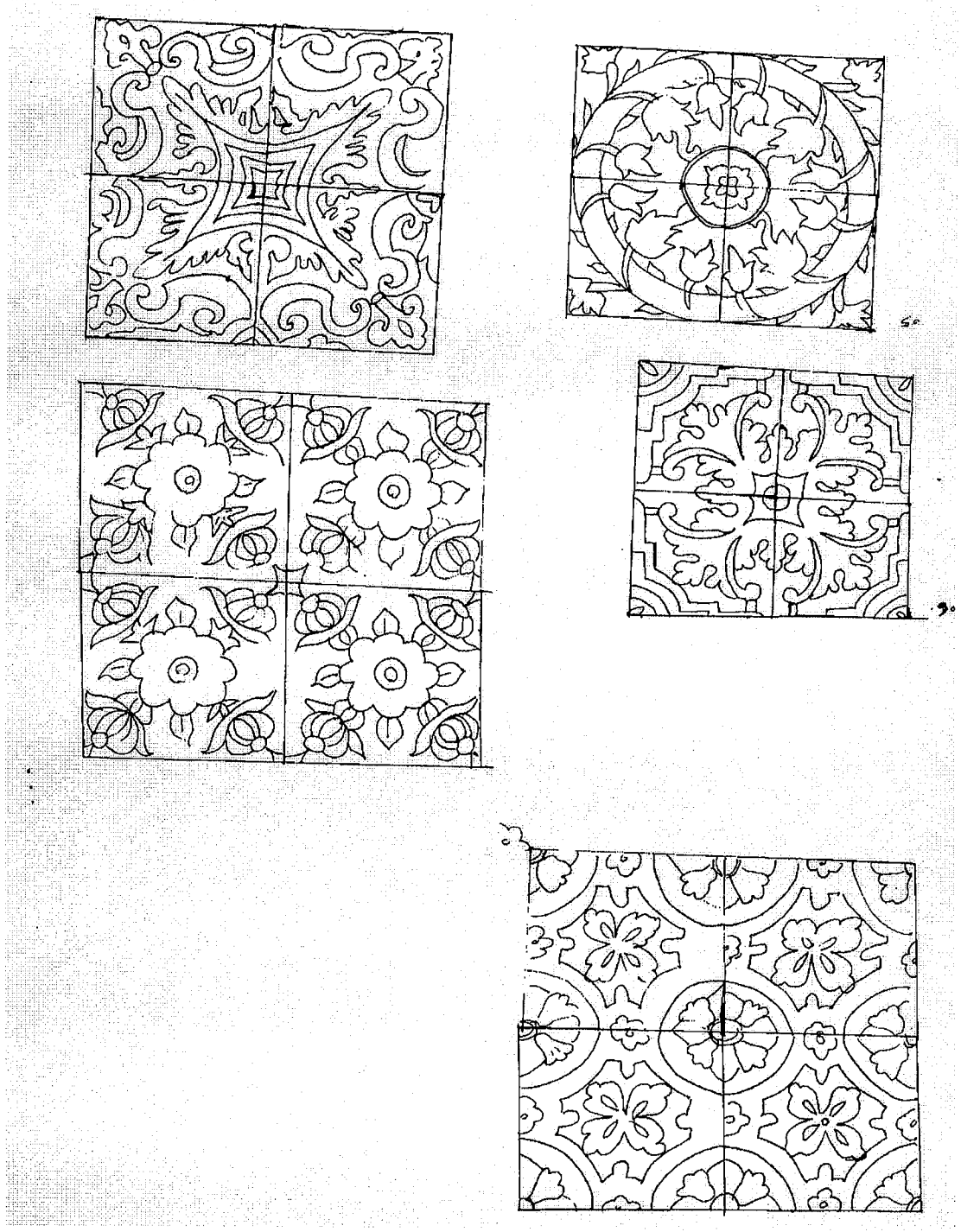

(الشكل رقم 06): نماذج من البلاطات الخزفية لصحن ضريح سيدي أبي مدين

(الشكل رقم 07): نماذج من الزخارف فوق البلاطات الخزفية بضريح سيدي أبي مدين
(William et Georges Marçais : Les monuments…, P237)

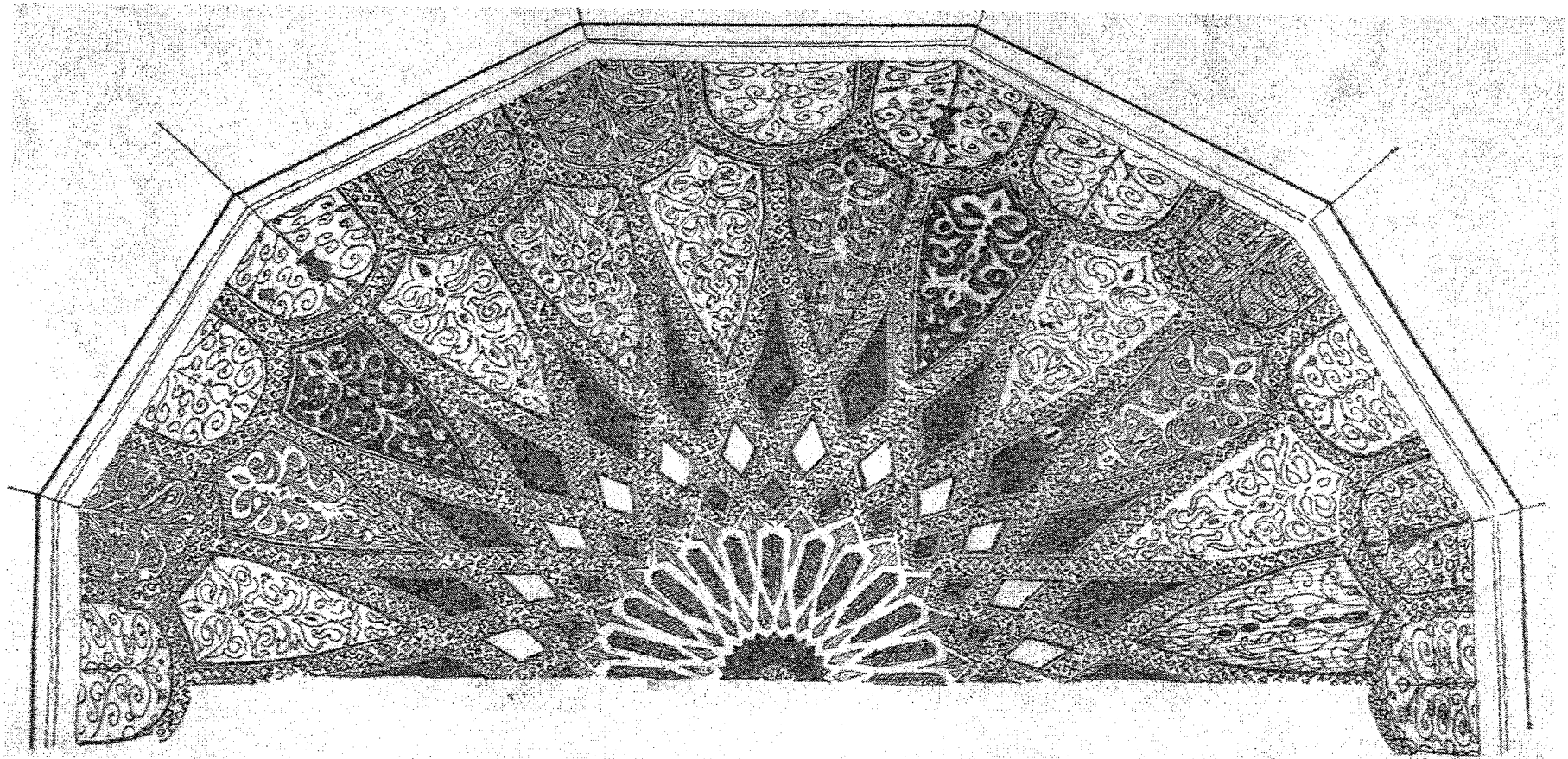

(الشكل رقم**08**): زخرفة قبة ضريح سيدي أبي مدين

(William et Georges Marçais : Les monuments…, P233)

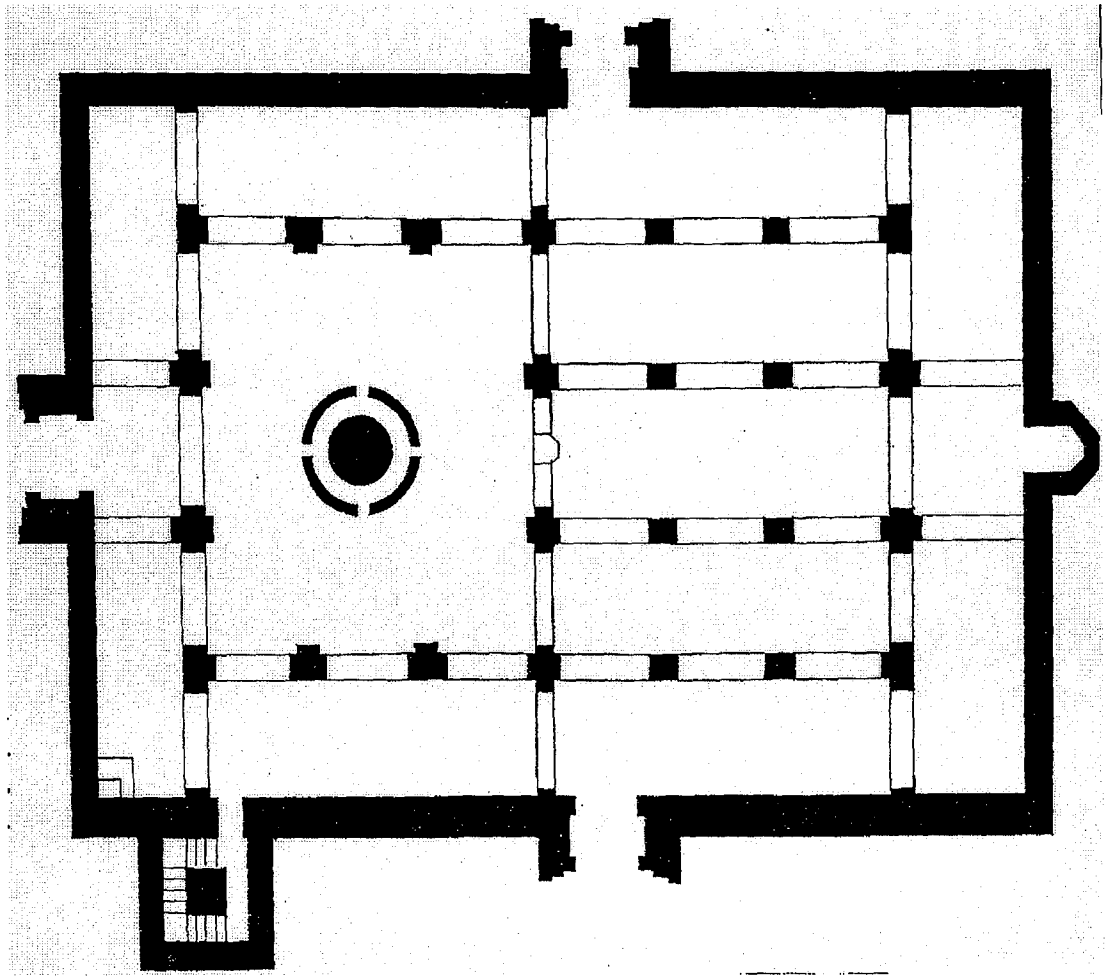

(الشكل رقم**09**): مخطط مسجد سيدي إبراهيم المصمودي
(Rachid Bourouiba : L'art religieux…, PXXI)

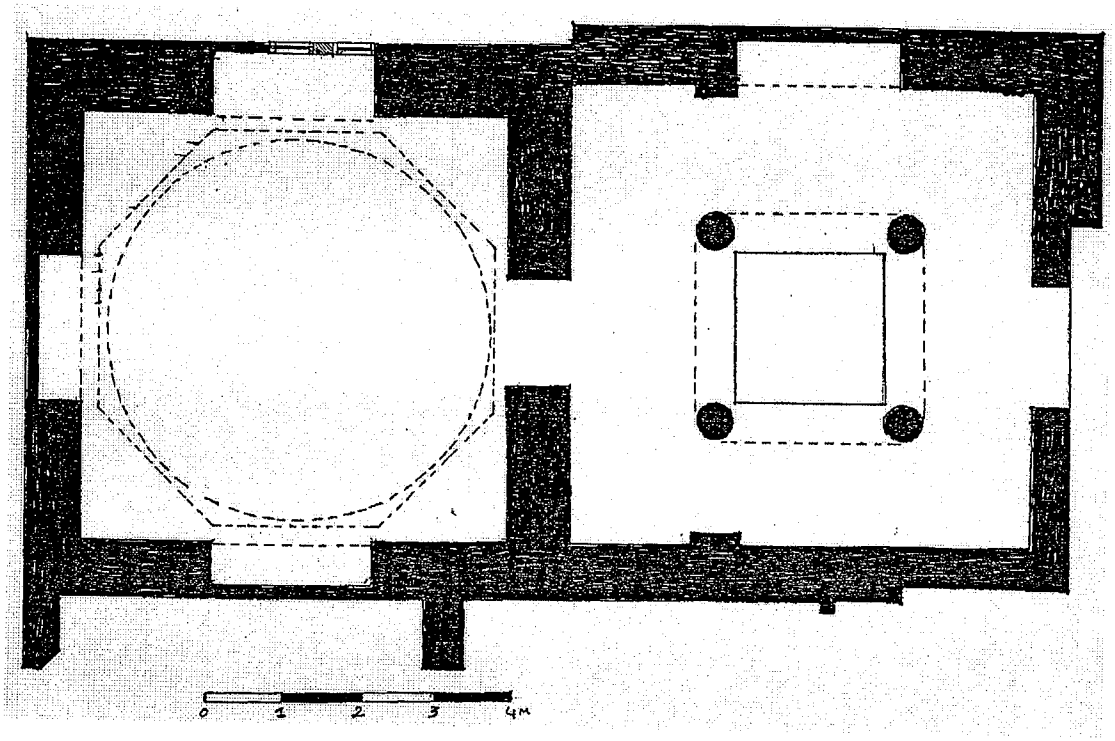

(الشكل رقم10): مخطط ضريح سيدي إبراهيم المصمودي

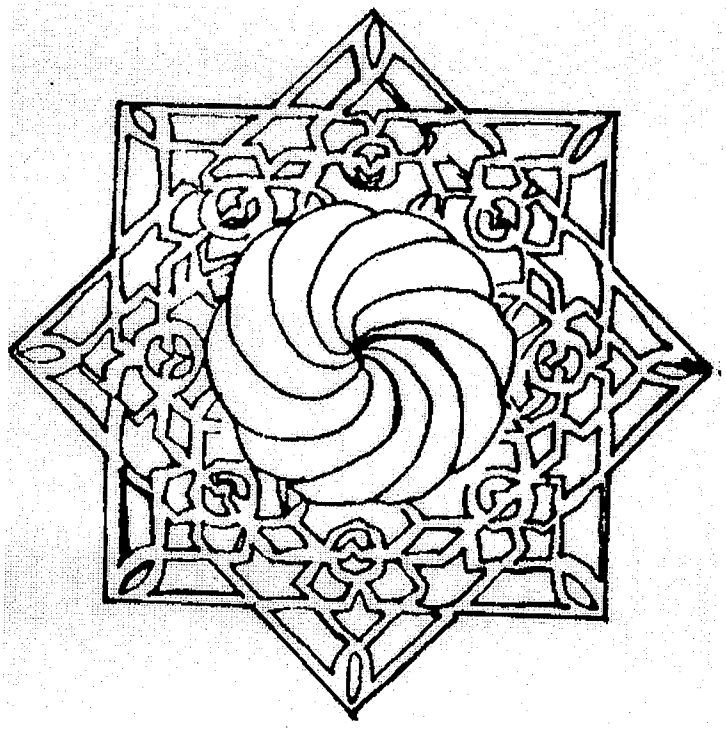

(الشكل رقم**11**): المحارة التي تعلو شوكتي الحنايا الجدارية بضريح سيدي ابراهيم المصمودي

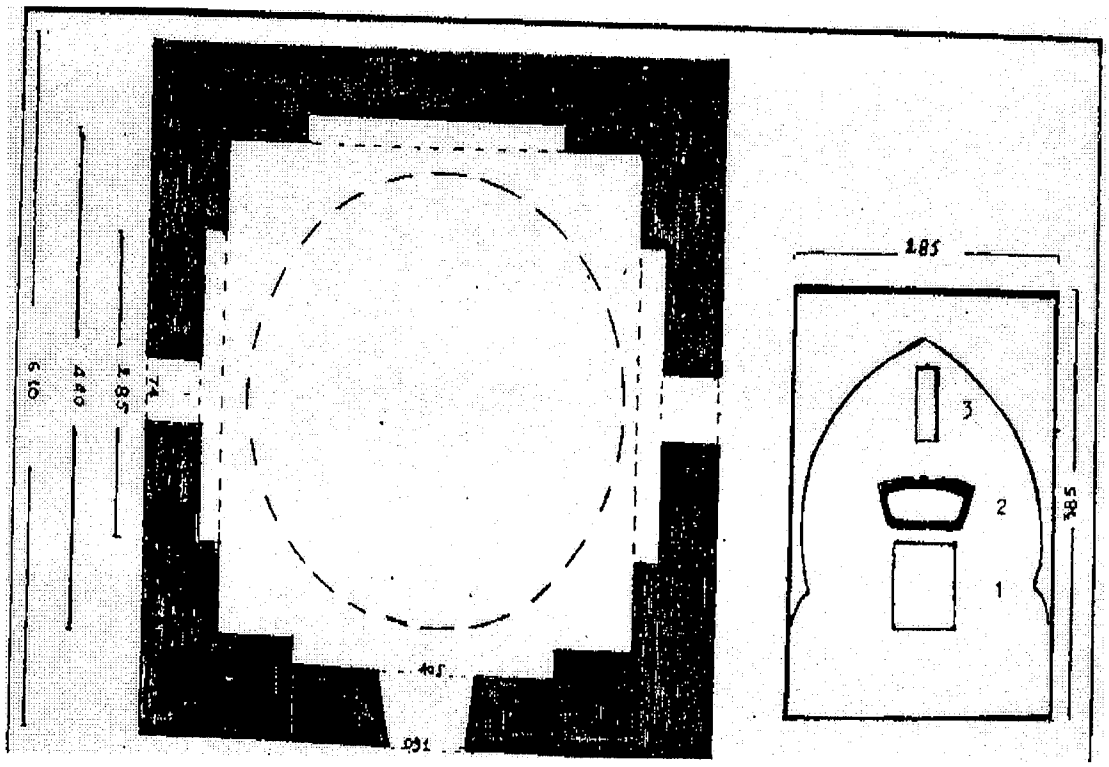

(شكل رقم 12) : مخطط أفقي لضريح السنوسي

جمال الدين بوقلي حسن: ابن يوسف ... ص26)

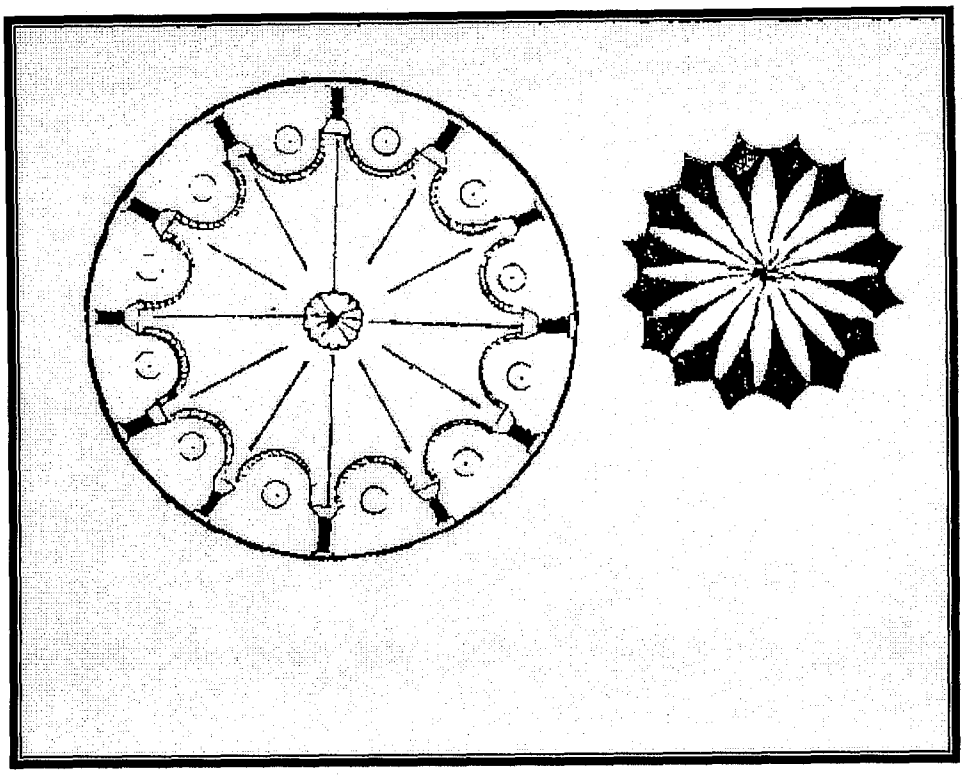

(الشكل رقم 13) : زخرفة قبة ضريح السنوسي

(جمال الدين بوقلي حسن ابن يوسف...ص28)

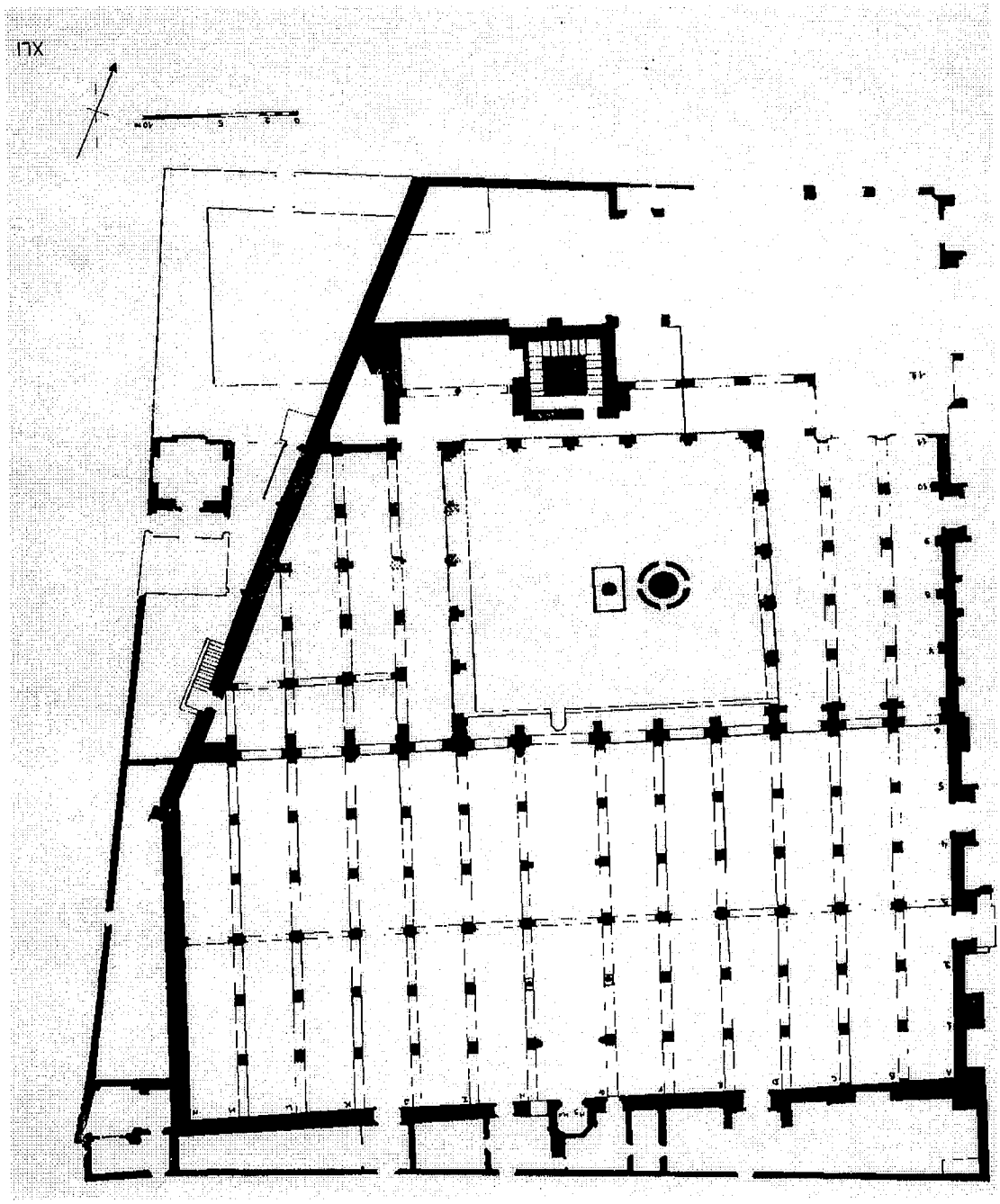

(الشكل رقم 14) : مخطط أفقي للمسجد الكبير بتلمسان

(RACHID BOUROUIBA : L'ART RELIGIEUX ...XLI)

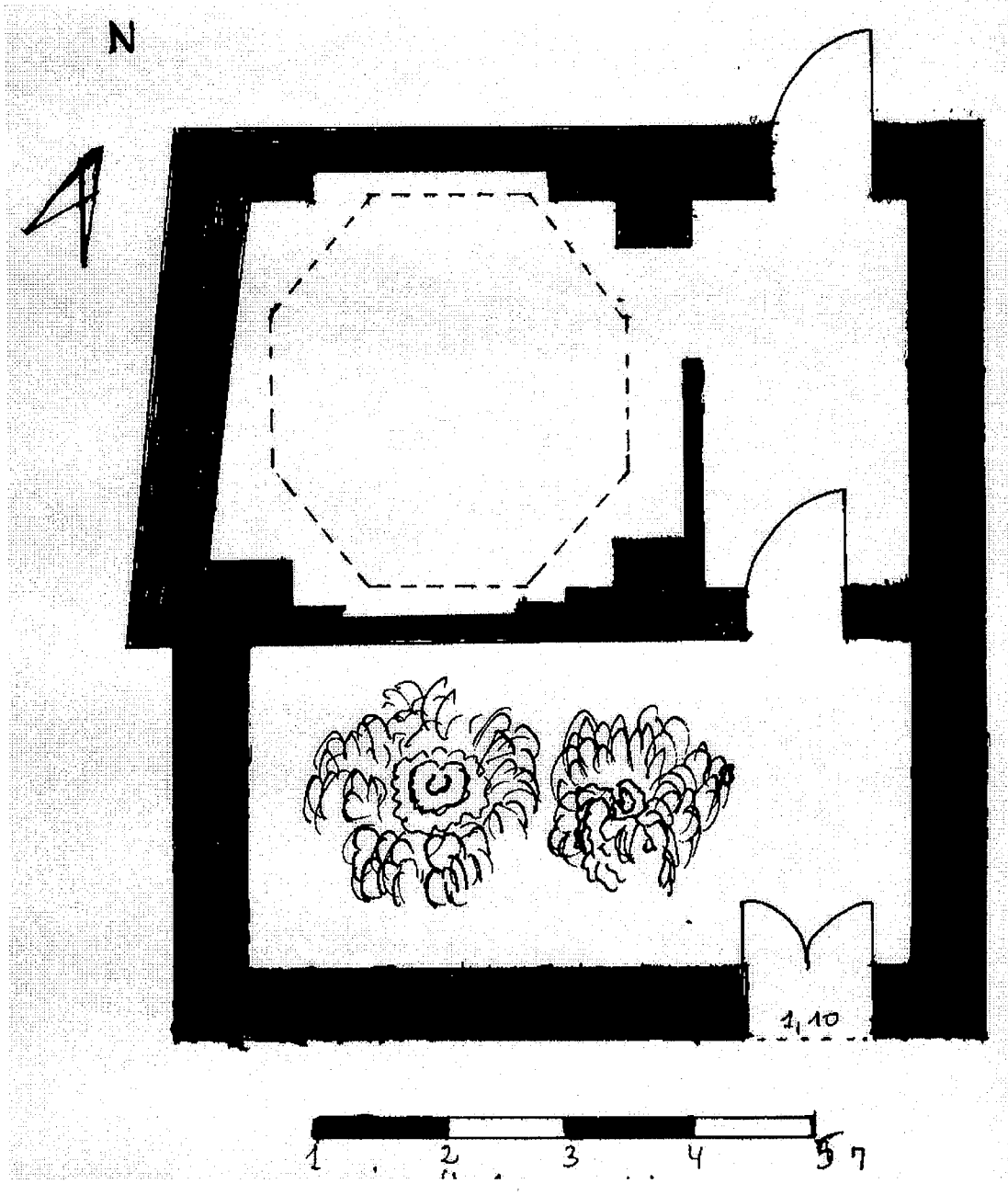

(شكل رقم 15) : مخطط أفقي لضريح ابن مرزوق الحفيد

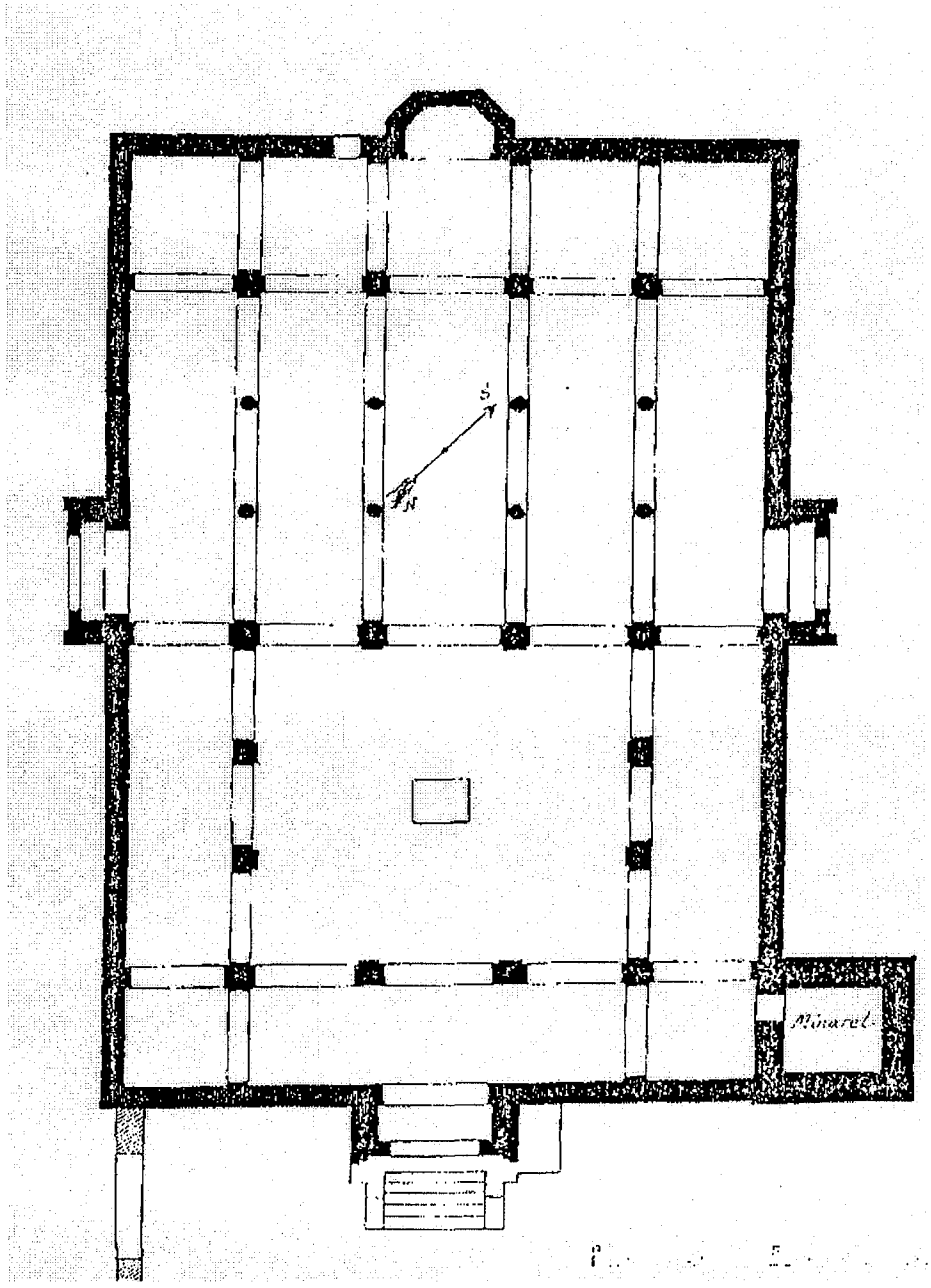

(شكل رقم **16**): مخطط مسجد سيدي الحلوي

(William et Georges Marçais : Les monuments…, P289)

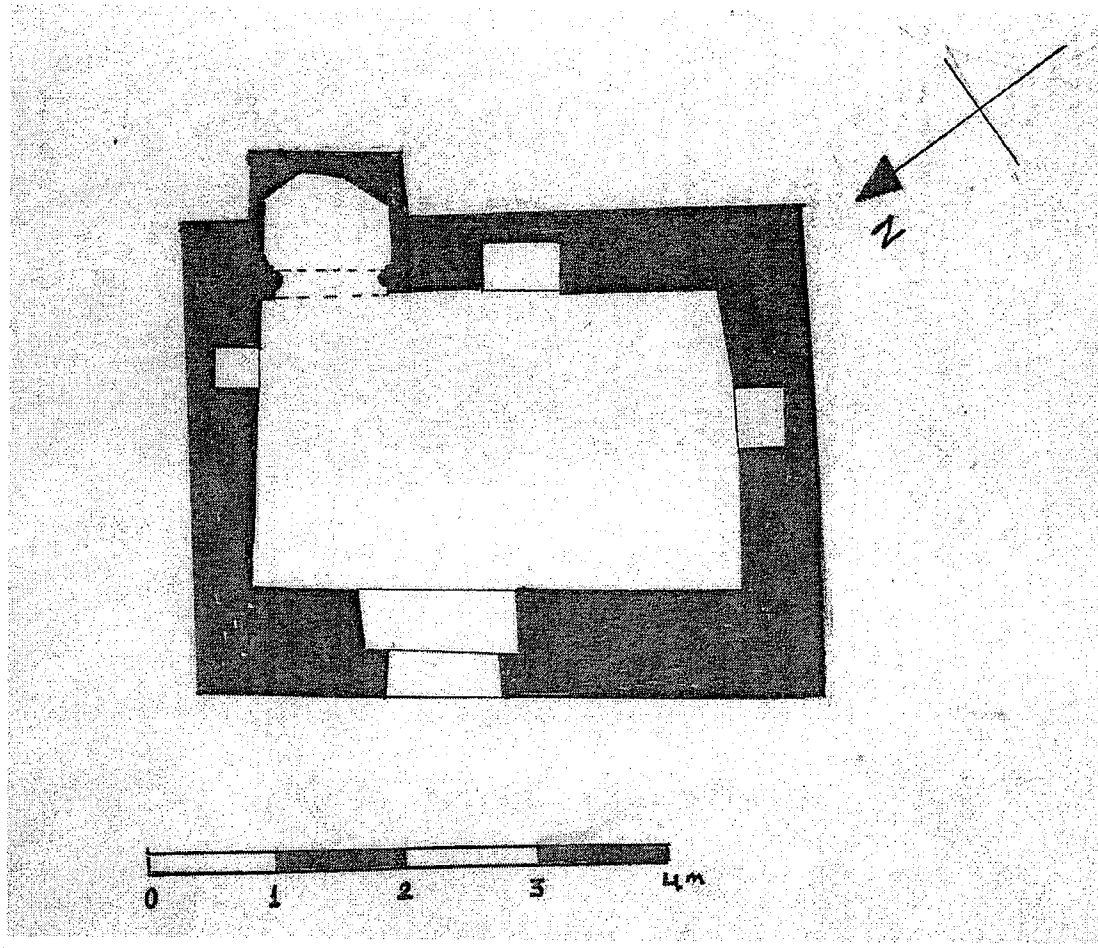

(شكل رقم 17): مخطط أفقي لضريح سيدي الحلوي

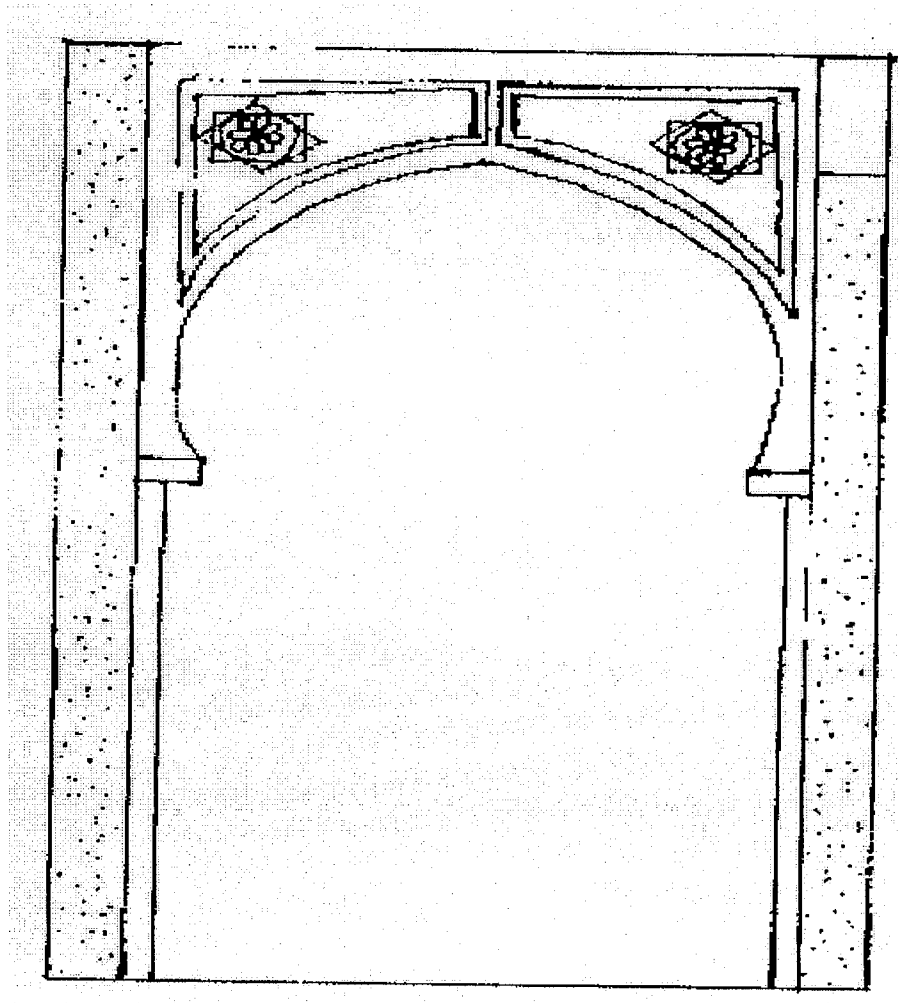

(شكل رقم 18): محراب ضريح سيدي الحلوي

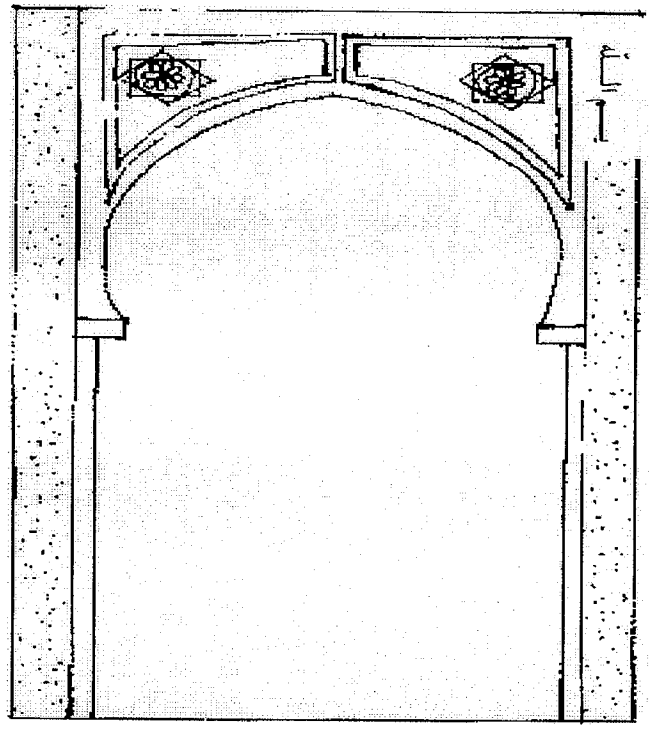

(شكل رقم 19):عينة عن الزخرفة الكتابية بمحراب ضريح سيدي الحلوي

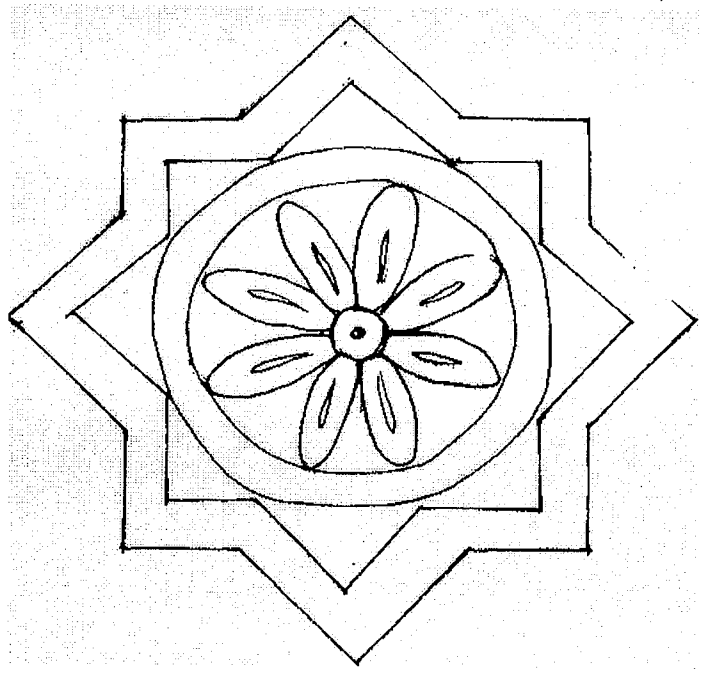

(شكل رقم 20):نجمة ذات الثمانية رؤوس مركزها زهرة ذات ثمانية باتلات بمحراب ضريح سيدي الحلوي

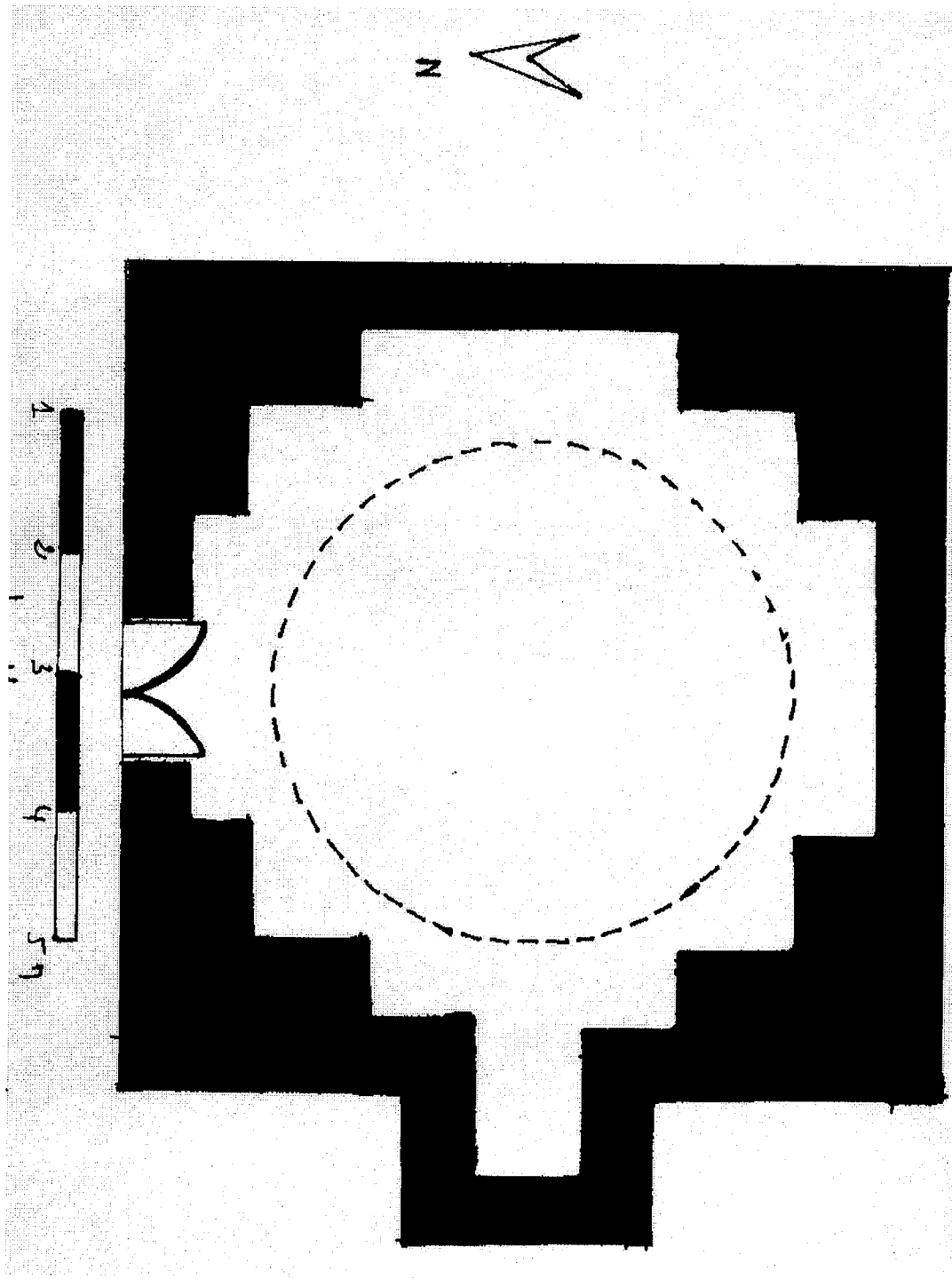

(الشكل رقم 21): مخطط أفقي لضريح سيدي الهواري

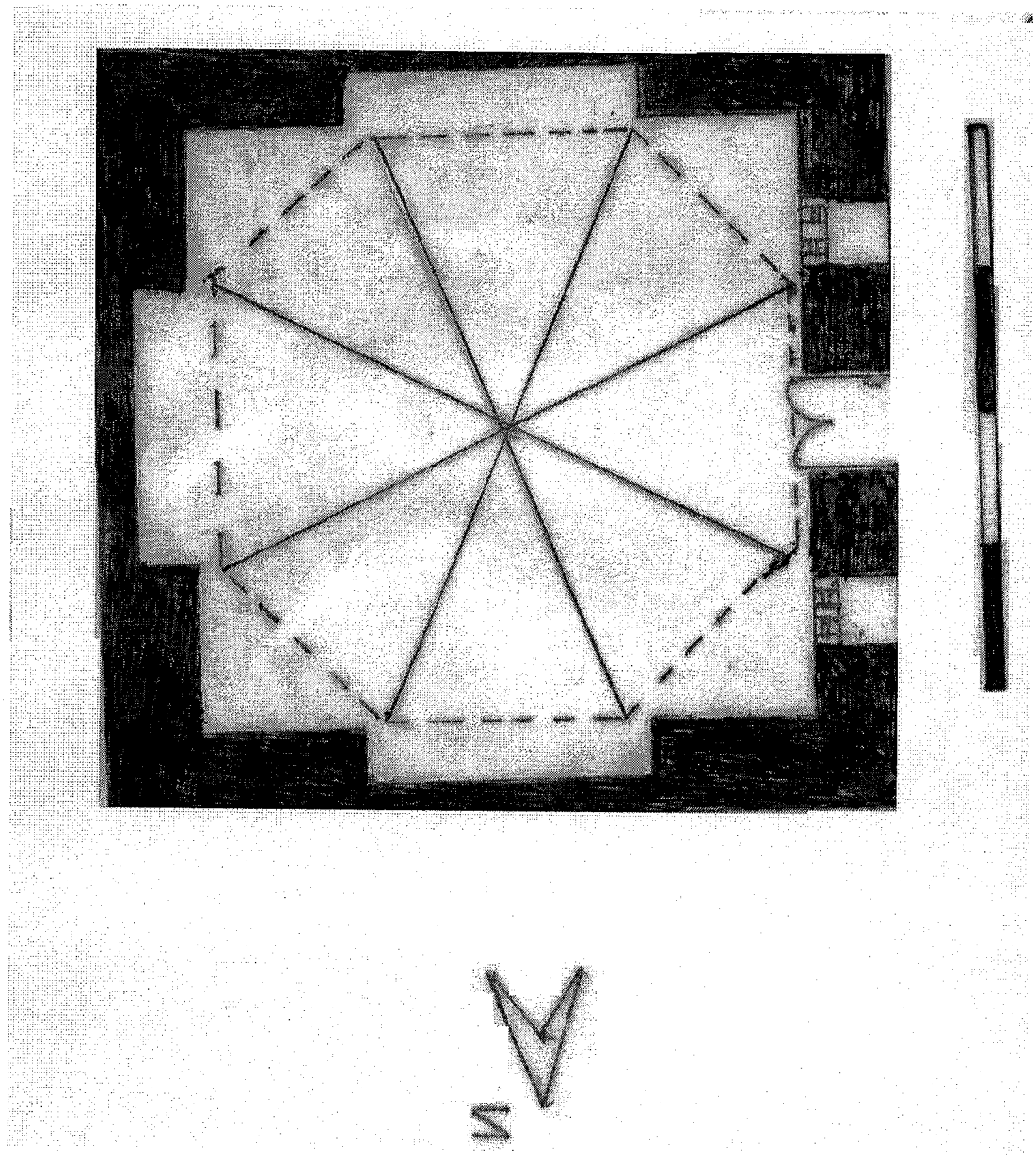

(شكل رقم 22): مخطط أفقي لضريح سيدي الأخضر بن خلوف

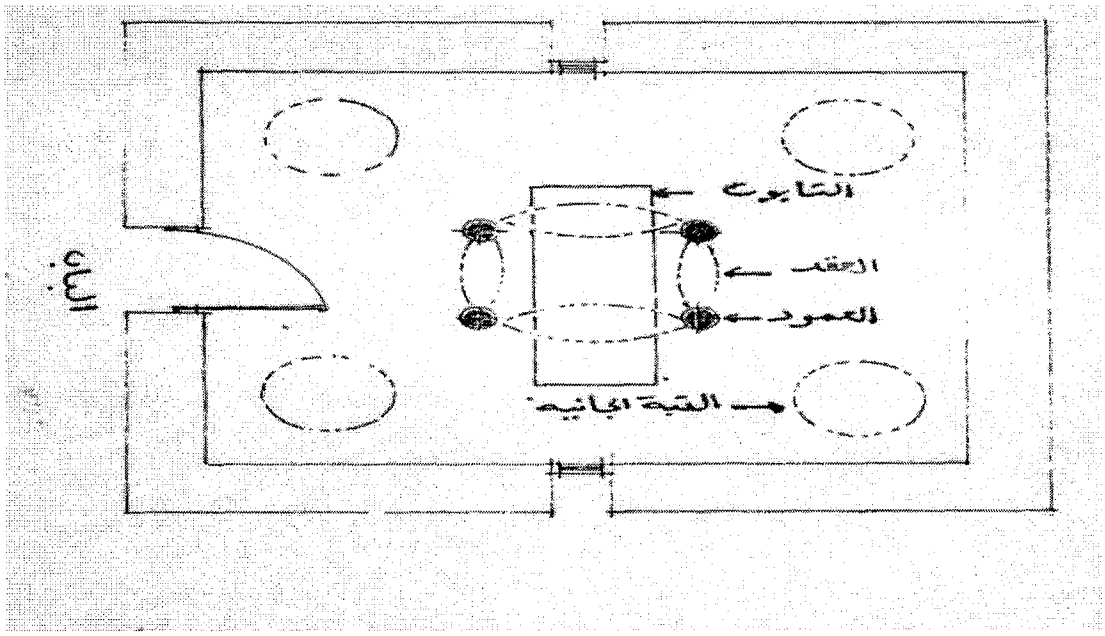

(الشكل رقم 23) : مخطط أفقي لضريح سيد الشيخ بمغرار التحتاني

(مباركي عبد المجيد: قصر مغرار التحتاني...ص 117)

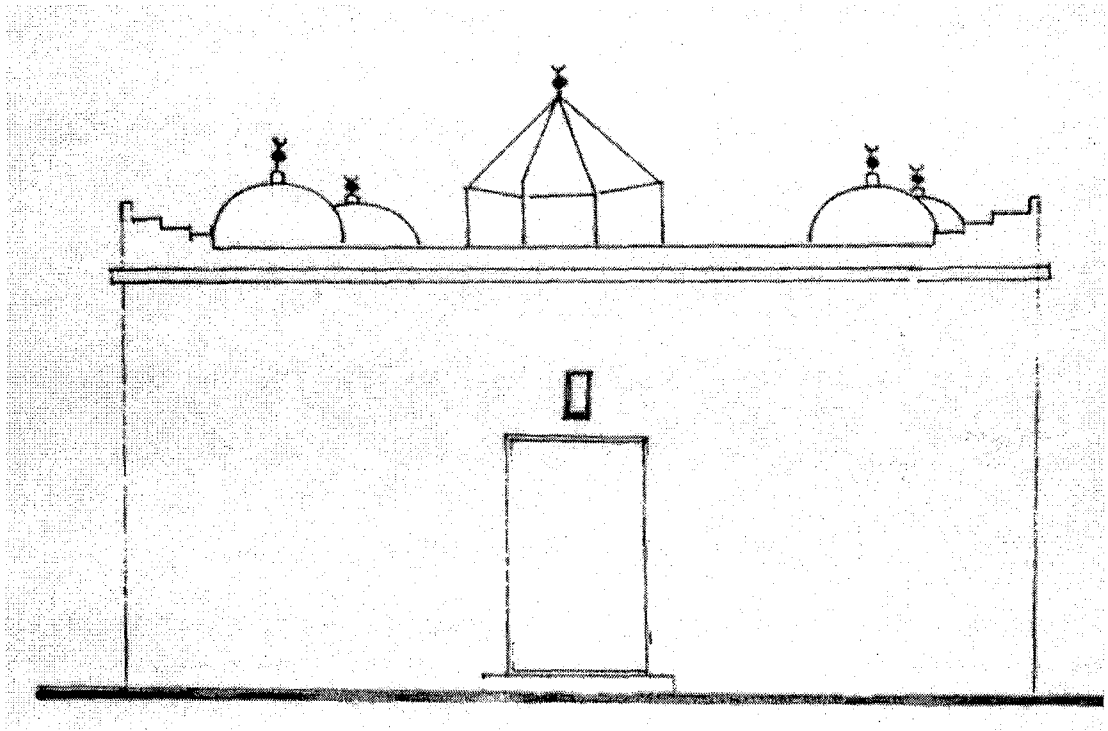

(الشكل رقم 24) : مخطط لواجهة ضريح سيد الشيخ بمغرارالتحتاني

(مباركي عبد المجيد: المرجع نفسه...ص 117)

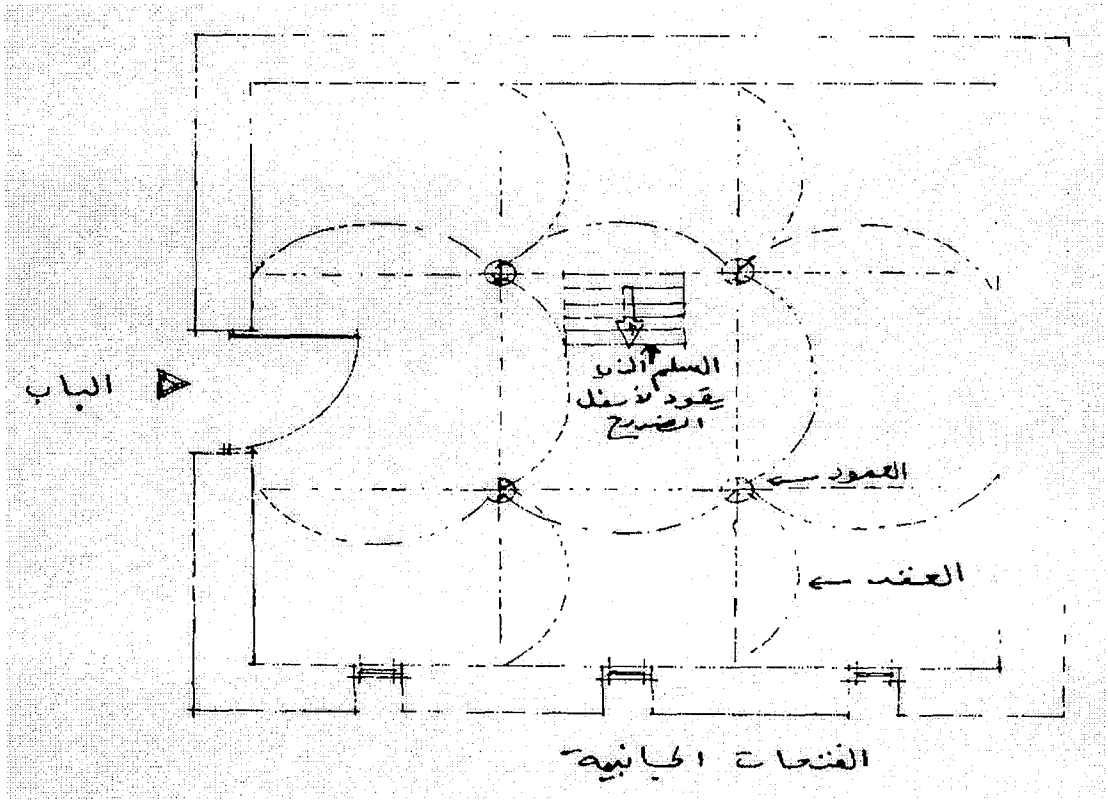

(شكل رقم 25) : مخطط أفقي لضريح سيد عبد القادر محمد بمغرار التحتاني

(أنظر مباركي عبد المجيد : قصر مغرار ....ص 118)

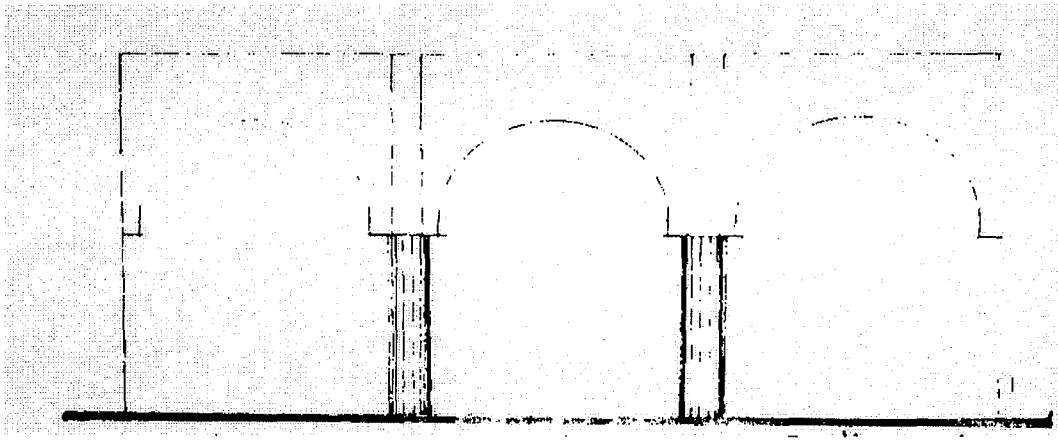

(شكل رقم 26) : مقطع لبائكة داخل ضريح سيد عبد القادر محمد بمغرار التحتاني

(أنظر مباركي عبد المجيد : المرجع نفسه ....ص 118)

ثالثا: اللوحات

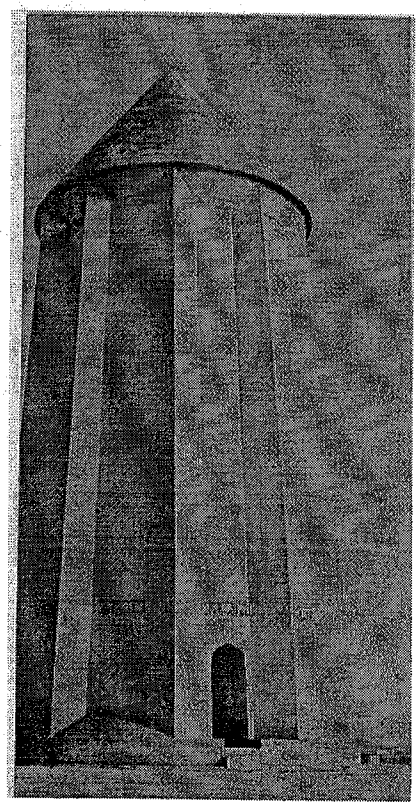

(اللوحة رقم 1): ضريح جنبيدي قابوس في جرجان

(Henri Stierling : Architecture de l'Islam..., P103)

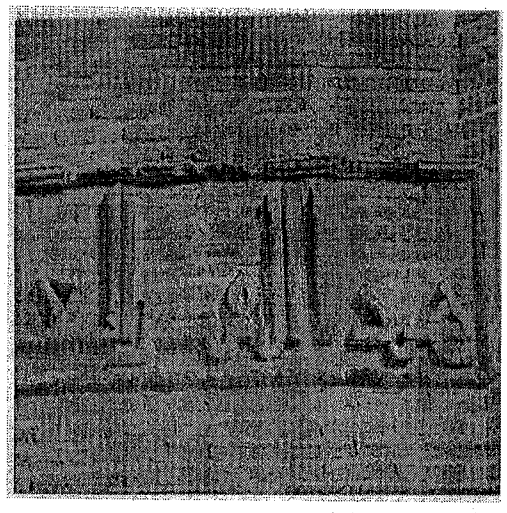

(اللوحة رقم 2): شريط كتابي على ضريح جنبيدي قابوس في جرجان

(Henri Stierling : Ibid ...,P103)

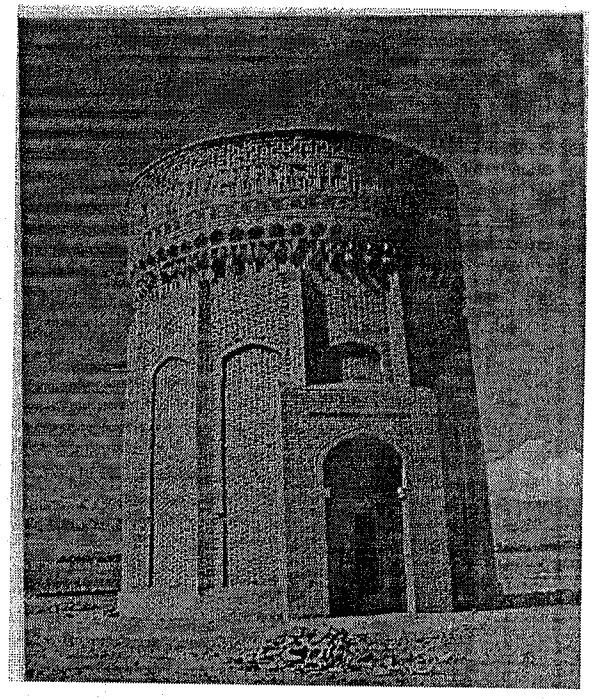

(اللوحة رقم 3): ضريح علمدار بدمغان

(Henri Stierling : Ibid ...,P103)

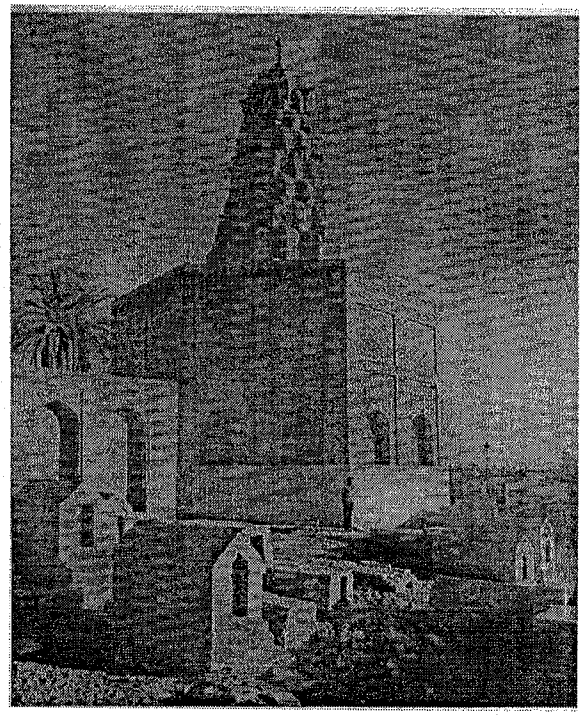

(اللوحة رقم 4): ضريح زبيدة ببغداد
(Henri Stierling : Opcit ...,P109)

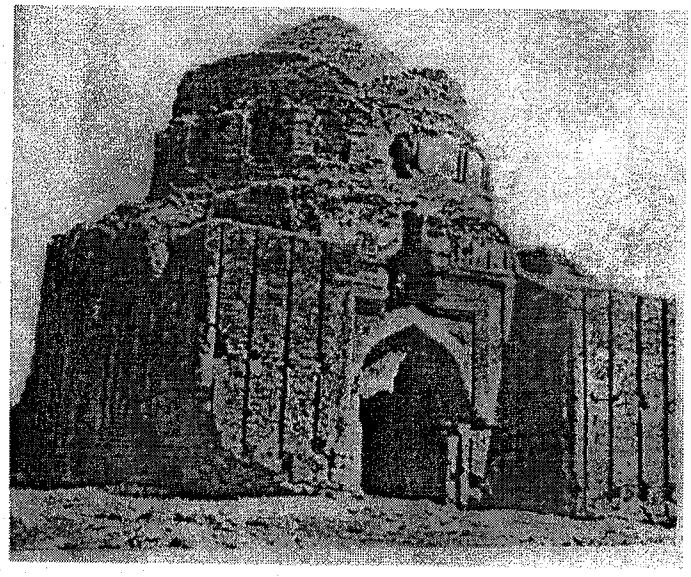

(اللوحة رقم 5): ضريح الغزالي بطوس
أرنست كونل : (الفن الإسلامي، ص 76).

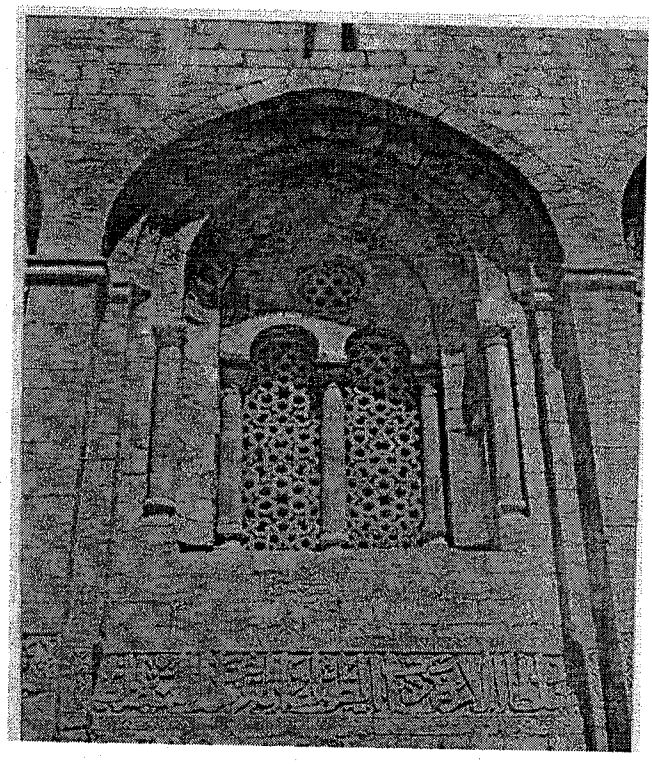

(اللوحة رقم 6): واجهة ضريح السلطان قلاوون بوسط القاهرة

(Henri Stierling : Opcit ..., P162)

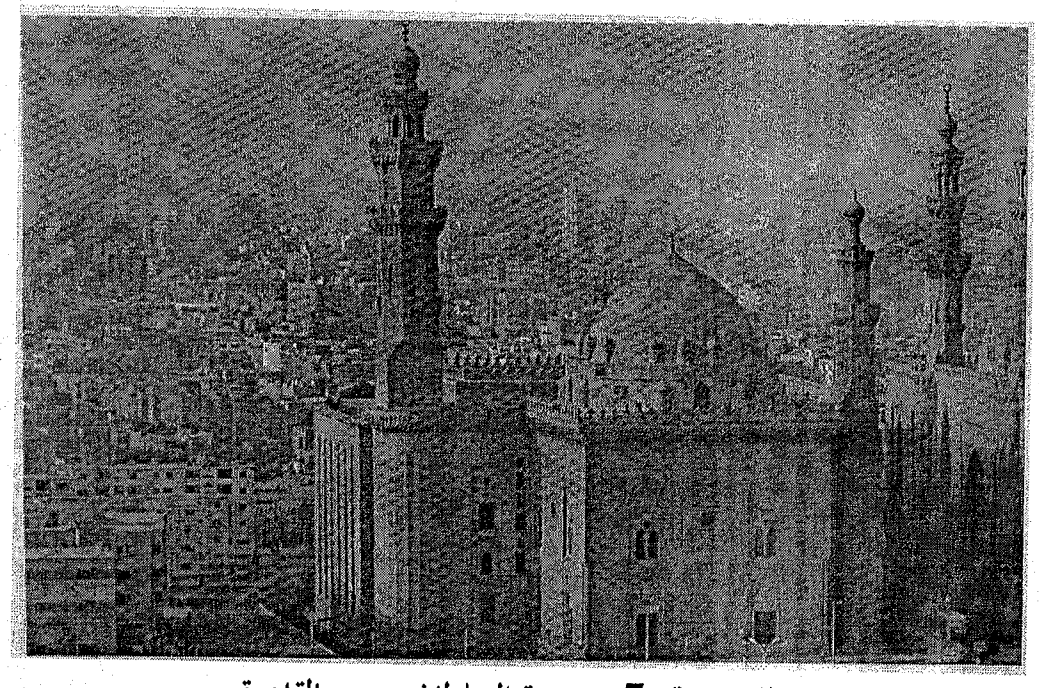

(اللوحة رقم 7):مدرسة السلطان حسن بالقاهرة

(Henri Stierling : Ibid..., P172)

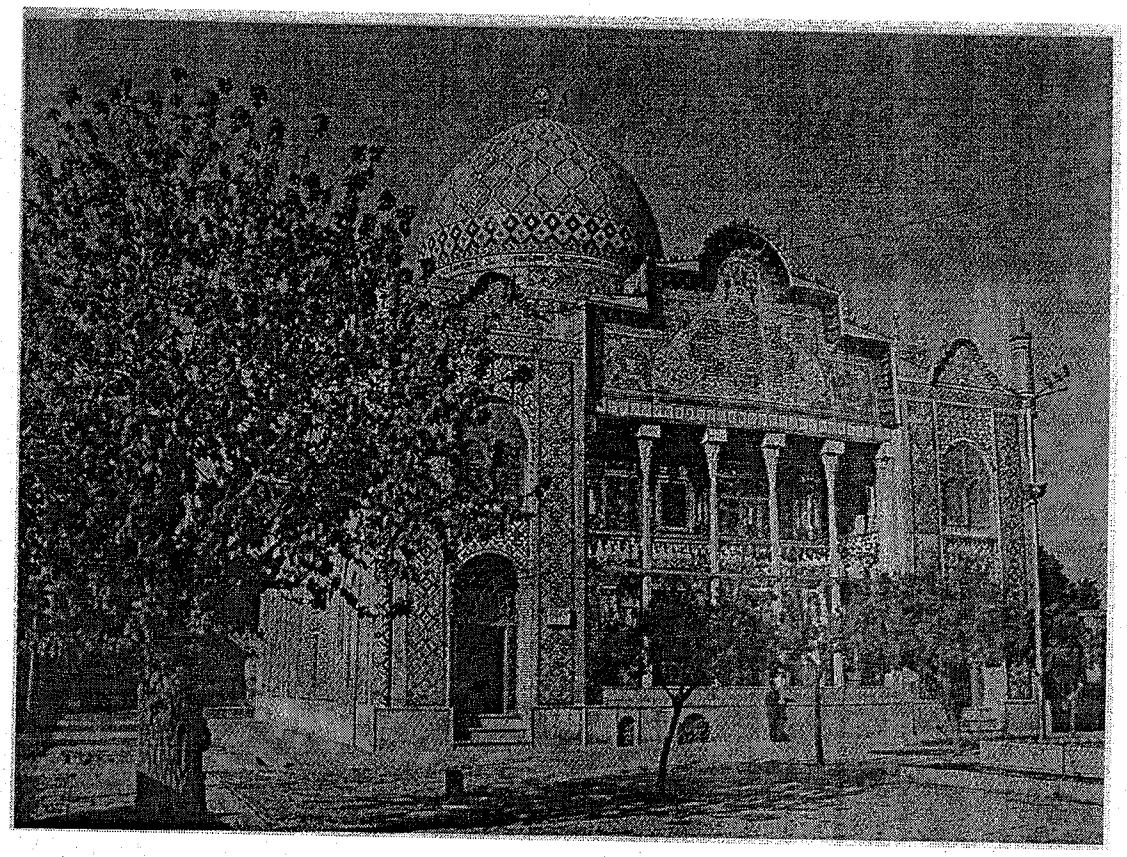

(اللوحة رقم 8): ضريح الشاه زاده بخسفان
(Henri Stierling : Opcit ..., P117)

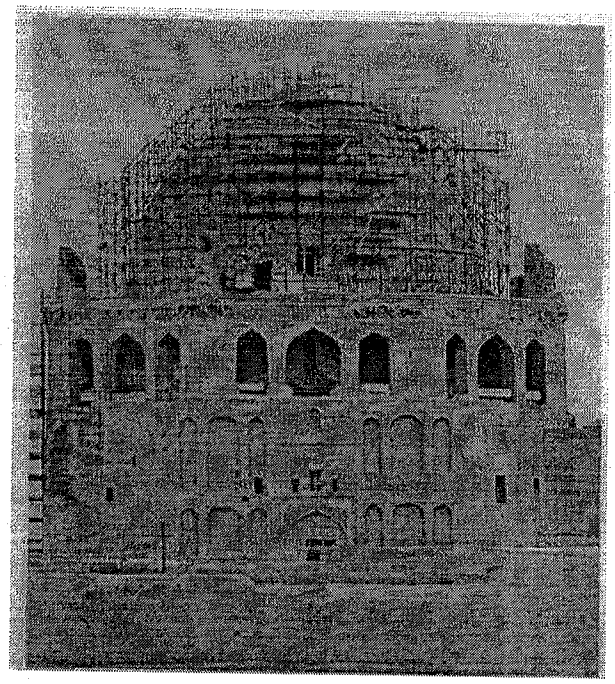

(اللوحة رقم **9**): ضريح أولجايتو خوده بنده بالسلطانية

(Henri Stierling : Opcit ..., P113)

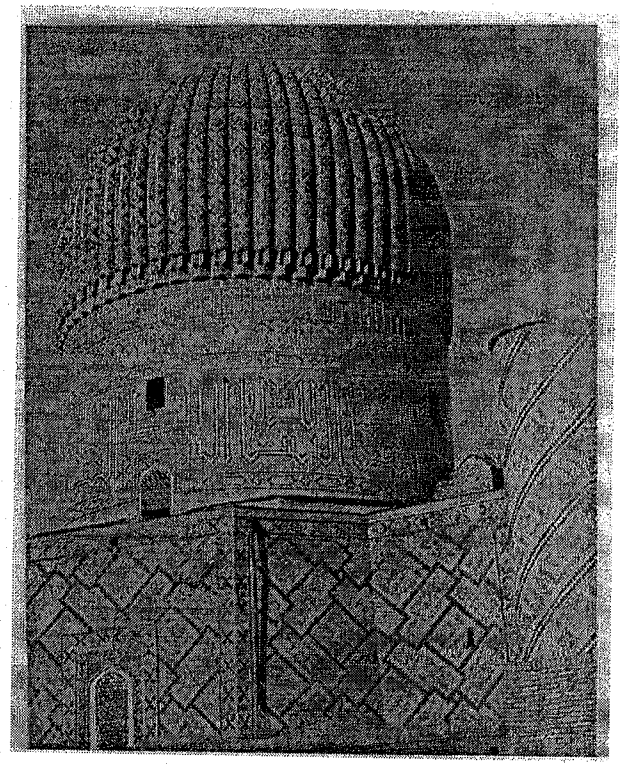

(اللوحة رقم **10**): ضريح تيمور بسمرقند

(Henri Stierling : Ibid..., P113)

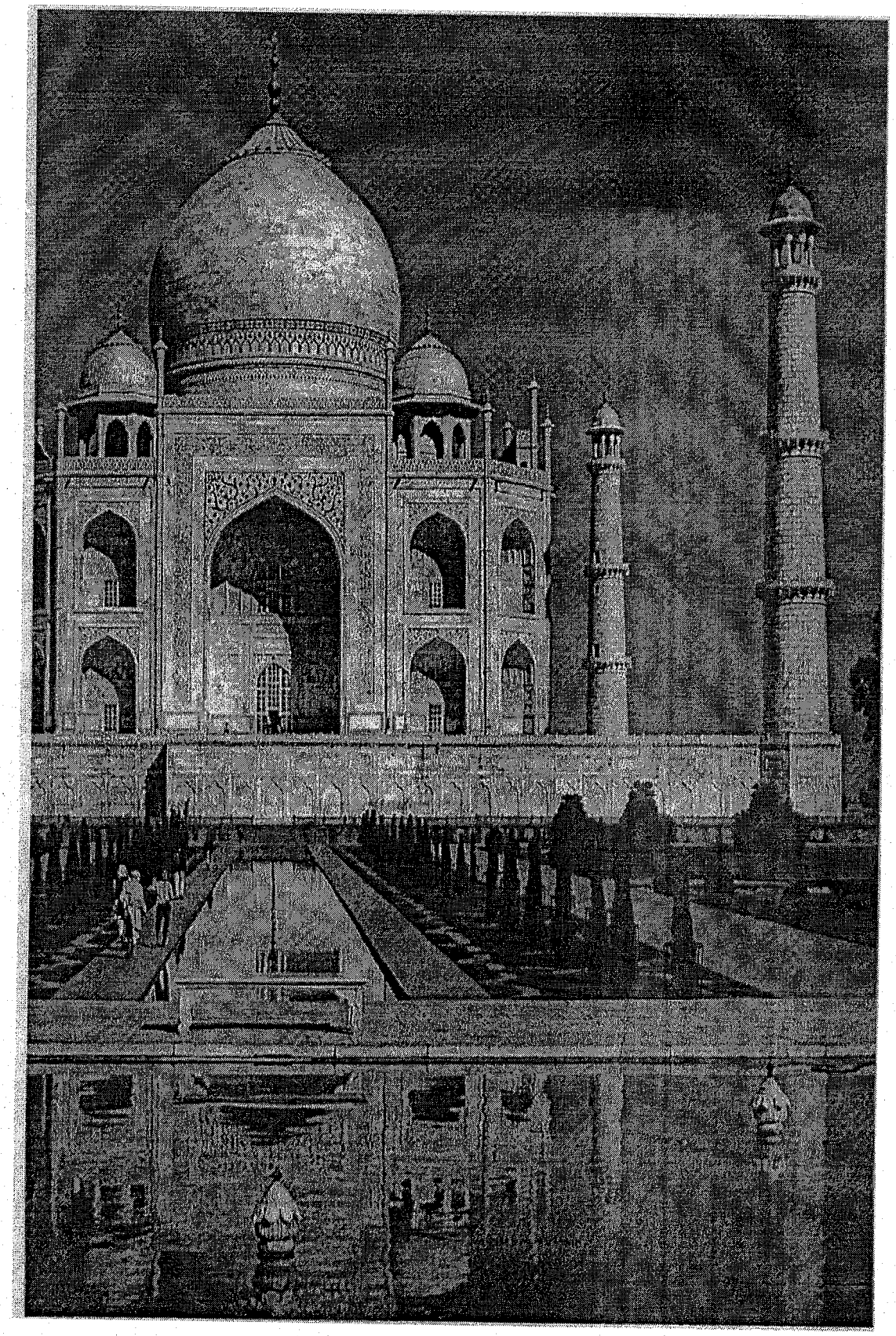

(اللوحة رقم **11**): ضريح تاج محل

(Henri Stierling : Opcit …, P209)

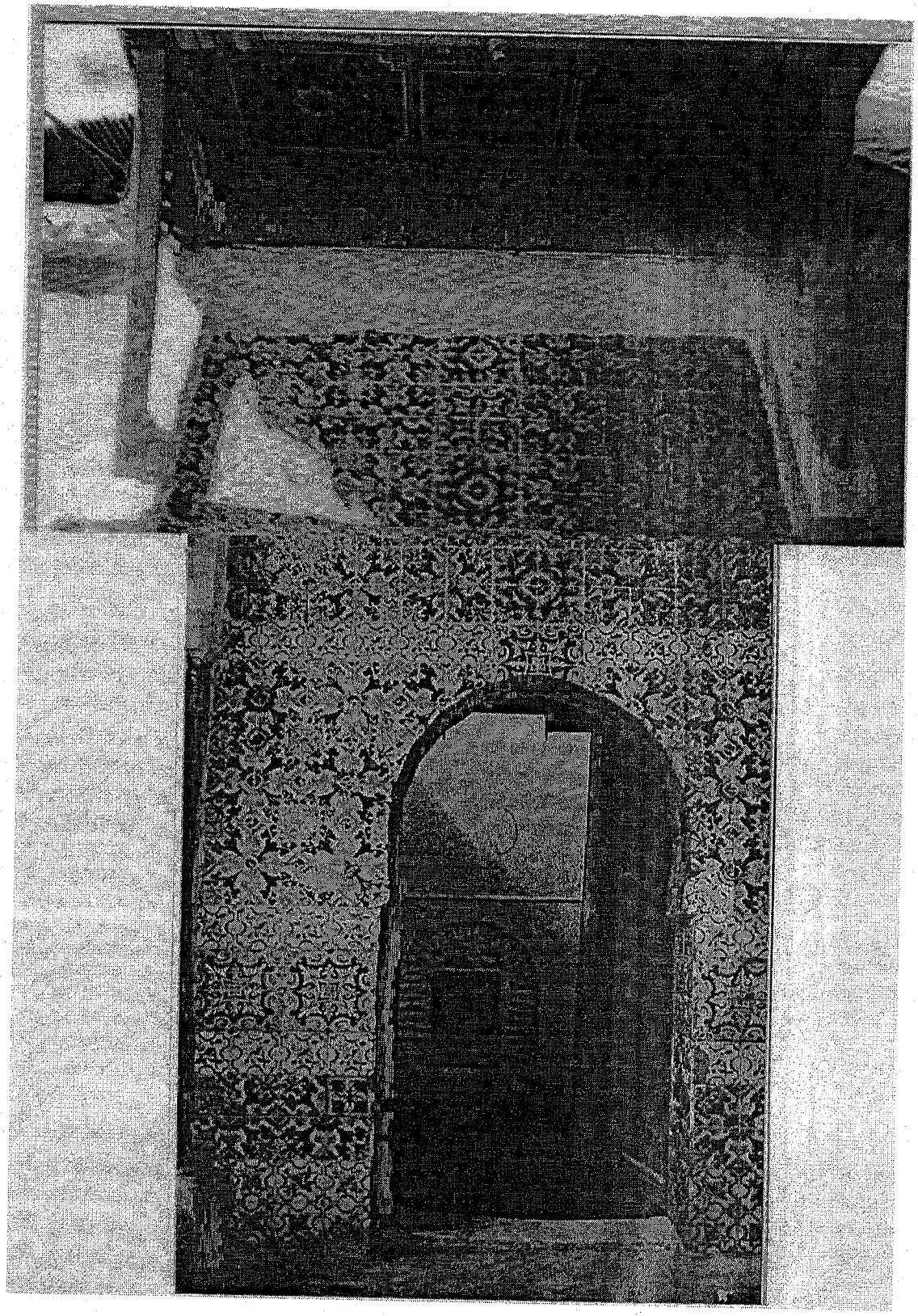

(اللوحة رقم 12): مدخل ضريح سيدي أبي مدين

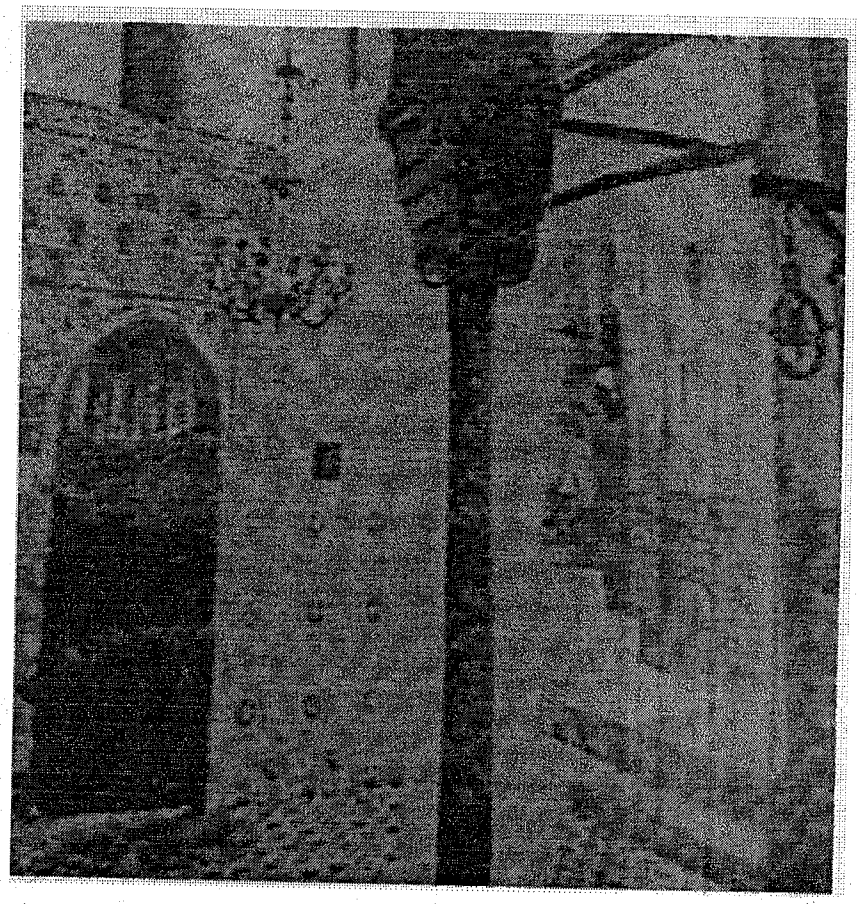

(اللوحة رقم 13): منظر لصحن ومدخل ضريح سيدي أبي مدين في الماضي

(اللوحة رقم 14): ضريح سيدي أبي مدين بعد تعرضه للحريق سنة 1994

(اللوحة رقم 15): باب قاعة الدفن لضريح سيدي إبراهيم المصمودي

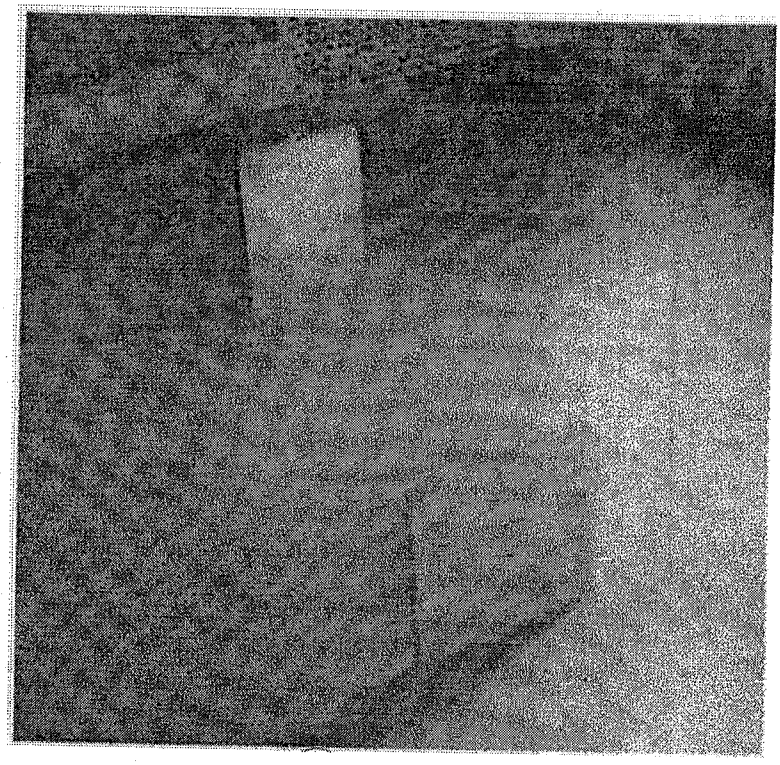

(اللوحة رقم 16): ضريح سيدي إبراهيم المصمودي

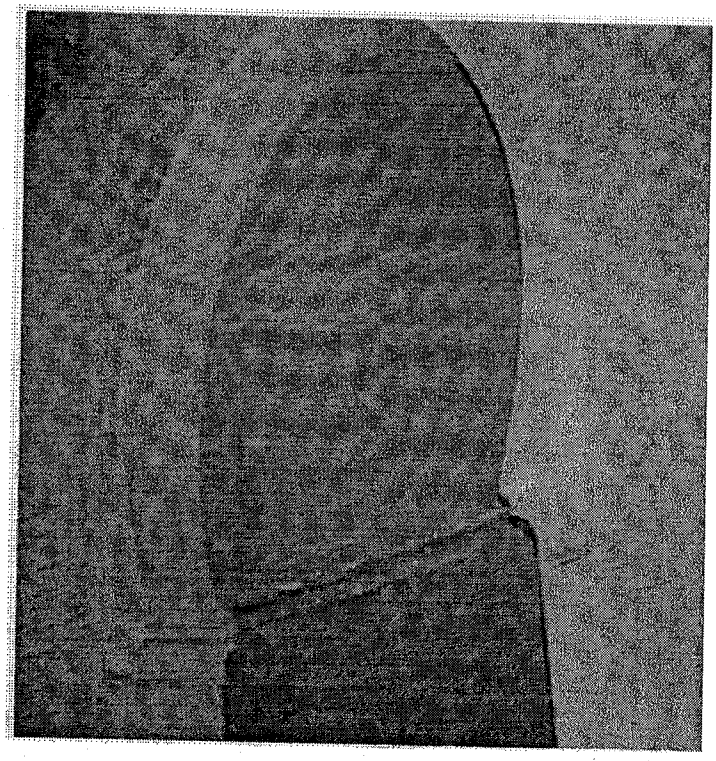

(اللوحة رقم 17): حنية جدارية بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

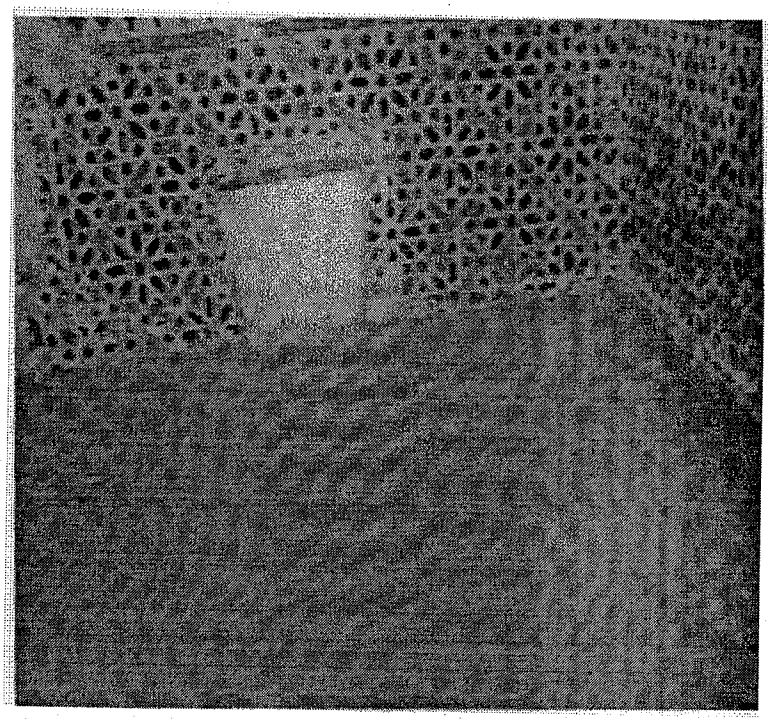

(اللوحة رقم 18): عينة من الزليج بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

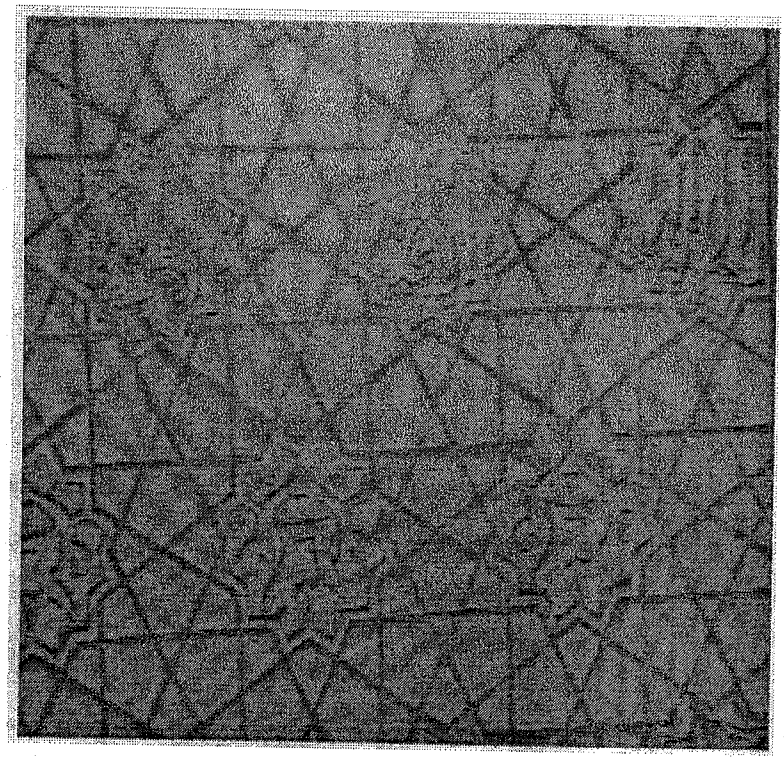

(اللوحة رقم 19): منظر للزخرفة الجصية الجدارية المتنوعة بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

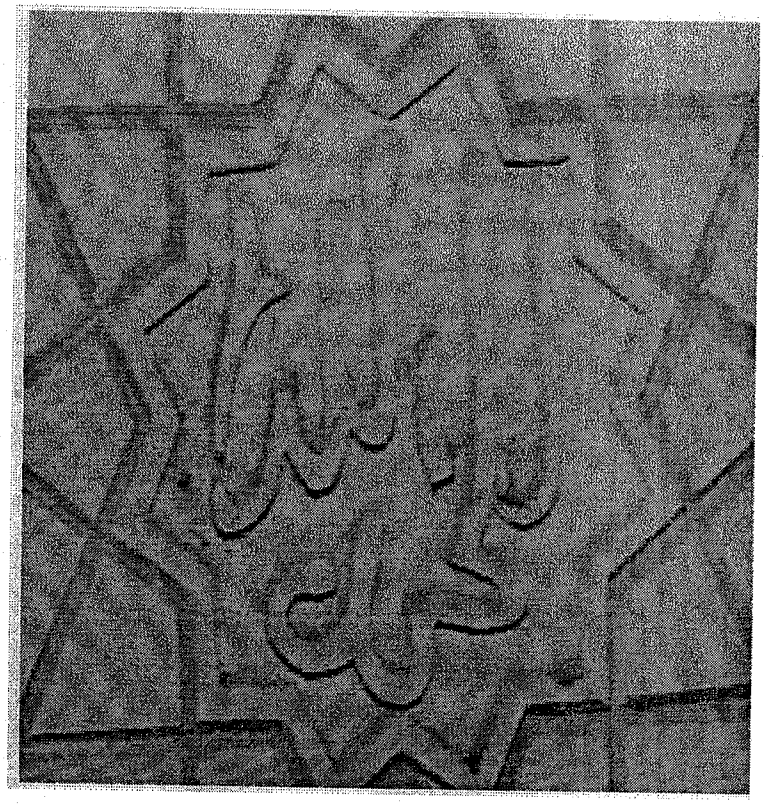

(اللوحة رقم 20): نموذج من ا لزخرفة الكتابية على الجص لصيغة " الحمد لله " بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

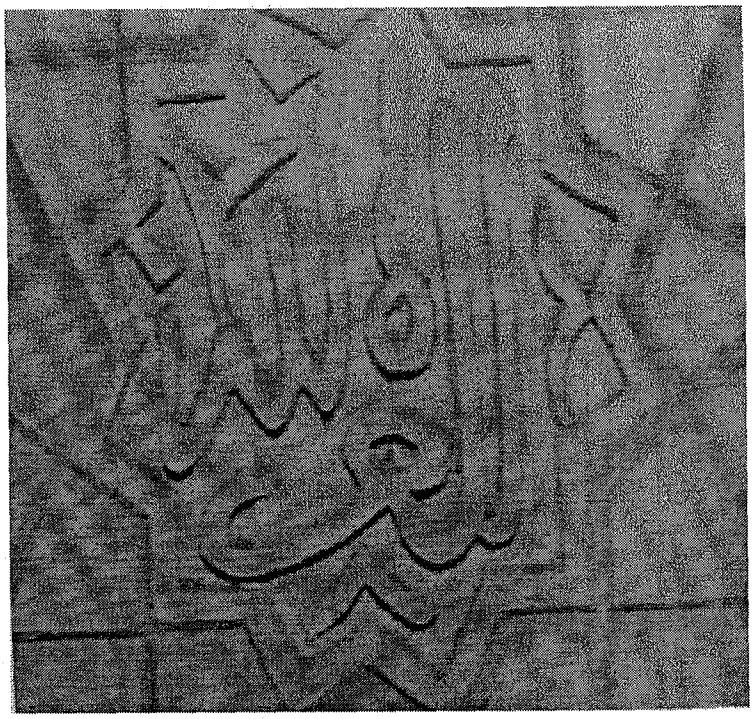

(اللوحة رقم 21): نموذج من ا لزخرفة الكتابية على الجص لصيغة " العز لله " بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

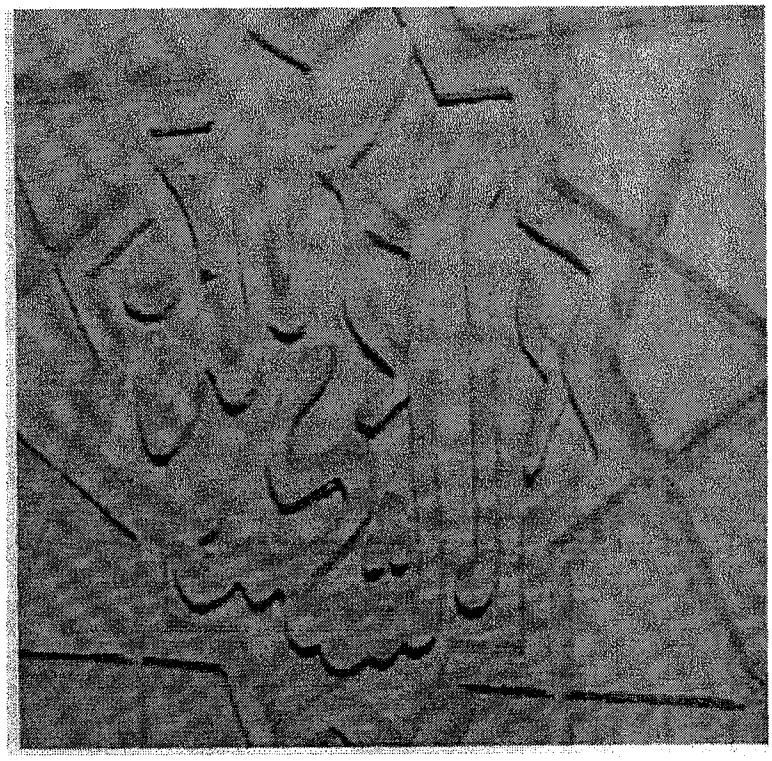

(اللوحة رقم 22): نموذج من ا لزخرفة الكتابية على الجص لصيغة " الشكر لله " بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

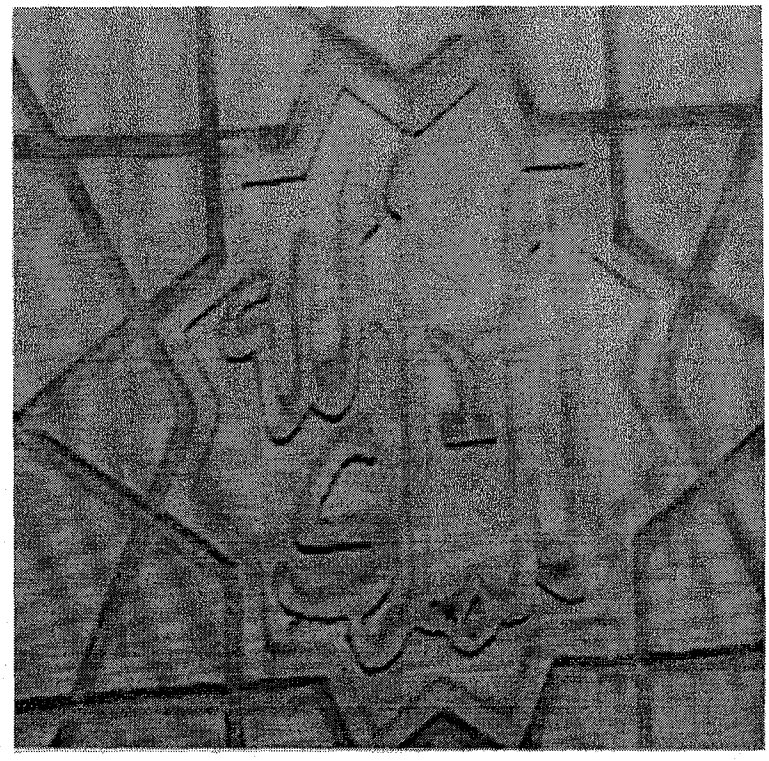

(اللوحة رقم 23): نموذج من ا لزخرفة الكتابية على الجص لصيغة " الملك لله " بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

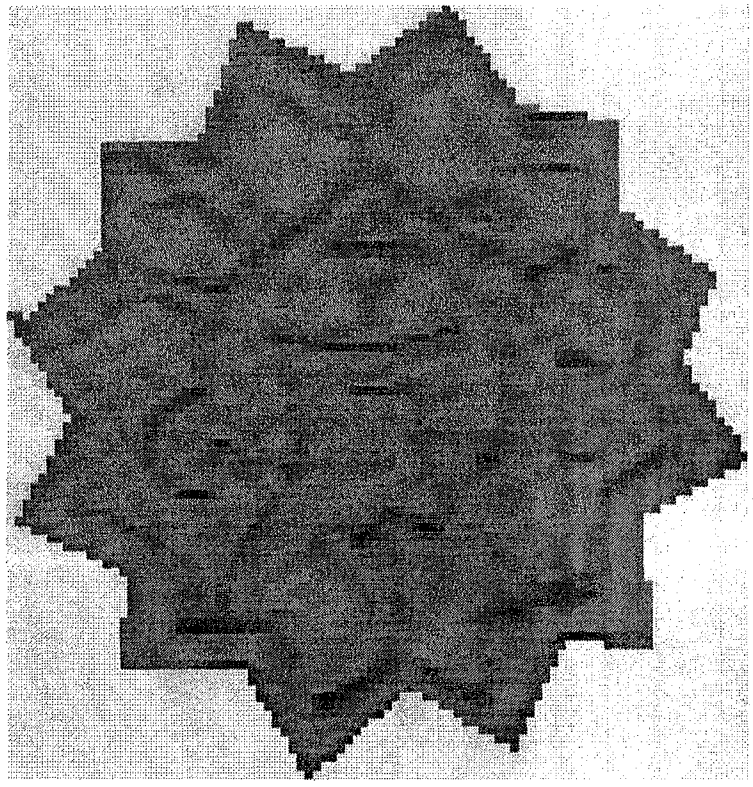

(اللوحة رقم 24): نموذج من ا لزخرفة النباتية بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

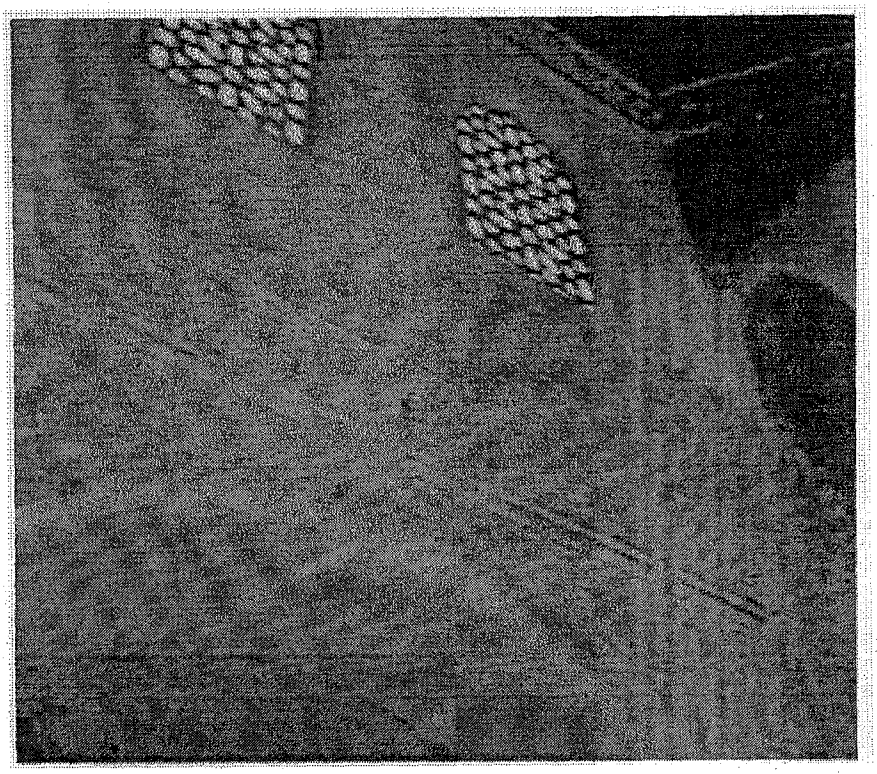

(اللوحة رقم 25): منظر لشمسيات بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

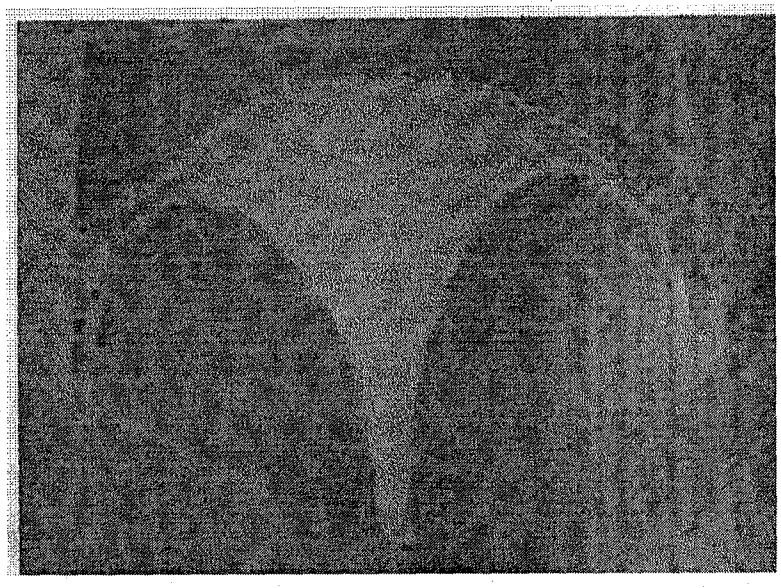

(اللوحة رقم 26): منظر لمنطقة إنتقال القبة من المربع الى المضلع بضريح سيدي إبراهيم المصمودي

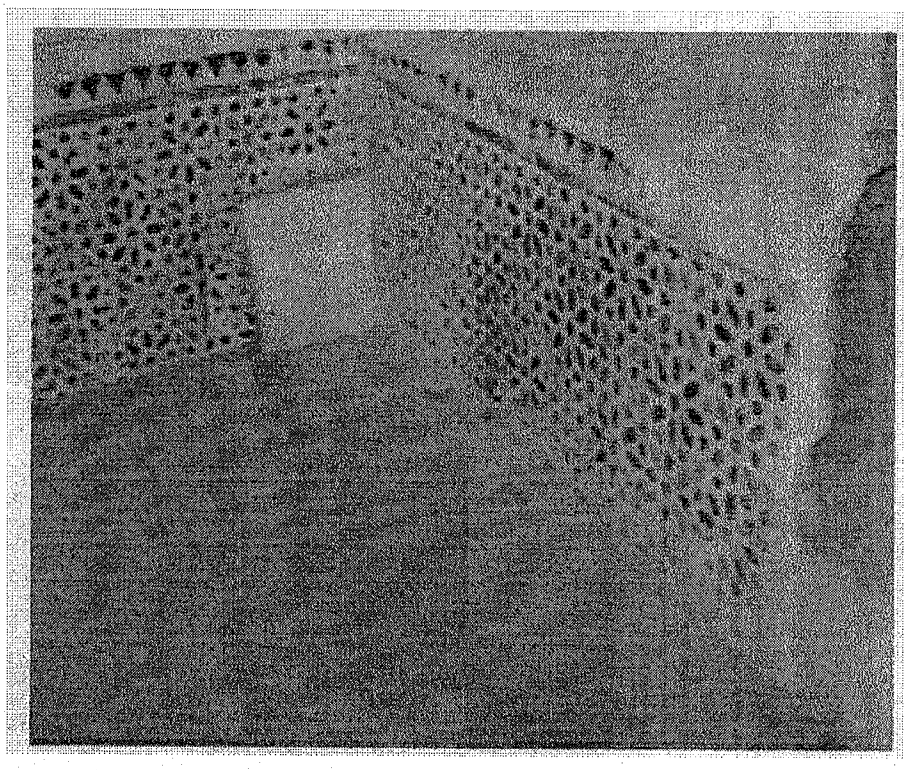

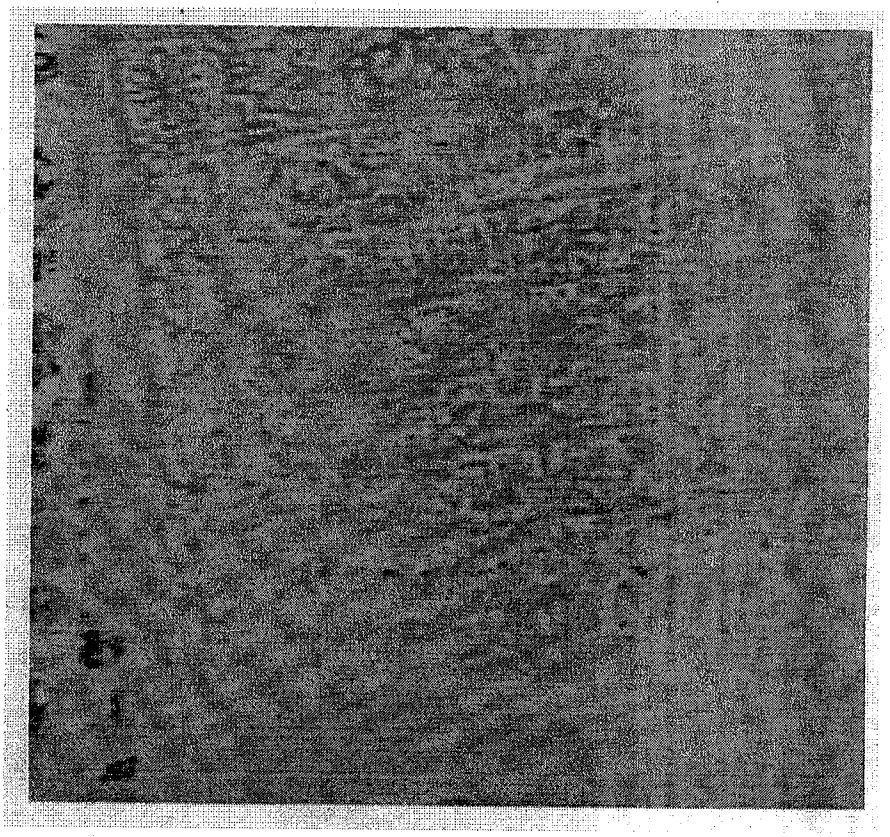

(اللوحة رقم 27-28): شاهدا قبر لملوك بني زيان بقاعة ضريح سيدي إبراهيم المصمودي

(لوحة رقم 29): منظر خارجي لضريح الشيخ السنوسي

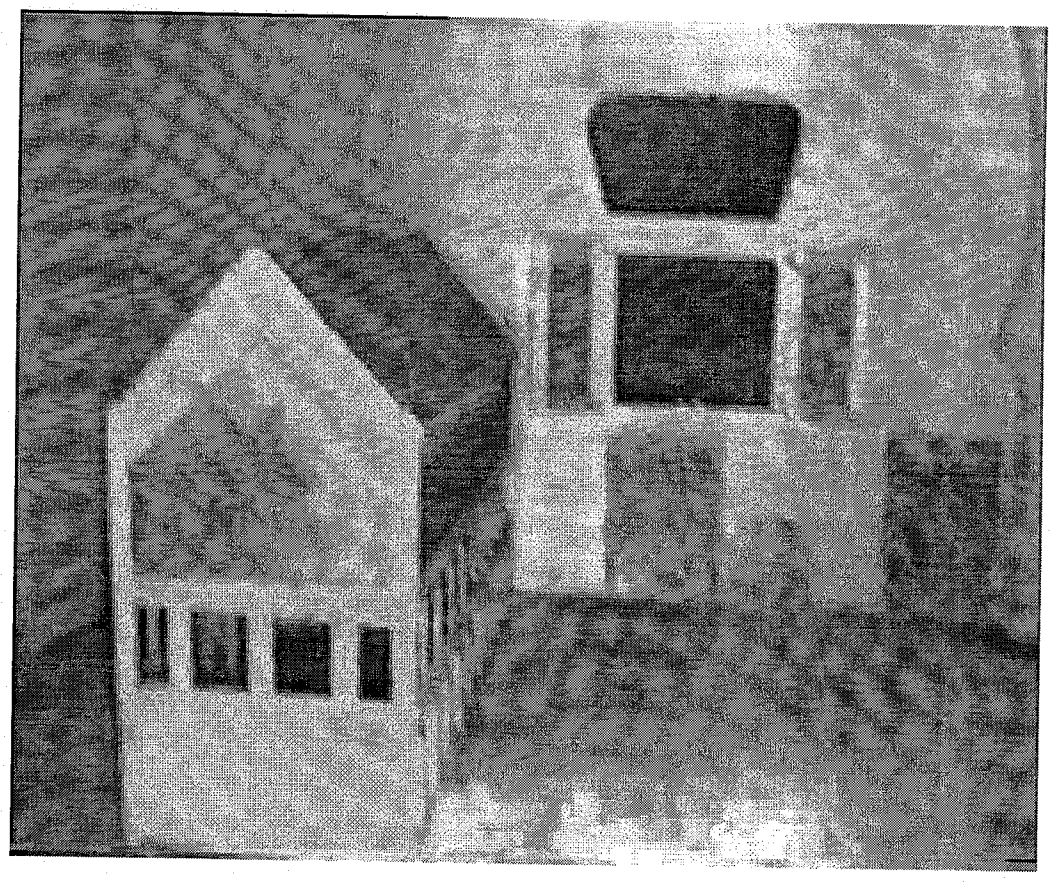

(لوحة رقم 30) : منظر داخلي لضريح الشيخ السنوسي

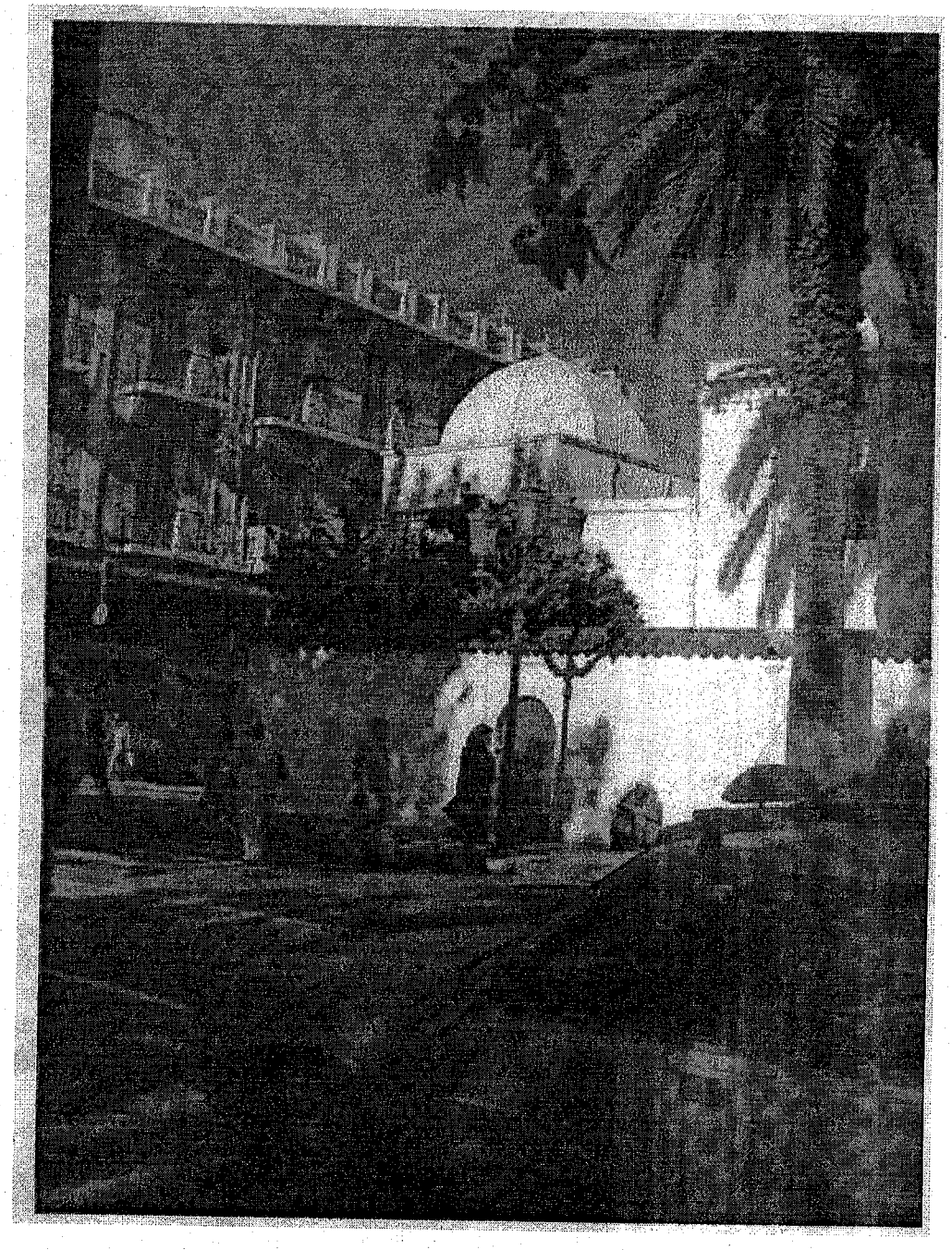

(لوحة رقم 31): منظر خارجي لضريح الحفيد ابن مرزوق

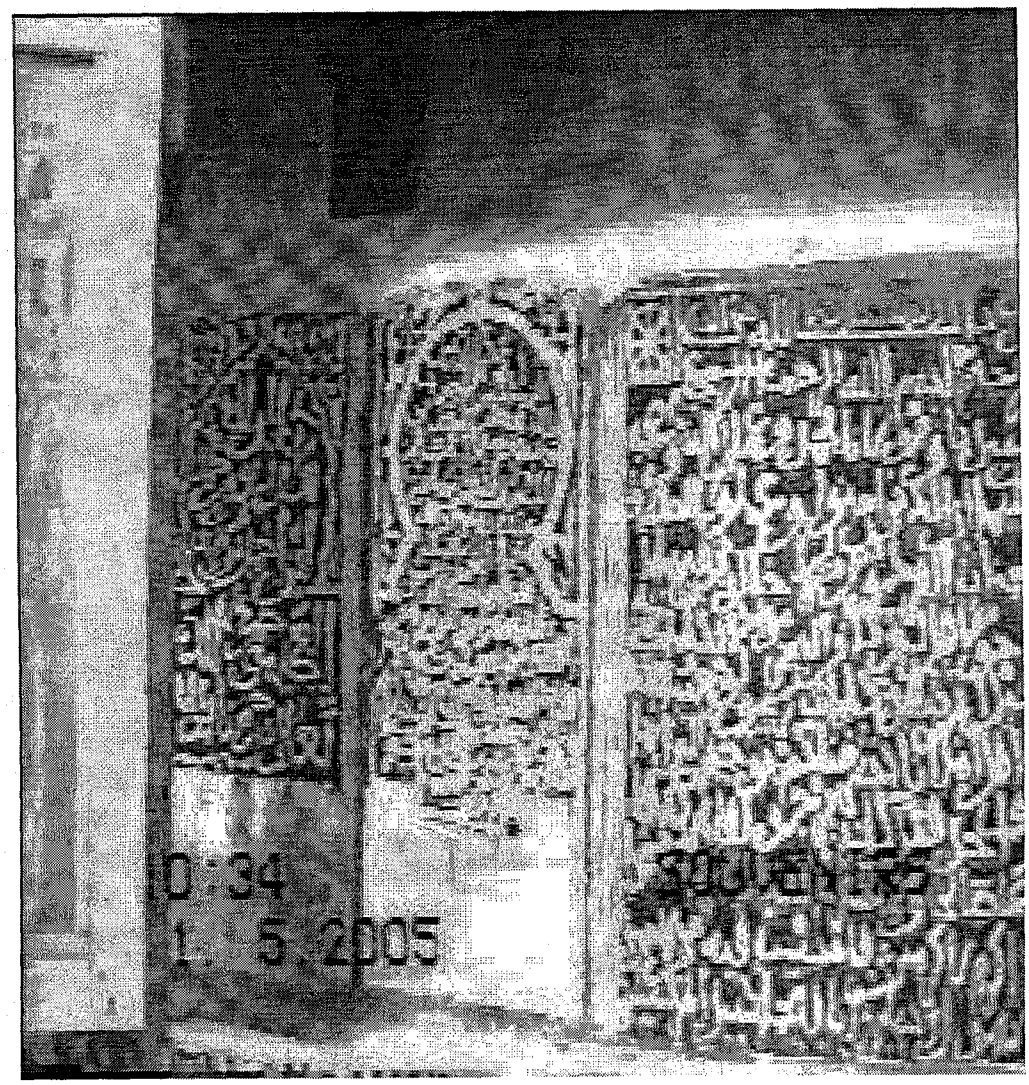

(لوحة رقم 32): شواهد قبر ابن مرزوق الحفيد

(لوحة رقم 33) : خزانة ضريح ابن مرزوق

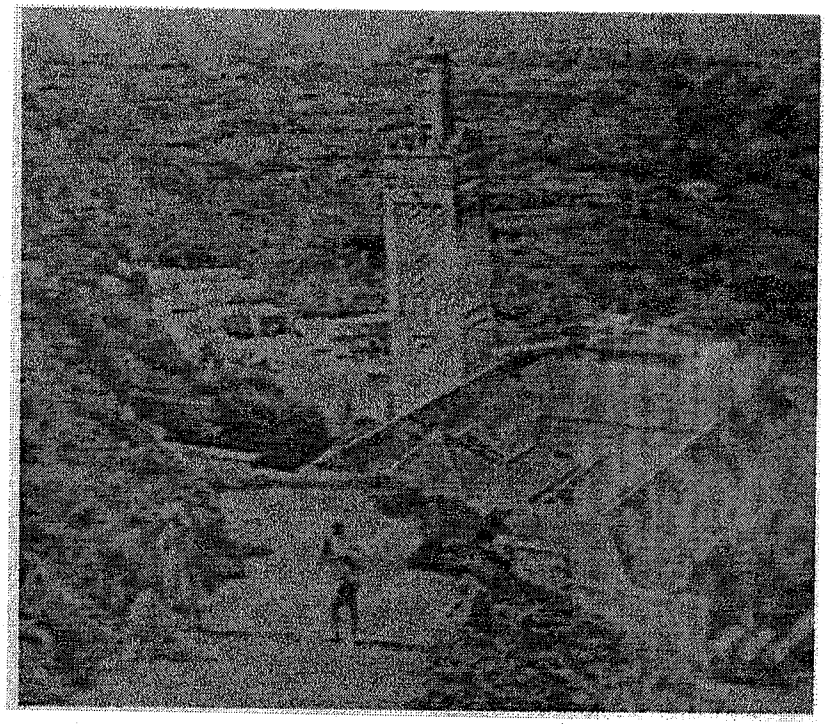

(لوحة رقم 34): منظر خارجي لمسجد سيدي الحلوي في الماضي

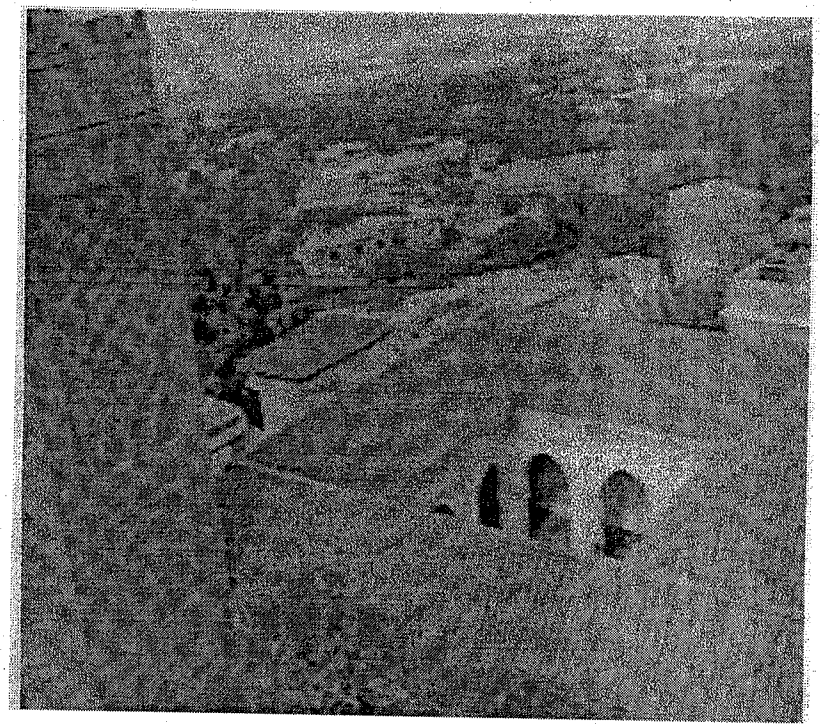

(لوحة رقم 34): منظر خارجي لمسجد سيدي الحلوي حاليا

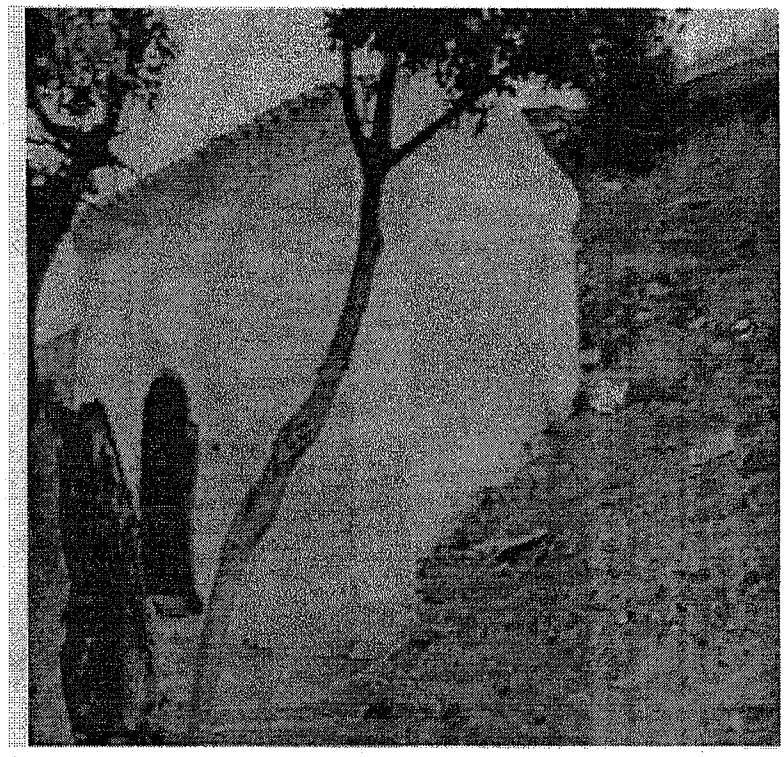

(لوحة رقم 35): منظر خارجي جانبي لضريح سيدي الحلوي

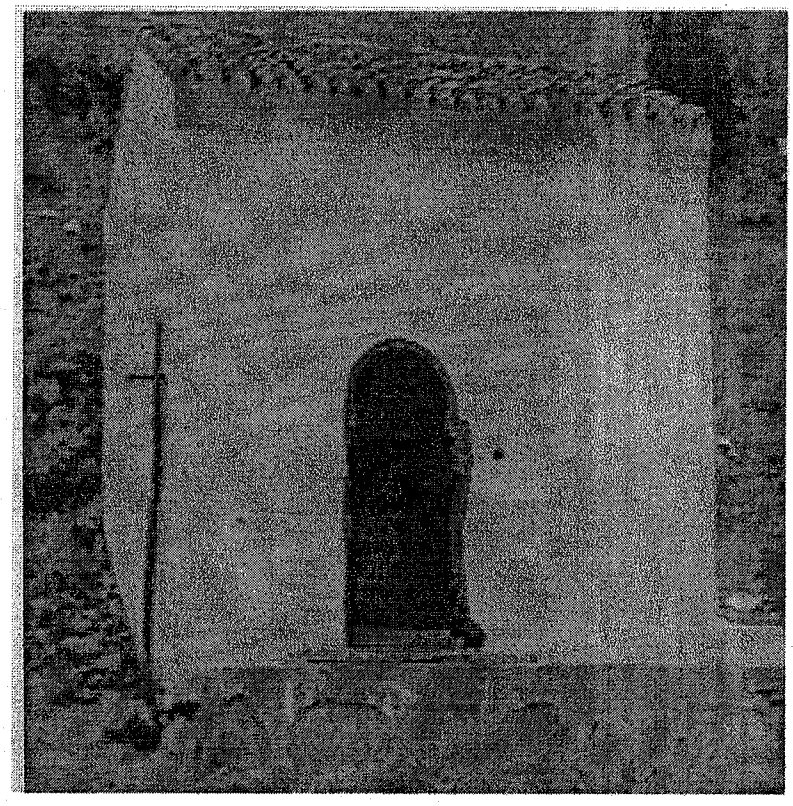

(لوحة رقم 35): منظر خارجي أمامي لضريح سيدي الحلوي

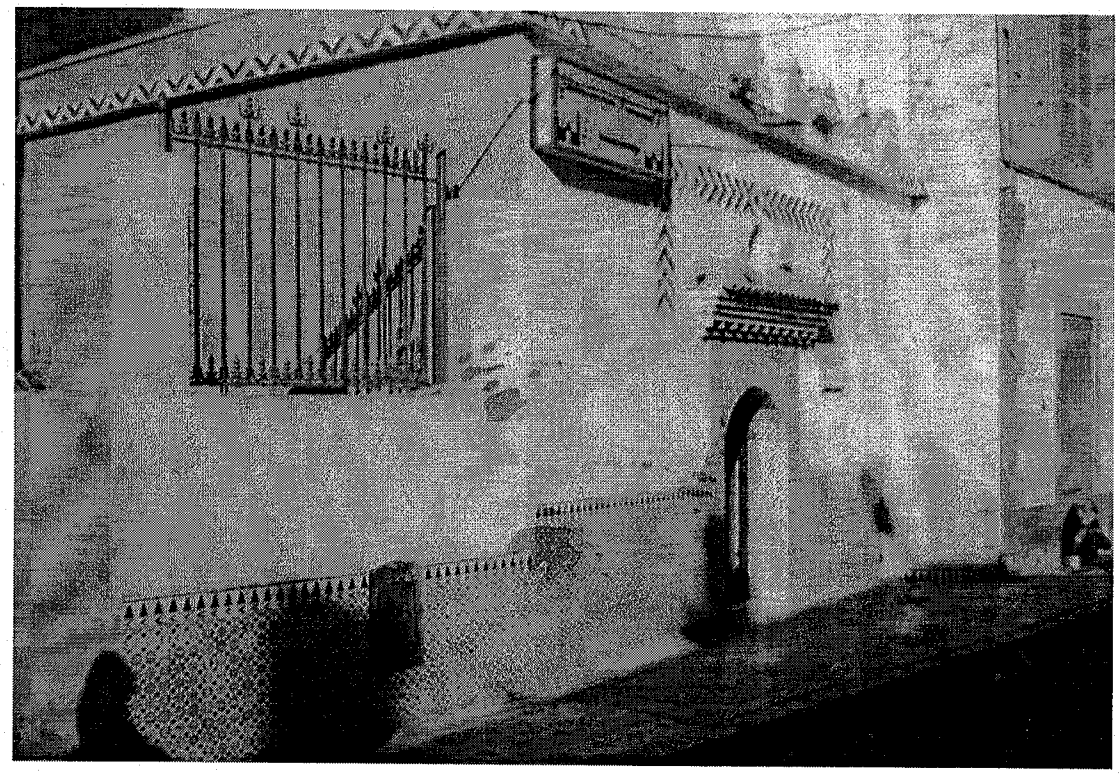

(لوحة رقم 36): منظر خارجي لضريح سيدي الهواري

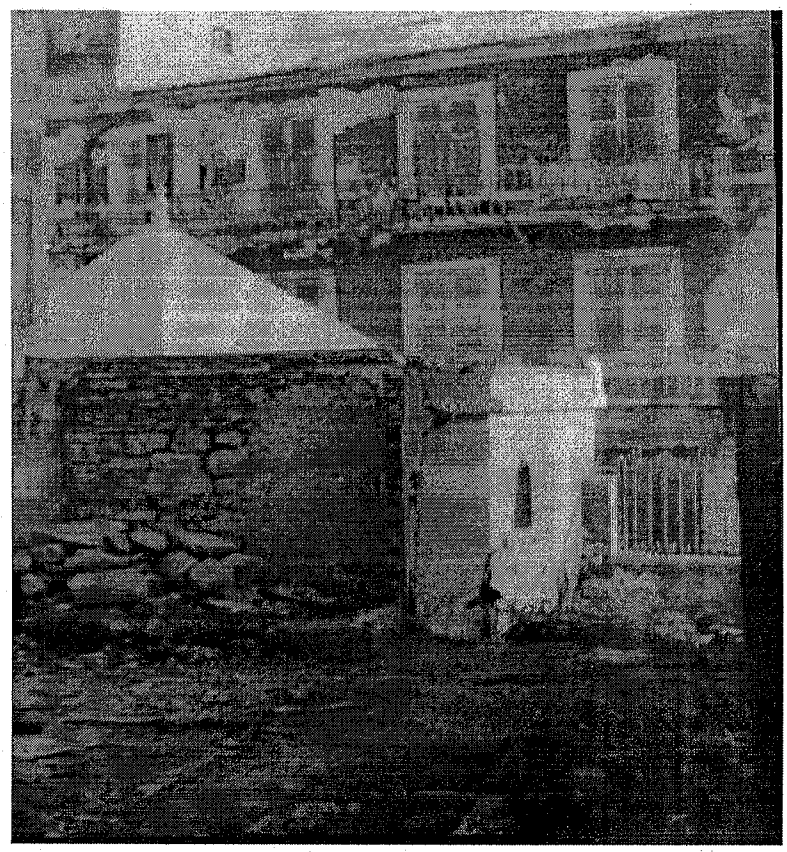

(لوحة رقم 37): منظر خارجي لقبة سيدي الهواري

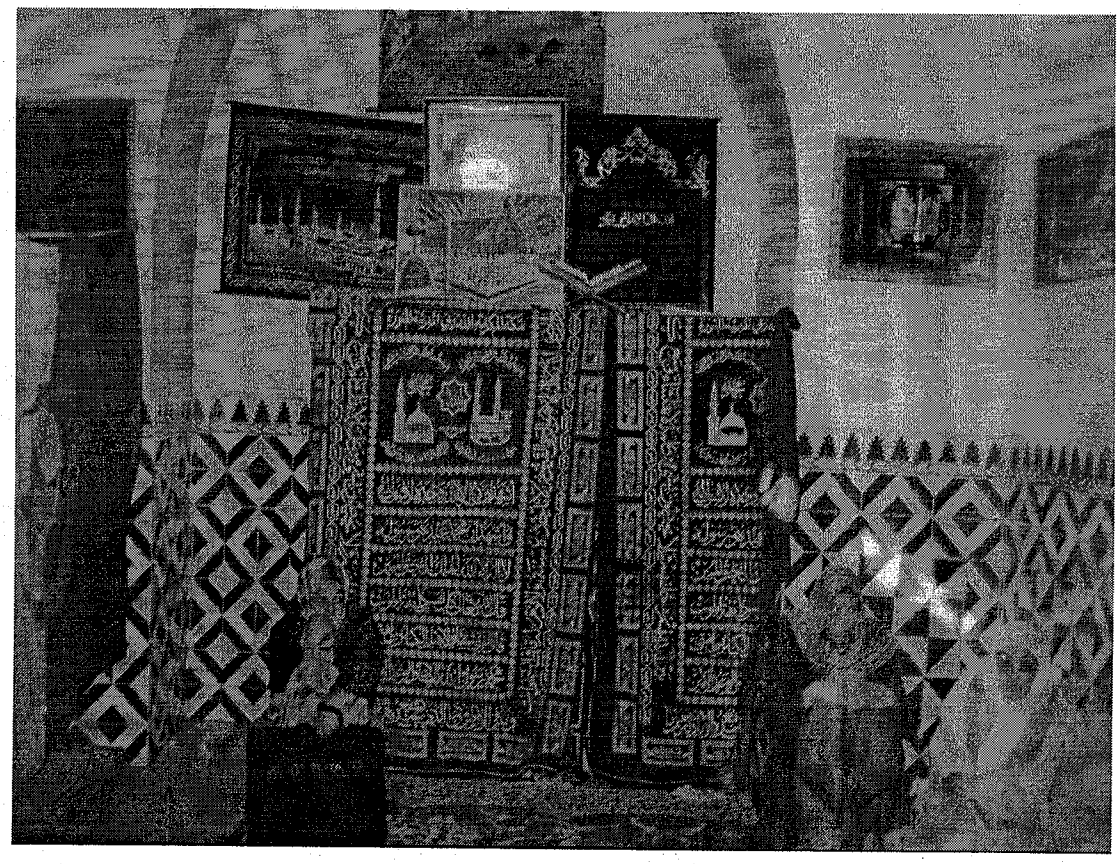

(لوحة رقم 38): تابوت سيدي الهواري

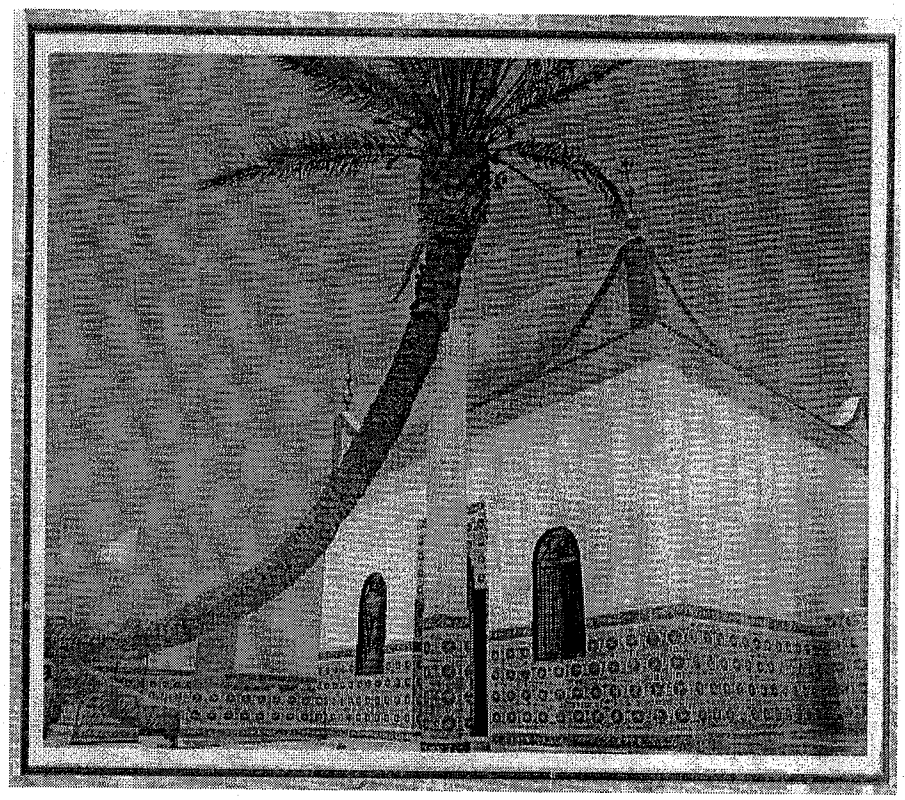

(لوحة رقم 39) : منظر خارجي لضريح الاخضر بن خلوف

محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ديوان الاخضر...ص1

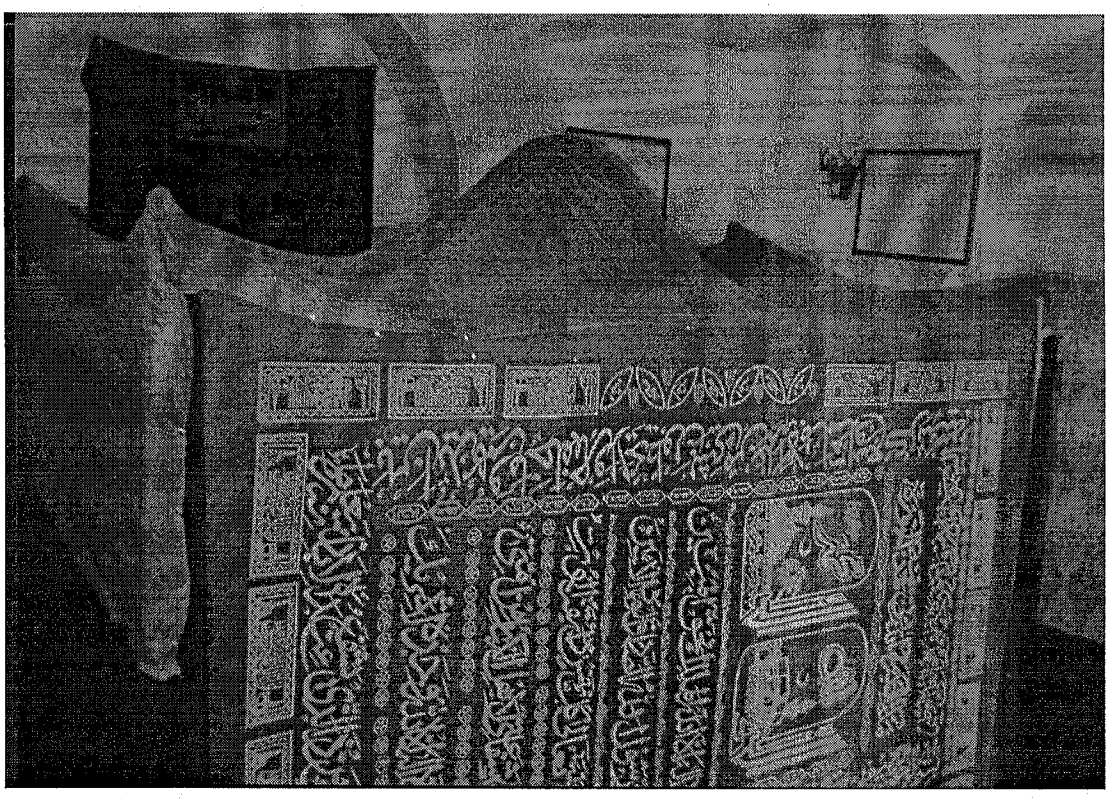

(لوحة رقم 40): تابوت سيدي الأخضر بن خلوف

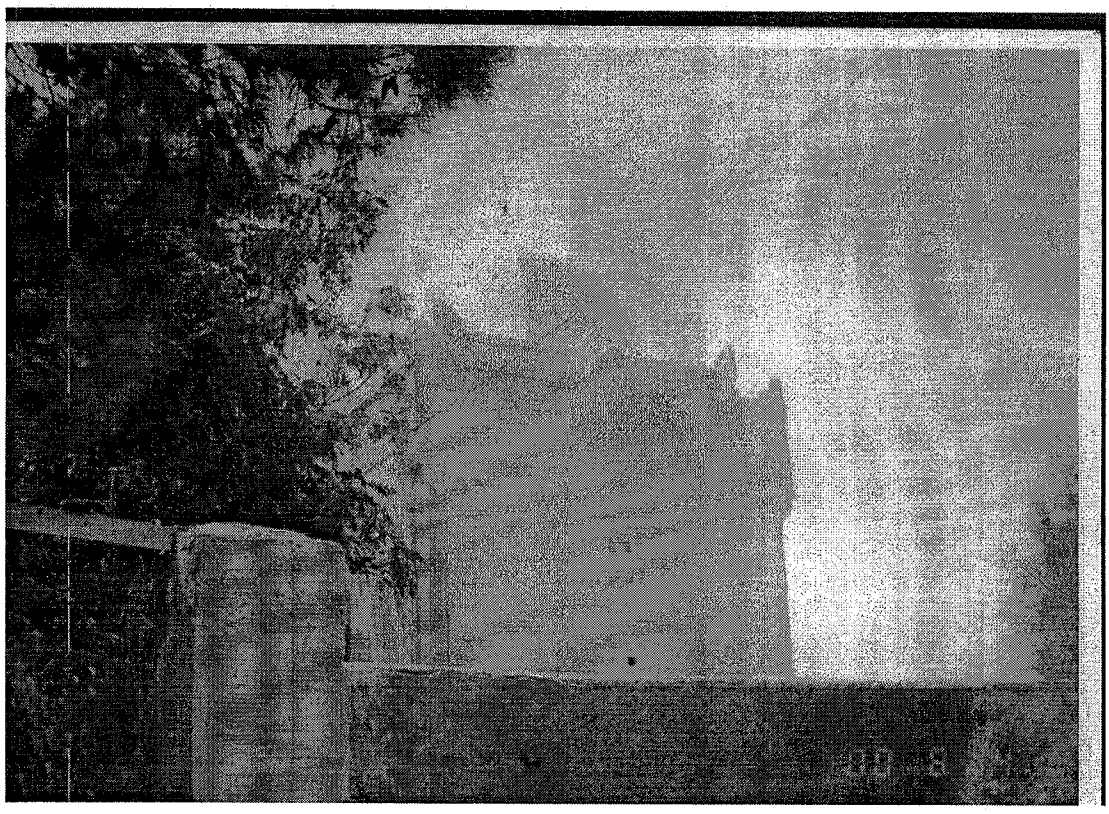

(لوحة رقم 41): نموذج عن أضرحة تيوت

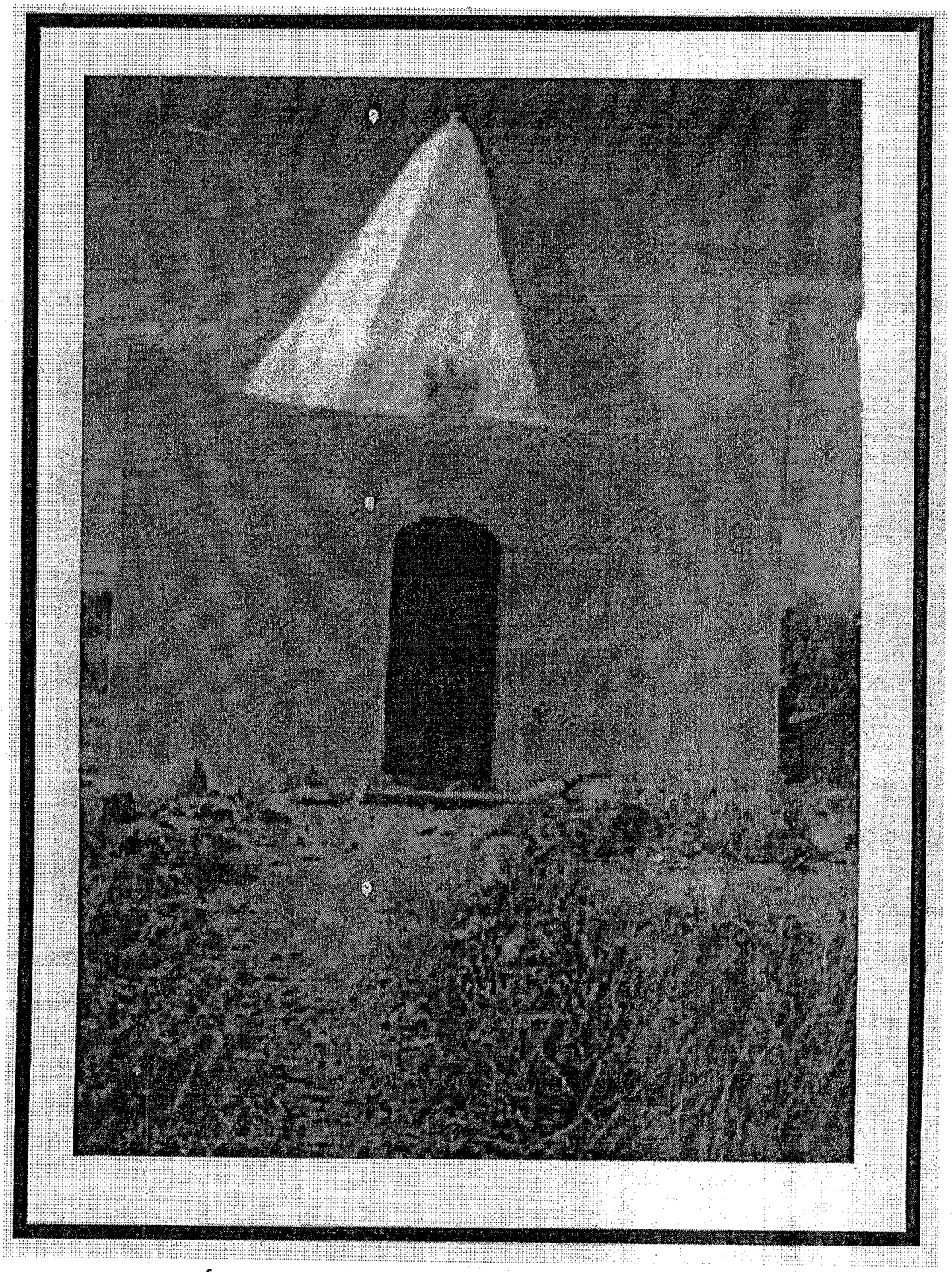

(لوحة رقم 42): ضريح سيدي الوافي بلحضري بعين الأربعاء

(أنظر السراج خالد: المقدس ....ص 208)

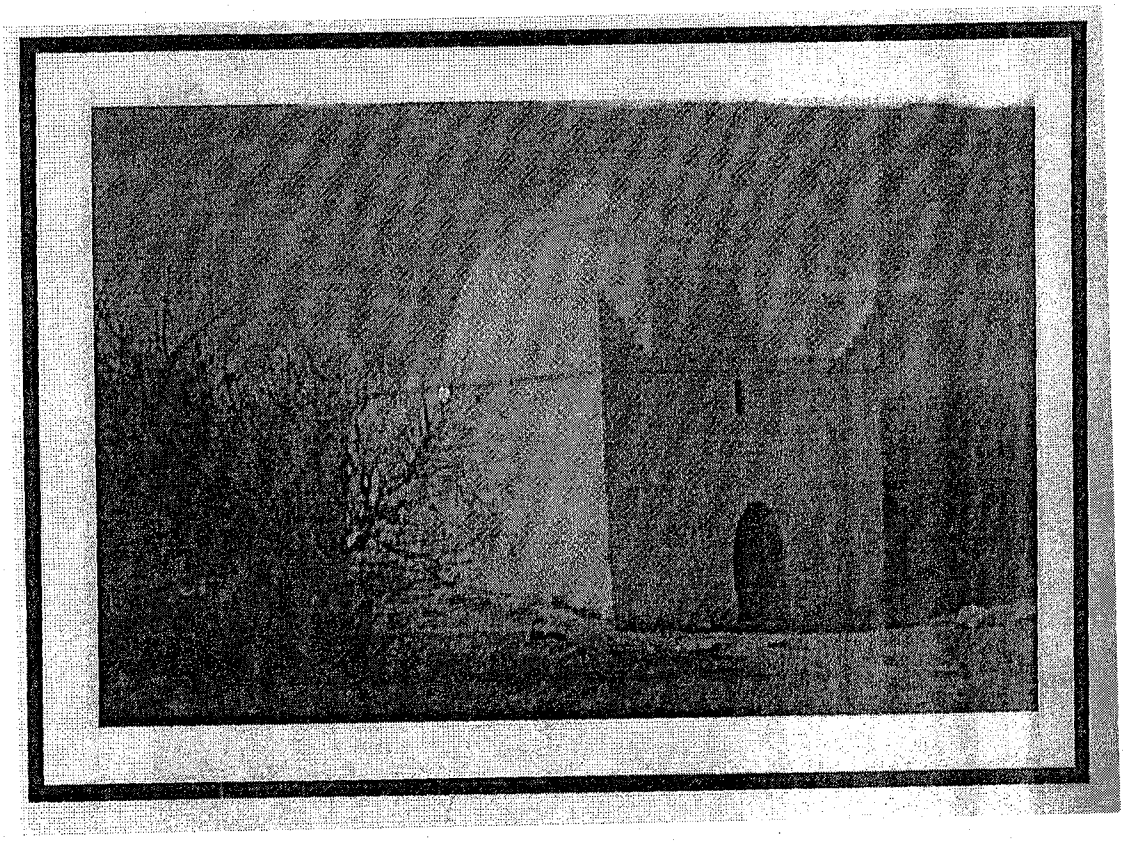

(لوحة رقم 43) : ضريح سيدي سعيد البجائي بعين الأربعاء

(أنظر السراج خالد: المقدس ودلالاته ...ص 207)

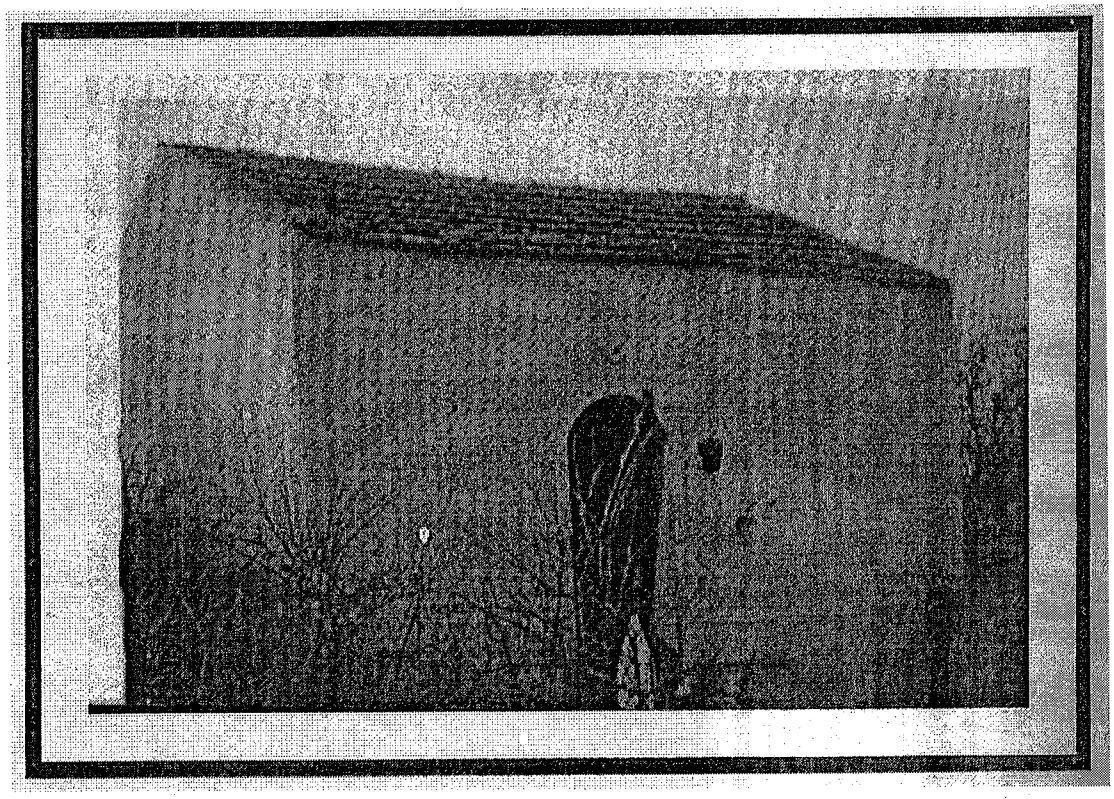

لوحة رقم 44 : ضريح سيدي بن عبو بعين الأربعاء

(أنظر السراج خالد : المقدس .....ص 211)

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ-ث
الفصل التمهيدي	1-28
أولا: مفهوم التصوف والولاية والكرامة	1-6
ثانيا: الإطار الجغرافي و التاريخي للغرب الجزائري	7-28ح
1.جغرافية المغرب الأوسط	7-8
2.تاريخ المغرب الأوسط من الفتح إلى العهد العثماني	8-28
أ- الدولة الرستمية	11-12
ب- الدولة الإدريسية	13-14
ت- الدولة الفاطمية	14-17
ث- دولة بني زيري وبني حماد الصنهاجيين	17-19
ج- الدولة المرابطية	19-21
ح- الدولة الموحدية	21-23
خ- الدولة الزيانية	23-26
د- الإحتلال الإسباني ودخول العثمانيين إلى المغرب الأوسط	26-28
الباب الأول	29-51
الفصل الأول : الضريح ونشأته	29-38
1. آراء الفقهاء حول الضريح	29-37
2. نشأة الضريح في العمارة الإسلامية	38
الفصل الثاني: الأضرحة في المشرق الإسلامي	39-51

1. الضريح الفاطمي 40-39
2. الضريح الأيوبي 41
3. الأضرحة السلجوقية(الطرز السلجوقية) 43-42
4. الأضرحة في العهد المملوكي 46-43
5. الأضرحة العثمانية 47-46
6. الأضرحة ذات الطراز الفارسي المغولي 50-47
7. الأضرحة ذات الطراز المغولي في الهند 51-50
الباب الثاني: أضرحة الغرب الجزائري من خلال بعض النماذج 152-51
الفصل الأول: الأضرحة السلطانية 130-52
1. ضريح سيدي أبي مدين 80-52
2. ضريح سيدي إبراهيم المصمودي 91-81
3. ضريح سيدي السنوسي 102-92
4. ضريح سيدي ابن مرزوق الحفيد 112-103
5. ضريح سيدي الحلوي 123-113
6. ضريح سيدي الهواري 130-124
الفصل الثاني: الأضرحة الشعبية 152-131
1. ضريح سيدي الأخضر بن خلوف 141-131
2. أضرحة مغرار التحتاني 147-142
3. أضرحة تيوت 150-147
4. أضرحة عين الأربعاء(عين تموشنت) 152-150
الباب الثالث: دراسة تحليلية لأضرحة الغرب الجزائري 189-153
الفصل الأول: دراسة مقارنة بين الأضرحة السلطانية 178-153
1.الأبعاد الدينية والتاريخية 156-153
2.العناصر المعمارية للأضرحة 178-156

الفصل الثاني: مقارنة من الناحية المعمارية 189-179

خاتمة 195-190

قائمة المصادر والمراجع 207-196

الملاحق 265-208

1- الخرائط 210-208

2- الأشكال 232-211

3- اللوحات 265-233